ردمد ٣٥١٥-١٦٥٨
ISSN.١٦٥٨-٣٥١٥
رقم الإيداع ١٤٢٨/٢١٩٠



قواعد وشروط النشر

مجلة الدراسات القرآنية مجلة دورية تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه. وتعنى بالبحوث العلمية، وفق الأمور الآتية:

- أن يكون البحث متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- أن تتحقق له السلامة اللغوية.
- مراعاة علامات الترقيم.
- ألا يكون قد سبق نشره.
- ألا يكون مستلاًّ من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
- توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً، وتضبط الحواشي آليا لا يدوياً .
- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث.
- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط الملحق في مكانها المناسب.
- ترفق جميع الصور والرسوم المتعلقة بالبحث واضحة جلية.
- ألا تزيد صفحات البحث عن ثمانين صفحة (A٤) ولا تقل عن عشرين صفحة.
- أن يكون خط الأصل (١٨) وخط الهامش (١٤)، ونوع الخط (Arabic Traditional).
- تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة

المصحف الشريف .

- يرفق الباحث ثلاث نسخ مطبوعة، مع ملخص لا يزيد على صفحة واحدة.
- تُحكَّم البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل.
- تُعاد البحوث معدلة على قرص حاسوبي.
- لا تعاد البحوث والدراسات إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- للمجلة الحق في نشر البحث على الموقع الإلكتروني للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بعد إجازته للنشر.
- أن تكون المراسلات عبر البريد الإلكتروني.
- يُعطى الباحث نسختين من المجلة وخمس مستلات من بحثه.

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم
رئيس هيئة التحرير على النحو التالي:

المملكة العربية السعودية - الرياض
ص. ب: ١٧٩٩٩ الرياض: ١١٤٩٤
هاتف وناسوخ ٢٥٨٢٧٠٥
البريد الإلكتروني: quranmag@gmail.com

عنوان الجمعية
ص - ب: ١٧٩٩٩ - الرياض - ١١٤٩٤ هاتف: ٢٥٨٢٦٩٥ - ٢٥٨٢٧٥٣

موقع الجمعية
www.alquran.org.sa

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحرير

الحمد لله جل في علاه، والصلاة والسلام على نبي الهدى مصطفاه ومجتباه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه في سيرته وسنته وهداه.

وبعـــــد :

ها هي مجلتكم الفتيَّة «مجلة الدراسات القرآنية» الصادرة عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه «تبيان» تتقدم إلى قرائها في عددها الجديد - العدد الثامن - في حلَّتها القشيبة، ومادتها العلمية المفيدة راجية أن تكون حاملة لقرائها المتميزين، وهواتها المتخصصين ما يأملونه منها، ويرجونه فيها من مادة علمية متنوعة تخدم تطلعاتهم، وتحقق رغباتهم، وتجيب على تساؤلاتهم، وتسهم – مع وصيفاتها – في إثراء المعرفة وخدمة التخصص.

والمجلة تدعو الباحثين الكرام إلى العناية التامة بالموضوعات الجديدة التي تضيف للتخصص المنفعة والفائدة، وذلك بتحرير مسائله المضطربة التي تحتاج إلى المزيد من التحرير والتقرير، وكذا معالجة المسائل الشائكة، والقضايا العلمية القائمة، والاضطرابات الفكرية المعاصرة؛ ففي القرآن الكريم ما ينير الظلمة، ويحقق الرشد والهداية لهذا العالم المضطرب التي تتيه خطاه في حل مشكلاته التي تصنعها يداه، وتخطو إليها قدماه، فقد نزل هذا القرآن العظيم بالحق لهداية الخلق، وإقامة العدل، وهو ما تنشده الإنسانية، ويهفو إليه العالم مما يوجب على المسلمين تحمل واجب إبلاغ هذا الدين للناس أجمعين.

كما نأمل من القراء الكرام طرح ما يرونه جديراً بالبحث والدراسة من الموضوعات والمسائل، وما هو أحق من غيره بالتقديم في الدراسة والمعالجة.

نسأل الله للجميع التوفيق والسداد في القول والعمل والاعتقاد.

رئيس تحرير المجلة

أ. د / محمد بن عبد الرحمن الشايع

المحتويات

الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى:

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾

تأليف

علي بن محسن الصَّعيدي المعروف بالرُّمَيْلي (ت : بعد ١١٣٠هـ)

دراسة وتحقيق

د. ناصر بن محمد بن عثمان المنيع

د. ناصر بن محمد بن عثمان المنيع

- أستاذ مشارك بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود.
- حصل على درجة الماجستير من كلية التربية جامعة الملك سعود بأطروحته (من فوائد أبي بكر المطرز وأماليه القديمة الغرائب الحسان - دراسة وتحقيق).
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بأطروحته: (الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي – القسم الثاني - دراسة وتحقيق).

مُقَدِّمَة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،،

فقد تفضل الله عز وجل علينا بإنزال أفضل كتبه نظماً، وأحسنها بيانا، وأتمها شرعة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ تنزيل من حكيم حميد ؛ تكفل الله بحفظه وبيانه . وتم ذلك بعون الله وتوفيقه على يد صحابة كرام وعلماء أجلاء حملوا هذا الهدف النبيل على عواتقهم، ووضعوا من أجله علوماً منضبطة ؛ ساهمت في حفظ القرآن وضبطه ونشره، ومن هذه العلوم علم القراءات .

إن هذا العلم من أشرف العلوم، وأكثرها ارتباطا بالقرآن الكريم، وذلك لتعلقه بنص القرآن وكلماته وحروفه، فمن حازه تَحَصَّل له ما لا يُحصى من الأحكام والمعاني واللغات ؛ فهو غاية في نفسه ووسيلة إلى علوم أخرى .

ولقد تعددت المؤلفات في علم القراءات وتنوعت ؛ فمنها الكتب والشروح المطولة، ومنها الرسائل والأجزاء المختصرة . ومن جملة ذلك الرسالة النفيسة التي ألفها الشيخ علي بن مُحسن الصَّعيدي المعروف بالرُّمَيْلي رحمه الله (ت : بعد ١١٣٠هـ) بعنوان "الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ "، والتي لا تزال مع أهميتها مخطوطة، وقد

عقدت العزم –بإذن الله –على تحقيقها وإخراجها إخراجا علميا يليق بقيمتها الكبيرة ؛ خاصة وقد توفرت لي نسخها الخطية، وقد قسمت البحث إلى قسمين ؛ الأول : التعريف بالمؤلف والكتاب . والثاني: تحقيق النص .

أهمية البحث .

تكمن أهمية البحث في أهمية الكتاب المحقق وقيمته العلمية ويتضح ذلك بما يأتي :

١- ضُمِّنَ في الكتاب رسالتان نادرتان في علم القراءات ؛ الأولى : "الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ " لابن الجزري رحمه الله، والثانية :"فتح الكبير المتعال بشرح مُذْهِبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال" لشمس الدين البقري رحمه الله.

٢- كتاب "الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾" جمع مصادر متعددة ومتنوعة قديمة وحديثة لبيان كيفية تلاوة بعض الآيات .

٣- هذا الكتاب تطرق لأبواب مهمة من أبواب التجويد والقراءات؛ مثل: الهمز والتسهيل والمد والقصر وغيرها .

٤- أن هذا الكتاب فَصَّل –على وجه الخصوص- في حكم تلاوة كلمة شريفة في آيتين كريمتين هما قوله تعالى ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [1]، وقوله تعالى فيها ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ

(١) سورة يونس آية رقم ٥١ .

عَصَيْتَ ﴾ [1]، كما فصل في غيرها من كلمات القرآن .

٥- مؤلف الكتاب عالم محقق مشارك في جملة من العلوم والمعارف ومنها علم القراءات.

أهداف البحث .

١- إخراج كتاب "الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى **﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾**" إخراجاً علمياً وفق قواعد التحقيق العلمي المتبعة .

٢- خدمة النص بالتعليق والتوضيح عند الحاجة بما يقرب الكتاب إلى القارئ الكريم .

٣- التعريف بمؤلف الكتاب، وتسليط الضوء على حياته ومؤلفاته .

٤- دراسة الكتاب، وبيان مزاياه، ومنهج مؤلفه فيه .

إجراءات البحث والتحقيق .

١- التعريف بالمؤلف وبحياته، ثم التعريف بالكتاب ونسخه، وإثبات نسبته إلى مؤلفه.

٢- نسخ المخطوط من النسخة (أ)، ثم مطابقتها بالنسختين (ب)و(جـ)، واختيار الصحيح، وإثباته في المتن، والإشارة في الهامش إلى ما في النسختين .

٣- تحرير النص بكتابته حسب القواعد الإملائية الحديثة مع استخدام علامات الترقيم حسبما تقتضيه الحاجة .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٩١ .

٤- كتابة الآيات بالرسم العثماني الموافق لقراءة حفص، ووضع الآيات القرآنية بين قوسين هكذا ﴿...﴾ مع الإشارة في الهامش إلى رقم الآية واسم السورة .

٥- ضبط ما يحتاج إلى ضبط من كلمات النص؛ مع إصلاح ما يقع فيه من أخطاء نحوية .

٦- ضبط الأبيات الشعرية بالشكل، وتخريجها من مظانها من الدواوين أو المنظومات، وإكمال البيت من الحاشية إذا لزم الأمر .

٧- التعريف بأعلام الكتاب تعريفا موجزا .

٨- تخريج القراءات من مصادرها ومظانها .

٩- الاستدراك على المؤلف في بعض آرائه في مسائل القراءات .

١٠- الإشارة في الهامش إلى المصادر التي نقل منها المؤلف، وذلك بذكر الجزء والصفحة.

١١-شرح الألفاظ الغريبة في الكتاب والتعريف بمصطلحات القراء .

١٢- ختم البحث بمجموعة من الفهارس العلمية المتنوعة .

القسم الأول : التعريف بالمؤلف والكتاب،
وفيه مبحثان:

المبحث الأول : ترجمة المصنف .

المبحث الثاني : دراسة الكتاب .

المبحث الأول : ترجمة المصنف .

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : اسمه ونسبه وكنيته .

المطلب الثاني : مولده .

المطلب الثالث : شيوخه وتلامذته .

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه .

المطلب الخامس : مؤلفاته .

المطلب السادس : وفاته .

المطلب الأول [(1)] : اسمه ونسبه وكنيته .

هو علي بن محسن الصَّعيدي [(2)] الشاذلي ، الوفائي [(3)]، المالكي، الأزهري، المعروف بالرُّمَيْلي [(4)] .

وكنيته : أبو الصلاح . ولقبه : نور الدين .

المطلب الثاني : مولده .

لم أجد في المصادر التي بين يدي تاريخاً لمولده ؛ لكن بالنظر إلى تاريخ وفاة من عرفت من شيوخه يمكن القول بأنه ولد في حدود سنة (١٠٦٥هـ-١٠٧٥هـ) .

المطلب الثالث : شيوخه وتلامذته .

لم تذكر المصادر التي اطلعت عليها أسماء شيوخه، لكني وقفت على :

١- محمد بن عمر بن قاسم البَقَري الشناوِي رحمه الله ولد سنة

---

(١) مصادر ترجمته : هدية العارفين (٥/ ٧٦٥)، إيضاح المكنون (٣/ ٣٦٥) (٤/ ٦٩٨)، الحلقات المضيئات للسيد بن أحمد (١/ ٢٧٤) الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣)، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢/ ٤٩٠)

(٢) الصعيدي نسبة إلى الصعيد بمصر، بلاد مشهورة واسعة فيها عدة مدن .

(٣) الشاذلية : نسبة إلى طريقة من طرق الصوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي . والوفائية : شعبة متفرعة عنها تنسب إلى أبي الفضل محمد بن وفاء. انظر الطرق الصوفية، عامر النجار (ص ١٦٤) المذاهب الصوفية ومدارسها، عبدالحكيم قاسم (ص ١٨، ١٩٥) فضائح الصوفية، عبدالرحمن عبدالخالق (ص ٤٩-٥٠)، أضواء على الطرق الصوفية، عبدالله إبراهيم (ص ١٣٧)

(٤) لعلها نسبة إلى موضع بمصر يسمى : رُمَيْلَة . انظر معجم البلدان (٣/ ٧٣) تاج العروس للزبيدي (٢٩/ ١٠٥)

(١٠١٨هـ)[١]، من شيوخه: عبدالرحمن اليمني وغيره، ومن تلاميذه : الرُّمَيْلي، والمنجرة، وعبدالخالق المنوفي وغيرهم، ومن مؤلفاته : "القواعد المقررة"، و"الفوائد المحررة"، و"غنية الطالبين ومنية الراغبين"، وكلها في القراءات . توفي سنة (١١١١هـ) [٢] .

٢ - علي بن علي نور الدين أبو الضياء الشَّبْرَاملسي رحمه الله [٣] . ولد سنة (٩٩٧هـ)، تعلَّم وعلم بالأزهر، فقيه شافعي مصري، وصنف كتبا منها "حاشية على المواهب اللدنية للقسطلاني" . توفي سنة (١٠٨٧هـ) [٤] .

أما تلامذته ؛ فمنهم :

١ - أحمد بن مصطفى بن أحمد الزبيري المالكي الإسكندري رحمه الله . أخذ عن الرُّمَيْلي، وإبراهيم البلقطري، وأحمد الكبنكسي وغيرهم .

---

(١) قال الرُّمَيْلي ~ : "مما قرأت به على شيخي الإمام العالم العلاَّمة مفيد الطالبين، وعمدة السالكين، صوفي أهل زمانه، وَوحيد عصره وأوانه : محمد بن قاسم البَقَري الشافعي الأزهري الأشعري" . انظر (ص ٣٢)

(٢) هدية العارفين (٦/ ٦١٢)، الأعلام ذكره في موضعين (٦/ ٣١٧) و(٧/ ٧)، هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ عبدالفتاح المصرفي (ص ٧١٧) انظر مقدمة كتاب غنية الطالبين للمحقق محمد معاذ مصطفى (ص ١٣-١٤)

(٣) ليس لدي دلالة أكيدة على أنه من شيوخه ؛ لكن قد نقل الرُّمَيْلي عنه في هذا الكتاب، وهو معاصر له ومن بلده . قال الرُّمَيْلي :"قد نَظَمَ العلامة الشيخ علي الشبراملسي ما يتعلق بمذهب ورش في ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾... " . انظر (ص ٤٩)

(٤) خلاصة الأثر (٢/ ١٩٨)،الأعلام (٤/ ٣١٤)، هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ لعبدالفتاح المرصفي (ص ٧٨٣)

توفي سنة (١١٦٢هـ) [١] .

٢- محفوظ الفوي رحمه الله ، المقرئ برواق بني معمر بالجامع الأزهر. أخذ عن الرُّمَيْلي، ومحمد بن يوسف، وأخذ عنه عبد الرحمن الأجهوري، وعلي البدري . توفي سنة (١١٧٨هـ) [٢] .

٣- محمد بن حسن بن محمد جمال الدين السَّمِنودي الأزهري الشافعي المعروف بالْمُنَيِّر رحمه الله . ولد سنة (١٠٩٩هـ) أخذ عن الرُّمَيْلي، ومحمد عقيلة، والصديقي، وأخذ عنه إسماعيل المحلي، ومحمد الكبير، والشنواني، ومن مؤلفاته : "رسالة في أصول القراءات"، "رسالة في رواية حفص"، "شرح الدرة". توفي سنة (١١٩٩هـ)[٣].

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه .

قال الزركلي : "من فضلاء المالكية" [٤] .

قال عمر رضا كحالة : "فاضل، مشارك في بعض العلوم" [٥] .

المطلب الخامس : مؤلفاته .

١- تعطير الأنفاس بمناقب سيدي أبي الحسن الشاذلي وسيدي العباس.

نسبه إلى الرُّمَيْلي رحمه الله كل من : إسماعيل باشا [١]، والزركلي [٢]،

---

(١) عجائب الآثار (١/ ٢٤٨)، معجم المؤلفين (١/ ٣٠٨)

(٢) عجائب الآثار (١/ ٣٢٨)، الحلقات المضيئات (١/ ٢٥٧)

(٣) هدية العارفين (١/ ٦٣١)، الأعلام (٦/ ٩٢)، معجم المؤلفين (٣/ ٢٣٢)

(٤) الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣)

(٥) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

وعمر كحالة [٣] .

وموضوع الكتاب كما هو واضح من عنوانه في مناقب أبي الحسن الشاذلي، وقد قسمه إلى: مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة . وهو لا يزال مخطوطا [٤] .

٢- المنح الإلهية بشرح الدرة المضية في علم القراءات الثلاثة المرضية . نسب هذا الكتاب له السيد بن أحمد [٥] . والكتاب ما زال مخطوطا[٦] .

٣- نيل المرام بوقف حمزة وهشام [٧] .

٤- الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلۡـَٔـٰنَ ﴾ . وسيأتي الكلام عليه مفصلا في المبحث الثاني .

---

(١) هدية العارفين (٥/ ٧٦٥)

(٢) الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣)

(٣) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

(٤) يوجد منه نسخة خطية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (١٣٢١)

(٥) الحلقات المضيئات (١/ ٢٧٤)

(٦) له ثلاث نسخ خطية، انظر الفهرس الشامل – قسم القراءات –(٢/ ٥٦٨)

(٧) حقق وقدم رسالة ماجستير لكلية التربية الأقسام الأدبية الرياض –السعودية بتحقيق الباحثة سمية الناصر .

المطلب السادس : وفاته .

اتفق أكثر من ترجم له على أن وفاته كانت بعد سنة (١١٣٠هـ) [١] .

وذكر عمر كحالة أنه توفي في العام نفسه أي سنة (١١٣٠هـ) [٢]، ولعله قال ذلك من باب الاختصار .

(١) هدية العارفين (٥/ ٧٦٥)، الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣)، الحلقات المضيئات (١/ ٢٧٤)

(٢) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

المبحث الثاني : دراسة الكتاب،

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : إثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

المطلب الثاني : تحقيق اسم الكتاب .

المطلب الثالث : منهج المؤلف في كتابه .

المطلب الرابع : مصادر الكتاب .

المطلب الخامس : وصف النسخ الخطية .

المطلب الأول : أثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

كتاب " الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾" ثابت النسبة إلى علي بن محسن الصعيدي الرُّمَيْلي رحمه الله بأدلة ؛ منها ما يأتي:

١ -نسبه إليه كل من : عمر رضا كحالة [١]، و السيد بن أحمد [٢]، و إسماعيل باشا . وقال -زيادة في إثبات النسبة- :"أولها: الحمدلله الذي خص أولياءه بحفظ كتابه المصون..."[٣]. وهذه هي بداية الكتاب [٤] .

٢- وجود اسم المؤلف كاملا على صفحة العنوان في النسختين الخطيتين [٥] .

٣- وجود اسم المؤلف كاملا في بداية الكتاب المخطوط ؛ حيث يقول المؤلف بعد المقدمة : "فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه : أبو الصَّلاح عليٌّ نور الدين بن محسن الصَّعيدي المالكي الوفائي الأزهري : سألني بعض إخواني أن أجمع رسالةً في بعضِ مشكلات... " [٦].

٤- ذَكَرَ الكتاب بعضُ أصحاب الفهارس منسوباً إلى علي بن محسن الرُّمَيْلي رحمه الله [٧].

---

(١) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

(٢) الحلقات المضيئات للسيد بن أحمد (١/ ٢٧٤)

(٣) إيضاح المكنون (٣/ ٤٦٥)

(٤) انظر (ص ٣١)

(٥) انظر (ص ٣٠)

(٦) انظر (ص ٣١)

(٧) فهرسة المكتبة الأزهرية (١/ ٨٢) وفيه : تلميذ الشيخ البقري ومن رجال القرن الثاني عشر =

ولا يفوتني في هذا المقام أن أُثبت نسبة كتاب (الإعلان عن مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾) إلى الإمام ابن الجزري رحمه الله بأدلة منها ما يأتي :

١- أشار ابن الجزري رحمه الله في كتابه المشهور "النشر في القراءات العشر" -باب قواعد مهمة في المد- إلى هذا الكتاب حيث قال : المسألة السابعة ؛ تحريرا لمسائل كلمة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ ... ولي فيها إملاء قديم لم أبلغ فيه هذا التحقيق" [١] .

٢ – ذكر الكتاب الرُّمَيْلي الصعيدي رحمه الله في كتابه (الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾) منسوبا إلى ابن الجزري رحمه الله حيث قال :"قال الشيخ العالم العلامة محمد بن الجزري في رسالته المسماة بـ ((الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾)) : كان الأصل فيها..." [٢].

٣ – وجود اسم المؤلف على صفحة العنوان في النسخة الخطية .

٤ – وجود اسمه كاملا في بداية الكتاب المخطوط حيث جاء فيه ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم قال شيخنا، وسيدنا؛ الحاذق، الماهر، العلامة: شمس الملة والدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي رحمة الله تعالى عليه: أما بعد؛ حمدا لله فاتح المغلقات... فهذه ((الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾)) إذ كانت مسألة صعبة المسلك.." [٣].

= الهجري . وانظر الفهرس الشامل –مخطوطات التجويد– (٢/ ٤٣٧)

(١) النشر (١/ ٣٥٩) .

(٢) انظر (ص ٣٢) .

(٣) نسخة (جـ) وانظر (ص٣٢) .

٥- ذَكَرَ الكتاب بعضُ أصحاب الفهارس والرسائل العلمية التي درست حياة ابن الجزري رحمه الله ومؤلفاته ونسبوه إليه [١] .

(١) انظر : الفهرس الشامل – التجويد - (٢/ ٤٣٧)، وفهرست مخطوطات مكتبة الجامع بصنعاء (١/ ٧٤)، و "الإمام شمس الدين ابن الجزري فهرس مؤلفاته ومن ترجم له" محمد مطيع (ص ٣٢) ، والنشر في القراءات العشر، دراسة وتحقيق محمد بن محفوظ الشنقيطي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى (ص ٣٠)،و"منهج ابن الجزري في كتابه النشر مع تحقيق قسم الأصول" سالم محمد الشنقيطي، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ص ١٠٢)، و"الإمام ابن الجزري وجهوده في علوم القراءات"، عزيزة اليوسف، رسالة دكتوراه جامعة الملك سعود (ص ٢٦٢)، "الإمام ابن الجزري وأثره في علم القراءات" رسالة دكتوراه، رابح دفرو، الجزائر (ص ١٨٦)

المطلب الثاني : تحقيق اسم الكتاب .

اسم الكتاب هو: (الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾) كما سماه به مؤلفه حيث قال : "... وسميتها ((الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾))" [(١)]، وكذا ورد في "هدية العارفين"[(٢)] . مع التنبيه أنه قد ورد كذا في النسخة الأولى، وأما في النسخة الثانية فورد : ((الدرر الحسان في مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾)) أي بدون لفظ (حَلِّ) [(٣)] . وسماه إسماعيل باشا -في موضع آخر- وعمر رضا كحالة بـ "الدرر الحسان في حَلِّ مشكل قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾" [(٤)] . بلفظ "مشكل" بدلا من "مشكلات" .

أما كتاب ابن الجزري رحمه الله فاسمه هو : ((الإعلان عن مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾)). وقد ورد هذا العنوان في بداية المخطوط يقول ابن الجزري رحمه الله: " فهذه ((الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾)) إذ كانت مسألة صعبة المسلك..." [(٥)] . وكذا سمى الكتاب بهذا العنوان الرُّمَيْلي الصعيدي رحمه الله؛ حيث قال : "... في رسالته المسماة بـ ((الإعلان في مسألة

(١) انظر (ص ٣٢)

(٢) (٥/ ٧٦٥)، وانظر فهرسة المكتبة الأزهرية (١/ ٨٢)

(٣) انظر (ص٣٢)

(٤) هدية العارفين (٤/ ٦٩٨)، معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

(٥) انظر (ص ٣٢)

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾))"[1].

وقد ورد عند بعض أصحاب الفهارس والرسائل العلمية التي درست حياة ابن الجزري رحمه الله ومؤلفاته باسم: (مسألة ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾)[2].

---

(١) انظر (ص ٣٢)

(٢) الفهرس الشامل –التجويد- (١/ ١٦٦)، فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بصنعاء (١/ ٧٤)، شيخ القراء الإمام ابن الجزري محمد مطيع (ص٣١)، الإمام ابن الجزري وجهوده في علوم القراءات عزيزة اليوسف – رسالة دكتوراه جامعة الملك سعود (ص ٢٦٢)، الإمام ابن الجزري وأثره في علم القراءات رسالة دكتوراه رابح دفرو – الجزائر (ص ١٨٦)

المطلب الثالث : منهج المؤلف في كتابه .

لقد ورد لفظ ﴿ ءَآلۡـَٔـٰنَ ﴾ في موضعين من القرآن الكريم، وهي لفظة اجتمعت فيها أحكام متعددة متداخلة، فعسر أداؤها وشق فهمها ؛ خاصة إذا جاءت مع مد البدل وأحكامه الثلاثة [١]، وحكم النقل لورش وأبي جعفر، وأحكام العارض للسكون لجميع القراء . قال أبو الحسن الصفاقسي: "وفي هذه الكلمة على رواية الأزرق صعوبة وغموض، لاسيما إن ركبت مع (آمنتم)، ولهذا زلت فيها أقدام كثير من فحول الرجال فضلا عن غيرهم"[٢] .

وخلاصة ما يكون عليه هذا اللفظ أن ورشا قرأ بإبدال همزة الوصل ألفاً وبتسهيلها؛ لوقوعها بين همزة الاستفهام واللام الساكنة كبقية القراء العشرة؛ إلا أنه قرأ بنقل حركة الهمزة الثانية إلى اللام، أي حرك اللام بالفتح وحذف الهمزة على قاعدته في باب نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها . ثم تنازع أهل الأداء في مقدار المد الأول؛ لتحرك اللام ؛ فاختلفوا في ذلك وما يتفرع عليه اختلافا كبيرا في أوجه متعددة . وكل هذه الأوجه تناولها وفصلها الرُّمَيْلي رحمه الله، وقبله ابن الجزري رحمه الله في رسالته : (الإعلان في مسألة الآن)، وفي كتابه "النشر" [٣]، وبيَّنا ما تجوز به

(١) وهي : القصر والتوسط والإشباع .

(٢) غيث النفع (٢/ ٦٩١)

(٣) انظر النشر(١/ ٣٥٧-٣٥٩). وقد اهتم بعض العلماء -غير ابن الجزري والرميلي- بهذه اللفظة =

القراءة وما به تمتنع.

وقد ابتدأ الرُّمَيْلي رحمه الله كتابه بذكر سبب تأليفه له، وهو سؤال بعض إخوانه وأحبابه له أن يكتب رسالة في بيان مذاهب القراء في تلاوة قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ وفي غيرها من الآيات. حيث قال :"سألني بعض إخواني أن أجمع رسالةً في بعضِ مشكلات قوله تعالى في سورة يونس ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [1]، وقوله تعالى فيها أيضا ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ ﴾ [2]، وما فيهما من الأوجه للقراء السَّبعة والعشرة، وكذلك آيات الاستفهام في بعض سور القرآن ... " [3] .

وقد قرأت الكتاب كثيراً، ووجدت الرُّمَيْلي رحمه الله قد أحاط بجل مسائل قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ ، وتميز عرضه بتوجيه الأقوال وحسن ترتيبها،

= ؛ فكتبوا حولها، وحرروا أوجه القراءة بها، وأفردوها بالتأليف، قال ابن الجزري :"ولغيري عليها أيضا كلام مفرد بها". النشر (١/ ٣٥٩) ومن هؤلاء : محمد بن محمد المغربي السوسي، له منظومة بعنوان "غاية البيان في خفي لفظة (الآن)"، ومنها نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية برقم (٧٧) . انظر غيث النفع في القراءات السبع (١/ ٧٦) (٢/ ٦٩٢-٦٩٥)، والشيخ حسن الكتبي له منظومة فيها أيضا. انظر مختصر بلوغ الأمنية (ص ٣٣) . وكذلك شرح مذاهب القراء في كيفية نطقها شرحا موسعاً أبوالحسن الصفاقسي في "غيث النفع" (٢/ ٦٩١-٧٠٠)، وكذلك صنع الإمام المتولي في منظومتيه (الآن) الكبرى و(الآن) المختصرة . انظر الإمام المتولي وجهوده في علم القراءات (ص ٢٠٩-٢١٣)

(١) آية رقم ٥١.

(٢) آية رقم ٩١ .

(٣) (ص ٣١-٣٢)

واهتم ببيان سبب اختلاف القراء.

وقد فصل المؤلف على وجه الخصوص في بيان جميع أوجه الآية التي وردت فيها الكلمة للقراء وصلا ووقفا من طريق العشرة الكبرى (طَيِّبة النشر)، والصغرى (الشاطبية والدُّرَّة)، وهذا ما يندر التفصيل فيه، وهي ميزة عند المؤلف .

ومما يميز الكتاب أن المؤلف قد جمع بين ما أورده ابن الجزري في كتابه "النشر في القراءات العشر" مع ما ذكره في رسالته "الإعلان عن مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾"، وذلك أن ما فيه الرسالة كان قد كتبه ابن الجزري في وقت متقدم ؛ فحرر، وعدل، وفصل أكثر في كتاب " النشر" يقول : "فخذ تحرير هذه المسألة بجميع أوجهها وطرقها وتقديراتها، وما يجوز فيها، وما يمتنع ؛ فلست تراه في غير ما ذكرت لك، ولي فيها إملاء قديم لم أبلغ فيه هذا التحقيق، ولغيري عليها أيضا كلام مفرد بها ؛ فلا يعول على خلاف ما ذكرت هنا " [1] . فجاء الرُّمَيْلي ؛ فمزج بترتيب بديع بين ما في الكتابين، واستدرك بما في "النشر" ما ليس في رسالة (الإعلان عن مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾) .

كما ضمن الرُّمَيْلي رأي واختيار شيخه العلامة شمس الدين البقري في هذه المسألة، وذلك بطريقتين :

الأولى : من خلال قراءة رسالة الرُّمَيْلي "الدرر الحسان" عليه وإقرارها،

(١) النشر (١/ ٣٥٩)

قال: "وقد قرأتها على شيخنا -حفظه الله تعالى- ؛ فاستحسنها" [١].

الثانية : من خلال تضمين كتاب البقري الموسوم بـ"فتح الكبير المتعال بشرح مُذْهِبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال" فيها .

ومما يلاحظ على منهجية المؤلف أني رأيته في بعض المواطن يذكر جميع الأوجه في الآية دون تمييز بين الطرق، وهذا لا إشكال فيه لو كانت الطرق متفقة ؛ لكن الذي استوقفني وجود بعض الأوجه الممنوعة من الطرق الأخرى وقد تركها دون تمييز، ومن ذلك عندما ذكر أن لورش على التوسط في (آمنتم) مد وتوسط وقصر في الألف الواقعة بعد همزة الاستفهام في ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ . والتوسط في ألف ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ غير وارد من طريق الشاطبية ؛ بل الواردُ فيها وجها المد والقصر دون التوسط . والتوسط وجه محتمل من غير هذا الطريق كما ذكر ذلك عندما نقل قول الجزري : (توسطه ولا أعلمه عن أحد بالنص) [٢] . ومثل هذا يقال حين قال: (وذلك أن لك في مد الألف بعد همزة الاستفهام المد والتوسط والقصر) [٣]، فالتوسط غير وارد من طريق الصغرى . فهل أراد المؤلف الجمع بين الكبرى والصغرى، وهل يصح هذا الأسلوب ؛ مع أن المؤلف قد يفصل في بعض المواضع بين ما جاء من طريق (الشاطبية) و(الدُّرَّة) وما جاء من طريق (طَيِّبة النشر) [٤] .

---

(١) (ص ٦٥)

(٢) (ص ٤٣)

(٣) (ص ٤٦)

(٤) انظر مثلا (ص ٤٨)

ومما يجب التنبيه عليه أن المؤلف لم يقتصر على شرح مـذاهب القـراء في كيفية نطق قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ ؛ بل عـرض اخـتلافهم في آيـات أخـرى وهي :

١ – قوله تعالى ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ [الأنعام ١٤٣، ١٤٤].

٢ – قوله تعالى ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ [يونس ٨١] .

٣ – آيات الاستفهام المتكرر.

٤ – قوله تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمْ ﴾ [آل عمران ٦٦ وغيرها] .

٥ – أحكام (سَوْءَٰت) [الأعراف ٢٠ وغيرها]

٦ – قوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي ﴾ [الأحزاب ٤، والمجادلة ٢] .

المطلب الرابع : مصادر الكتاب .

اعتمد الرُّمَيْلي رحمه الله في كتابه (الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾) على ثلاثة مصادر أساسية هي :

أولا : الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ .

وهي رسالة قصيرة لابن الجزري رحمه الله ضمنها الرُّمَيْلي رحمه الله كاملة في كتابه حيث قال : "قال الشيخ العالم العلامة محمد بن الجزري في رسالته المسماة بـ ((الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾)) : كان الأصل فيها..." [1] . وقال في نهاية النقل : " ... ويحتمله كلام صاحب ((العنوان)) أيضا. انتهى كلام الشمس بن الجزري رحمه الله تعالى" [2] .

ثانيا : النشر في القراءات العشر .

يذكر الرُّمَيْلي رحمه الله في نهاية بعض الفقرات قوله : (انتهى من "النشر")[3] أو (ذكره في "النشر")[4] .

ثالثا : فتح الكبير المتعال بشرح مُذْهِبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال [5] لمحمد بن القاسم البقري الشافعي رحمه الله .

---

(١) انظر (ص ٣١)

(٢) انظر (ص ٤٤)

(٣) انظر (ص ٥٩)

(٤) انظر (ص ٥٦)

(٥) في الأعلام (٧/ ٧) ورد الكتاب باسم : (فتح الكبير المتعال في حل بعض مشكلات الآيات) .

وهي رسالة لطيفة أثنى الرُّمَيْلي رحمه الله عليها، وبين مدى استفادته ونقله منها ؛ حيث قال : "مما قرأت به على شيخي الإمام... محمد بن قاسم البَقَري الشافعي الأزهري الأشعري... ولقد أجاد شيخنا... في رسالته المسماة بـ ((فتح الكبير المتعال بشرح مُذْهِبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال)) . فأوضح مشكلات هذه الآية الشريفة... فهي رسالةٌ جليلةُ المقدار ؛ لم يُسْبَق إلى مثلها في قطر من الأقطار ... وها أنا أغترف من بعض بحره ... وأخذت بعضا من فوائد هذه الرسالة العظيمة، والدرة الغويصة اليتيمة" [(١)] .

كما أن من مصادر هذا الكتاب والكتب الثلاثة ما يأتي :

١- التذكرة في القراءات الثمان، لابن غلبون رحمه الله (ت: ٣٩٩هـ)[(٢)].

٢- الهادي، لأبي عبدالله بن سفيان رحمه الله (ت :٤١٥هـ) [(٣)] .

٣- الهداية وشرحها، للمهدوي رحمه الله (ت :٤٣٠هـ) [(٤)].

---

(١) انظر (ص ٤٤- ٤٥)

(٢) طبع الكتاب بتحقيق أيمن بن رشدي سويد في جدة، وأصله رسالة ماجستير في جامعة أم القرى(١٤١٠هـ).

(٣) حققه الدكتور يحيى الغوثاني، رسالة دكتوراه في جامعة أم درمان بالسودان .وسيرى النور قريبا بإذن الله، وله صورة في مركز الملك فيصل برقم (٨٦٥٠) .

(٤) (شرح الهداية) حقق مرتين من قبل حازم بن سعيد حيدر، وطبع في مكتبة الرشد في الرياض، وقد طبع طبعة جديدة في دار عمار في عمان .وحقق في جامعة بغداد كلية الآداب من قبل الدكتور سالم قدوري الحمد .

٤ – التبصرة في القراءات السبع، لمكي بن أبي طالب رحمه الله (ت ٤٣٧هـ) [١] .

٥ – التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ) [٢].

٦ – التذكار في القراءات العشر، لأبي الفتح عبدالواحد بن شيطا رحمه الله (ت: ٤٤٥هـ)

٧ – الوجيز في شرح قراءات القراء الثمانية أئمة الأمصار الخمسة، لأبي علي الحسن الأهوازي رحمه الله (ت: ٤٤٦هـ) [٣] .

٨ – العنوان في القراءات السبع، لأبي الطاهر إسماعيل بن طاهر بن خلف رحمه الله (٤٥٥هـ) [٤] .

٩ – الكامل في القراءات الخمسين، لأبي القاسم الهذلي رحمه الله (ت: ٤٦٥هـ) .

---

(١) حقق الكتاب وطبع أكثر من مرة، والطبعة الأولى بتحقيق محمد محيي الدين رمضان، ونسخة حققت في الهند .

(٢) حقق هذا الكتاب عدة مرات، أولها بعناية المستشرق أوتوبريزل، وطبع في مطبعة الدولة في إستنبول سنة ١٩٣٠م لجمعية المستشرقين الألمانية .وحقق أيضا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رسالة ماجستير مقدمة من الطالب خلف الشغدلي.

(٣) حقق من قبل دريد حسن أحمد، رسالة ماجستير في جامعة بغداد، وطبع في دار الغرب الإسلامي، بيروت .

(٤) مطبوع بتحقيق الدكتور زهير زاهد، ونشر في مكتبة عالم الكتب . وقد حقق في رسالة ماجستير في جامعة أم القرى للطالب عبدالمهيمن طحان (١٤٠٢هـ) .

١٠- الكافي في القراءات السبع، لأبي عبدالله بن شُرَيح رحمه الله (ت: ٤٧٦هـ) [١] .

١١- المستنير في القراءات العشر، لأبي طاهر أحمد بن علي بن سَوَّار رحمه الله (ت:٤٩٦هـ) [٢].

١٢- تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع، لابن بَلِّيَمة رحمه الله (ت ٥١٤هـ) [٣] .

١٣- التجريد لبغية المريد في القراءات السبع، لأبي القاسم عبدالرحمن بن أبي بكر المعروف بابن الفَحَّام رحمه الله (ت: ٥١٦هـ) [٤].

١٤- إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي، لأبي العز القلانسي رحمه الله (ت:٥٢١هـ) [٥].

١٥- المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن مُحيصن واختيار

---

(١) مطبوع ، وقد حقق في رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، للطالب سالم غرم الله الزهراني (١٤١٩هـ)، وحققته أيضاً إيمان صالح مهدي عباس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤١٧-١٩٩٦ .

(٢)حققه عمار الددو، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٩م . وصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية بدبي للمحقق نفسه . وحققه أحمد طاهر أويس، رسالة ماجستير، في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

(٣) مطبوع بتحقيق سبيع حمزة حاكمي .

(٤) تحقيق الدكتور ضاري إبراهيم العاصي، وطبع في دار عمار في عمان، وحقق في رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية لطالب مسعود أحمد إلياس (١٤٠٨هـ) .

(٥) حقق في جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، للطالب عمر حمدان الكبيسي (١٤٠٣هـ) وطبع للمحقق نفسه .

خلـف واليزيـدي، لأبي محمـد سـبط ابـن الخيـاط رحمـه الله (ت:٥٤١هـ) [١] .

١٦- حرز الأماني ووجه التهاني المعروفة بـ"الشاطبية" . تأليف القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي رحمه الله (ت: ٥٩٠هـ) [٢] .

١٧- كتاب الإعلان، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل الصفراوي رحمه الله (ت٦٣٦هـ) [٣] .

١٨- فتح الوصيد شرح القصيد، للسخاوي (ت : ٦٤٣هـ) [٤] .

١٩- شرح الشاطبية للجعبري رحمه الله (ت: ٧٣٢هـ) . واسمه كنز المعاني[٥] .

٢٠- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة، للقباقبي رحمه الله (ت: ٨٤٩هـ) [٦] .

---

(١) حقق في جامعة الإمام محمد بن سعود، رسالة دكتوراه، عبدالعزيز السبر (١٤٠٢هـ) . وكذلك حقق في جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه، للطالبة وفاء قزمار (١٤٠٥هـ) .

(٢) حققت مرارا وطبعت، ومن أفضل النسخ المطبوعة منها حاليا تلك التي اعتنى بها الشيخ المقرئ محمد تميم الزعبي .

(٣) حقق في الجامعة الإسلامية من قبل الطالب سخاء أحسن أندونيسي.

(٤) طبع الكتاب بتحقيق كل من الدكتور مولاي محمد الإدريسي الظاهري، وأصله رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس،الرباط . وطبعه أيضا الدكتور أحمد عدنان الزعبي، وأصله رسالة دكتوراه في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان .

(٥) انظر"الجعبري ومنهجه في كنز المعاني شرح حرز الأماني ووجه التهاني مع تحقيق نموذج من الكنز" للأستاذ أحمد اليزيدي .

(٦) طبع بتحقيق أحمد بكري، دار عمار للنشر والتوزيع، وطبع بتحقيق الدكتور فرحات عياش، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر .

المطلب الخامس : وصف النسخ الخطية .

استطعت –ولله الحمد- الحصول على نسختين خطيتين لهذا الكتاب ؛ كما حصلت على النسخة الوحيدة لكتاب ابن الجزري "الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾" وإليك بيان وتفصيل هذه النسخ .

النسخة الأولى : ورمزت لها بحرف (أ) .

مكان الحفظ : مركز الملك فيصل البحوث والدراسات الإسلامية – قسم المخطوطات برقم (٨٢) –قراءات .

عدد الأوراق : (١٧) ورقة .

عدد الأسطر : (١٧) سطرا .

نوع الخط : نسخي، وقد كتب النص بالمداد الأسود، وخطوط التنبيه بالمداد الأحمر، وكذلك بعض الكلمات .

الناسخ : عبدالرحمن بن سليم .

تاريخ النسخ : (١٢٦٤هـ) .

بداية المخطوط : الحمدلله الذي خص أولياءه بحفظ كتابه ...

ونهاية المخطوط : صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين كلما ذكرك الذاكرون .

قيمة النسخة : نقلت هذه النسخة من نسخة بخط مؤلفها وقوبلت عليها كما صرح بذلك كاتبها في نهاية المخطوط .

والنسخة يلحظ عليها أنها نسخة مصححة، وربما أكثر من مرة، وفيها

إشارات في المتن والهامش بالتعديل أو الكشط أو التصحيح، وستلاحظ ذلك جليا بإذن الله عند بيان الفروق بين النسختين في قسم التحقيق .

النسخة الثانية : ورمزت لها بحرف (ب) .

مكان الحفظ : في المكتبة الأزهرية ضمن مجموع برقم [٣٩] (٢٨٠١) [١]، وفي خزانة تطوان بالمملكة المغربية برقم (١٨٥/ ٣٢٨) [٢] . ولها صورة في الخزانة الحسنية بالرباط .

عدد الأوراق : (٧) ورقات . نسخة ضمن مجموع (٣٣-٣٩)

عدد الأسطر : (٢٣) سطرا .

نوع الخط : خط بقلم معتاد أشبه بالخط المغربي ؛ له اصطلاحاته مثل وضع نقطة واحدة تحت حرف الفاء، ونقطة واحدة فوق حرف القاف.

الناسخ : أحمد بن مسعود الكنسوسي الشويشي .

تاريخ النسخ : التاسع من شهر جمادى الأولى سنة (١١٢٠هـ) .

بداية المخطوط : الحمدلله الذي خص أولياءه بحفظ كتابه ...

نهاية المخطوط : ... صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه ذكره الغافلون .

قيمة النسخ : هي نسخة قديمة مصححة كتبها أحد تلاميذ المؤلف في زمنه، وعلى هوامشها تعليقات وتصحيحات .

النسخة الثالثة : نسخة كتاب (الإعلان عن مسألة الآن) لابن الجزري رحمه

---

(١) فهرس المكتبة الأزهرية (١/ ٨٢)

(٢) الفهرس الشامل -مخطوطات التجويد- (٢/ ٤٣٧)

الله، ورمزت لها بحرف (جـ) .

مكان الحفظ : في الجامع الكبير في صنعاء برقم (١٠٤٩) [١] .

عدد الأوراق : (٤) ورقات .

عدد الأسطر : (١٤) سطرا .

نوع الخط : فارسي غير مشكول .

الناسخ : غير مذكور .

تاريخ النسخ : (١٠٢٤هـ) في البلد الحرام في رباط ربيع .

بداية المخطوط : قال شيخنا وسيدنا الحاذق الماهر العلامة محرر عقود جواهر و أسرار السبع المثاني وشرح...

نهاية المخطوط : في اليوم التاسع شهر المحرم الحرام في البلد الحرام سنة أربع وعشرين بعد الألف المبارك في رباط ربيع والحمدلله رب العالمين ...

قيمة هذه النسخة : هي نسخة عزيزة فريدة وحيدة فيما أعلم، وخطها سيئ وصعب القراءة .

---

(١) الفهرس الشامل – مخطوطات التجويد – (١/ ١٦٦) فهرسة مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بصنعاء (١/ ٧٤)، شيخ القراء الإمام ابن الجزري محمد مطيع (ص٣١)، الإمام ابن الجزري وجهوده في علوم القراءات عزيزة اليوسف، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود (ص ٢٦٢)، الإمام ابن الجزري وأثره في علم القراءات، رسالة دكتوراه، رابح دفرو، الجزائر (ص ١٨٦)

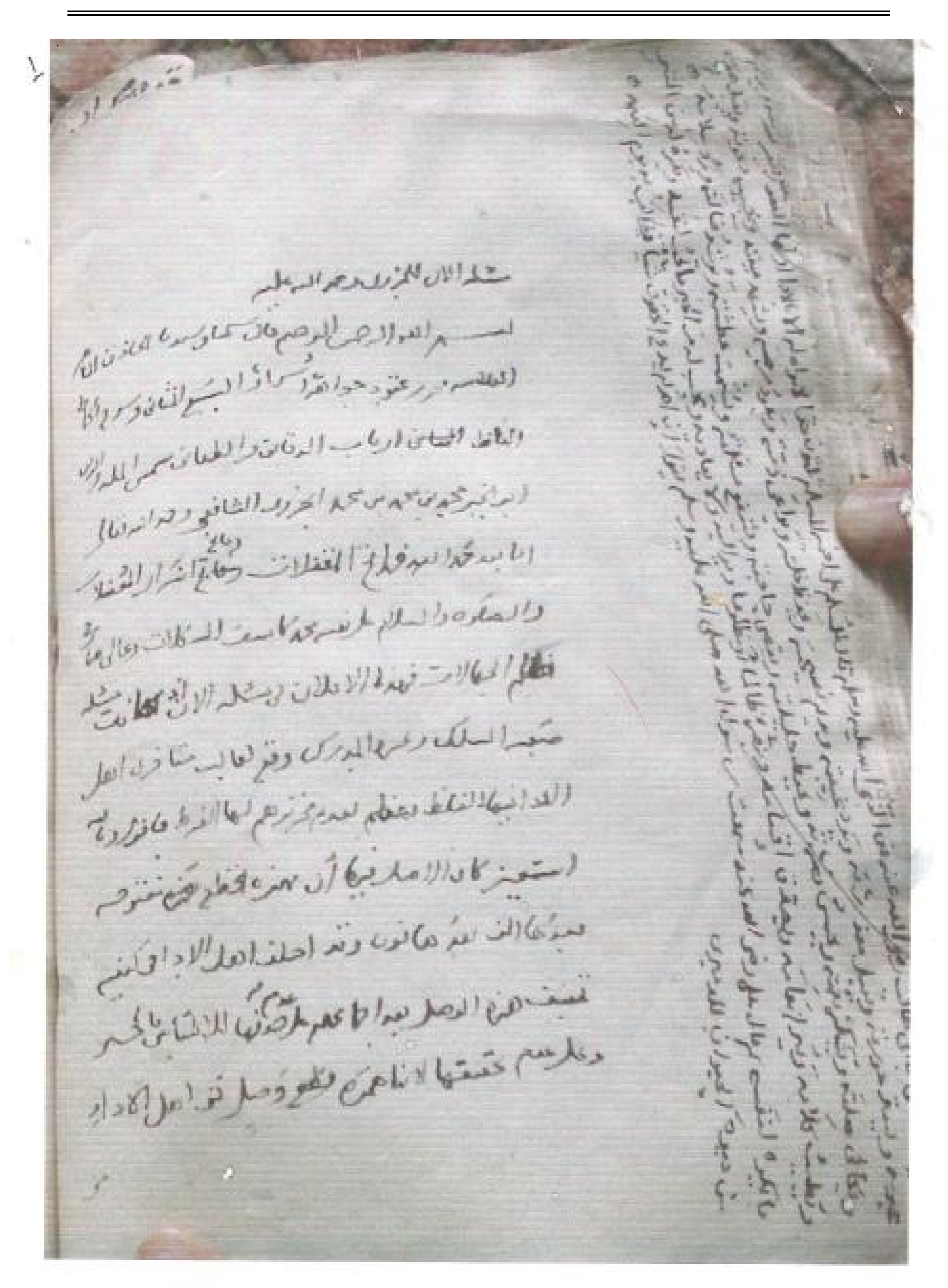
صورة للصفحة الأولى من النسخة (أ)

النسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

الحمد لله الذي خص أولياءه بحفظ كتابه المصون وزين عنوان شرفهم
بذكره مشتغلون وقيض بعضهم لعلم القراءات فهم بتبيين كيفية نشره [illegible]
وأسعدهم بحفظ كتابه فهم له من تلاوته [illegible] وبحفظه [illegible]
وعلى [illegible] منتشرون [illegible] في الدنيا والآخرة [illegible] يرتقون ويتبوءون
[illegible] من [illegible] آمنون [illegible] ولا [illegible] النعم [illegible]
عنها بلسان الحمد [illegible] ونشكره شكر [illegible] مزيد إنعامه [illegible]
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ندخرها ليوم لا ينفع
فيه مال ولا بنون ونشهد أن سيدنا محمدا الذي أنزل القرآن [illegible] الفصحاء
والبلغاء [illegible] مقصرون [illegible] السابقون
[illegible] صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه [illegible] أعلى
[illegible] وبعد فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه [illegible] على
[illegible] الملكي [illegible] بعض [illegible] في
[illegible] رسالة في بعض مشكلات قوله تعالى في سورة يونس [illegible]
[illegible] وقوله تعالى [illegible]
[illegible] للقراء السبعة والعشرة وكذلك [illegible]
في بعض سور القرآن مما قرأناه على الشيخ الإمام العالم العلامة [illegible]
[illegible] وحيد عصره وأوانه محمد بن قاسم [illegible]
[illegible] حفظه الله تعالى [illegible] ونفعنا ببركاته
وبركات علومه في الدنيا والدين وسميته الدرر الحسان في مشكلات
قوله تعالى الآن وقد [illegible] وعلته [illegible]
[illegible] على قوله تعالى [illegible] الشيخ العلامة
العلامة [illegible] الحسان [illegible]

صورة للصفحة الأولى من النسخة (ب)



صورة للصفحة الأولى من النسخة (جـ)

القسم الثاني : النص المحقق

الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾

جمع الفقير الحقير أبي الصلاح علي نور الدين بن محسن الصعيدي المالكي الوفائي الأزهري عفا الله عنه آمين آمين [1] .

(١) صفحة العنوان في نسخة (أ) .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين [(١)]،

/ [أ(١/أ)] [ب (٣٣/ ١)] الحمد لله الذي خصَّ أولياءَهُ بحفظ كتابه المصون، ورفع عنوان شرفهم ؛ فهم [(٢)] بذكره مشتغلون، وأتحفهم بعلم القراءات ؛ فهم بتيسير [(٣)] طيبة نشره موفقون، وأسعدهم بحفظ كتابه ؛ فهم له مرتلون مجودون ؛ ففازوا بحفظه ؛ فرفع قدرهم، وعلى غيرهم متشرفون ؛ فسعدوا دنيا وأخرى، وفي الجنة يَرْقون ويَقِرُّون [(٤)]، وآمنهم من مكره ؛ فهم في حرز أمانيه آمنون، نحمده على ما أولانا من النعم ؛ فنحن عنها بلسان الحمد مقصرون، ونشكره شكر قوم غَدَوا في مزيد أنعامه يرتقون [(٥)]، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له [(٦)] ؛ شهادة ندخرها ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ونشهد أن سيدنا محمدا الذي أنزل عليه القرآن ؛ فأعجز الفصحاء والبلغاء، وتركهم في أمرهم متحيرون ؛ فَسُعِد به قومٌ فهم في القيامة السابقون الأولون صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذريته ما صاح طائر فوق أعلى/ [أ(١/أ)] الغصون .

وبعد

---

(١) في (ب) : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله .

(٢) (فهم) ليست في (ب) .

(٣) في (أ) : بتسير .

(٤) في (ب) : ويقرؤون .

(٥) في (ب) : يرتعون .

(٦) (لا شريك له) غير واضحة في (ب) وكتبت بوضوح في هامشها .

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه أبو الصَّلاح عليٌّ نور الدين بن مُحسن الصَّعيدي المالكي الوفائي الأزهري : سألني بعض إخواني أن أجمع رسالةً في بعضِ مشكلات قوله تعالى في سورة يونس ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلۡـَٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ [1]، وقوله تعالى فيها أيضا ﴿ ءَآلۡـَٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ ﴾ [2]، وما فيهما من الأوجه للقراء السَّبعة والعشرة، وكذلك آيات الاستفهام في بعض سور القرآن مما قرأت به على شيخي [3] الإمام العالم العلاَّمة مُفيد الطالبين، وعمدة السالكين، صوفي أهل زمانه، وَوحيد عصره وأوانه : محمد بن قاسم البَقَري الشافعي الأزهري الأشعري[4] حفظه الله تعالى على المسلمين، ونفعنا ببركاته [5] وبركات علومه في الدنيا والدين، وسميتها "الدرر الحسان في حَلِّ [6] مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَآلۡـَٔنَ ﴾" .

فأقول وبالله المستعان وعليه المعول والتكلان : مقدمة في تعريف همزة الاستفهام الدَّاخلة على قوله تعالى ﴿ ءَآلۡـَٔنَ ﴾ .

---

(١) آية رقم ٥١ .

(٢) آية رقم ٩١ .

(٣) في (ب) : الشيخ .

(٤) سبقت ترجمته في مطلب : شيوخه من المبحث الأول : ترجمة المصنف (ص ٧) .

(٥) المؤلف عفا الله عنه ذو نزعة صوفية كما قدمت في ترجمته ؛ لكن ينبغي الحذر و التحرز من هذه العبارات ونحوها ؛ لأن فيها تعلق بالصالحين وتبرك بهم وهذا قد يكون وسيلة من وسائل الشرك .

(٦) (حل) ليست في (ب) .

قال الشيخ العالم العلامة محمد بن الجزري/ [(أ/٢/أ)] في رسالته المسماة بـ "الإعلان في مسألة ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾" (١):/ [ب (٣٣/ ب)] كان الأصل فيها (أالأن) بهمزة قطع مفتوحة بعدها ألف (٢) وصل بعدها لام ساكنة بعدها همزة مفتوحة بعدها نون (٣).

وقد اختلف أهل الأداء(٤) في كيفية تخفيف (٥) همزة الوصل بعد إجماعهم على عدم (٦) حذفها للالتباس بالخبر، وعلى عدم تحقيقها ؛ لأنها همزة وصل(٧) ؛ فمن أهل الأداء مَن خففها بأن جعلها بَيْن بَيْن (٨) ؛ لانفتاحها

(١) ورد في بداية نسخة (جـ) ما نصه :

((بسم الله الرحمن الرحيم قال شيخنا وسيدنا الحاذق الماهر العلامة محرر عقود جواهر و أسرار السبع المثاني وشرح (....) ألفاظ أرباب الدقائق (....) شمس الملة والدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي رحمة الله تعالى عليه أما بعد : حمدا لله فاتح المغلقات ومانح أسرار المعضلات والصلاة والسلام على نبيه محمد كاشف المشكلات وعالي (...) أظلم الجهالات، فهذه ((الإعلان في مسألة الآن)) إذ كانت مسألة صعبة المسلك وعرة المدرس، وقع لغالب متأخري أهل الأداء فيها الغلط وعظم بعد (...) لها الفرط فأقول وبالله أستعين)) .

(٢) (ألف) من (أ) وألحقت فوق السطر في (ب)

(٣) في (جـ) : كان الأصل فيها (أأن) بهمزة قطع مفتوحة بعد ألف بعدها نون .

(٤) أهل الأداء : أئمة نقل القرآن الكريم وقراءاته وحذاقهم .

إبراز المعاني (ص ١٥١) مختصر العبارات (ص ٣٣)

(٥) في (ب) : تحقيق .

(٦) (عدم) من (أ) و(ب) وألحقت فوق السطر في (جـ) .

(٧) في (جـ) : قطع . وضرب عليها وكتب بعدها : وصل .

(٨) بين بين : نطق الهمزة بينها وبين حرف من جنس حركتها، فتجعل الهمزة المفتوحة بين الهمزة المفتوحة والألف وتجعل المكسورة بين الهمزة المحققة والياء الممدودة وتجعل المضمومة بين =

وانفتاح ما قبلها قياسا على تخفيف ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾[١]، وهذا مذهب أبي الطاهر إسماعيل بن طاهر[٢] بن خلف[٣] صاحب "العنوان"[٤]؛ لم يذكر[٥] غيره، وأحد الوجهين في "الكامل" و"التيسير"[٦] و"الشاطبية"، وهو اختيار أبي عمرو عثمان بن سعيد[٧] الداني[٨]، قال: وهو الأَوْجَه عندنا في تسهيل[٩] هذه الهمزة؛ لقيامها في الشعر مقام

= الهمزة والواو الممدودة .

مختصر العبارات (ص ٣٨)

(١) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٢) (بن طاهر) ليست في (جـ) .

(٣) إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران أبو طاهر النحوي المقرئ الأنصاري .

مؤلف كتاب "العنوان" و"الاكتفاء" وغيرهما . توفي سنة (٤٥٥هـ)

معرفة القراء الكبار (١/ ٤٢٣) غاية النهاية (١/ ١٦٤) بغية الوعاة (١/ ٤٤٨) مقدمة تحقيق"العنوان في القراءات السبع" الأستاذ عبدالمهيمن طحان (ص ٦٠-٧٦)

(٤) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٦)

(٥) كذا في (جـ) . وأما في (أ) و(ب) : لم يذكره .

((٦ التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٩)

(٧) (عثمان بن سعيد) من (أ) و(ب) وألحق فوق السطر في (جـ) .

(٨) عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمرو الداني .

ولد سنة (٣٧١هـ)، قرأ على طاهر بن غلبون وأبي الفتح فارس بن أحمد، له كتب كثيرة قيمة منها : "جامع البيان" و"التيسير" و"المقنع" . توفي سنة (٤٤٤هـ)

معرفة القراء الكبار (١/ ٤٠٦) غاية النهاية (١/ ٥٠٣) شجرة النور الزكية (ص١١٥) مقدمة كتاب جامع البيان (١/ ٦-٣٨)

(٩) التسهيل : هو النطق بالهمزة بين همزة وحرف مد، أي جعل حرف مخرجه بين مخرج الهمزة المحققة ومخرج حرف المد المجانس لحركتها ؛ فتجعل المفتوحة بين الهمزة المحققة والألف، =

المتحركة، ولو كانت مبدلة من همزة ؛ لقامت فيه مقام الساكن المحض، ولو كان كذلك لانكسر هذا البيت، وهو ما أنشده ابن الأنباري [(١)] :

أَأَلْحَق إنْ دارُ الرَّباب تَبَاعَدَتْ أَو انبتَّ [(٢)] حَبْلٌ إن قلبك طائر

وقال آخر [(٣)] :

أَأَلخيرُ الذي أنا ابْتَغِيهِ أَمِ الشَّرُّ الذي هو يَبْتَغِيني

/ [أ(٢/ب)] وأنشد قطرب [(٤)] لجميل [(١)] :

= وتجعل المكسورة بين الهمزة والياء الممدودة، وتجعل المضمومة بين الهمزة والواو الممدودة .

إبراز المعاني (ص ١٤٦) مختصر العبارات (ص٤٢)

ولعل المقصود بالتسهيل هنا التسهيل اللغوي الذي هو مطلق التغيير وهو وارد عند علماء القراءات، ويعبر عنه أيضا كما عبر به المؤلف (تخفيف همزة الوصل) فيكون اختيار أبي عمرو الداني تخفيفها بجعلها (بين بين) الذي هو التسهيل اصطلاحا .انظر الإضاءة في أصول القراء للشيخ علي الضباع (ص٢٩)

(١) كتب في هامش (جـ) : هو أبو بكر بن الأنباري (...) من كبار النحويين .

محمد بن القاسم بن محمد أبو بكر الأنباري البغدادي .

ولد سنة (٢٧١هـ)، روى القراءة عن إدريس بن عبد الكريم، وسمع من عبدالكريم الشذائي، له "كتاب الوقف والابتداء" وغيره . توفي سنة (٢٣٨هـ) .

تاريخ بغداد (٣/ ١٨١) معرفة القراء الكبار(١/ ٢٨٠) غاية النهاية (٢/ ٢٣٠)

والبيت لعمر بن أبي ربيعة وهو في ديوانه (ص ١٠٩) وانظر الكتاب لسيبويه (٣/ ١٣٦) شرح التسهيل (٣/ ٤٦٧) النشر (١/ ٣٧٧) .

(٢) في (ب) : أو أن نبت . وفي (جـ) : أأنبت .

(٣) في (ب) : الآخر . والبيت للمثقب العبدي انظر ديوانه (ص ٢١٣) . و "تأويل مشكل القرآن" (ص ١٧٦)

(٤) محمد بن المستنير النحوي أبو علي البصري .

أخذ عن سيبويه وغيره، ويقال : إنه هو الذي لقبه قطربا ؛ لمباكرته إياه في الأسحار . قال =

فقلت لها : جودي فقالت مُجيبةً   أألْجِدُّ هذا منكَ أم أنتَ هازلُ

ومنهم من خففها بالبدل [٢] ؛ فأبدلها ألفا محضة ؛ لأنها واجبة التخفيف فتخفيفه [٣] بالبدل، وإنما خففت[٤] المفتوحة بعد فتح بالبدل جوازا كـ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ .

والبدل مذهب الأكثرين من النحاة وأهل الأداء، وهو الذي قرأنا به من طريق ابن غَلْبون[٥]، ومكي[٦] صاحب

= الخطيب : وكان موثقا فيما يحكيه . توفي سنة (٢٠٦هـ) .
تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٨) لسان الميزان (٥/ ٣٧٨) بغية الوعاة (١/ ٢٤٢) وانظر مقدمة كتاب الأضداد لقرب للدكتور حنا حداد (ص ١٧-٥٥)

(١) جميل بن عبدالله بن معمر بن صباح أبو عمرو العذري .
شاعر أموي ، من أشهر شعراء الغزل، وكان عفيفاً، حيياً، ديناً . توفي سنة (٨٢هـ) وقيل بعدها .
الشعر والشعراء (١/ ٤٣٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨١) خزانة الأدب (١/ ٣٩٧)
والبيت في ديوانه (ص ١١٦)

(٢) البدل :إقامة الألف والياء والواو مقام الهمزة عوضا عنها .
مختصر العبارات (ص٣٧)

(٣) في (جـ) : بتخفيفها .

(٤) كذا في جميع النسخ . ولعل المقصود (كما خففت...) لأن المذهب في المفتوحتين : البدل والتسهيل ؛ فيكون وجه البدل جائز، وهذا خاص لورش من طريق الشاطبية ولبعض القراء ؛ لوجود الوجه الآخر وهو التسهيل .

(٥) طاهر بن عبدالمنعم بن عبيدالله بن غَلْبُون بن مبارك أبو الحسن الحلبي .
أخذ القراءة عن والده، وقرأ عليه أبو عمرو الداني، ألف كتاب "التذكرة في القراءات الثمان" . توفي سنة (٣٩٩هـ) .
معرفة القراء الكبار (١/ ٣٦٩) غاية النهاية (١/ ٣٣٩) مقدمة كتاب "التذكرة في القراءات الثمان" للأستاذ أيمن سويد (ص ٢٩-٧٠)

(٦) مكي بن أبي طالب بن حموش بن محمد أبو محمد القيسي القيراوني ثم الأندلسي القرطبي .
=

"التبصـرة" [(١)]، وأبي العباس المهـدوي [(٢)] صـاحب "الهدايـة" [(٣)]، وأبي عبدالله بن سفيان[(٤)] صاحب "الهادي"، وأبي عبدالله بن شُرَيح [(٥)] صاحب "الكـافي" [(٦)]، وأبي القاسـم بـن القاسـم [(٧)] بـن الفَحَّـام [(٨)] صـاحب

= ولد سنة (٣٥٥هـ) . قرأ على طاهر بن غلبون وأبيه، له كتب كثيرة منها "التبصرة في القراءات السبع"، و "الكشف عن وجوه علل القراءات"، و"الهداية في معاني القرآن" . توفي سنة (٤٣٧هـ) .

معرفة القراء (١/ ٣٩٤) غاية النهاية (٢/ ٣٠٩)

(١) التبصرة في القراءات السبع (ص ٢٥٨، ٢٧٦)

(٢) أحمد بن عمار أبو العباس المهدوي .

الإمام العلامة، قرأ على محمد بن سفيان وغيره، له مؤلفات كثيرة منها "الهداية في القراءات السبع"، و"التفصيل"، و"التحصيل" . توفي سنة (٤٣٠هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ٣٩٩) غاية النهاية (١/ ٩٢) مقدمة كتاب "شرح الهداية " للدكتور حازم حيدر (١/ ٥٥-١٠٨)

(٣) شرح الهداية (١/ ٣٤،٣٩)

(٤) محمد بن سفيان أبو عبدالله القيرواني .

الفقيه المالكي، عرض الروايات على أبي الطيب بن غلبون، له كتاب "الهادي" . توفي عام (٤١٥هـ).

معرفة القراء الكبار (١/ ٣٨٠) غاية النهاية (٢/ ١٤٧) شذرات الذهب (٥/ ٨٠)

(٥) محمد بن شُرَيح بن أحمد بن محمد الرعيني أبو عبدالله الأشبيلي .

ولد سنة (٣٩٢هـ)، سمع وروى كثيراً . قال ابن بشكوال : وكان من جملة المقرئين وخيارهم ؛ ثقة في روايته . له كتاب "الكافي في القراءات السبع" .توفي في شوال سنة (٤٧٦هـ) .

الصلة لابن بشكوال (٢/ ١٥٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٥٤) غاية النهاية (٢/ ١٥٣) مقدمة تحقيق كتاب الكافي في القراءات السبع سالم الزهراني (ص ٣٨-٨٦)

(٦) الكافي في القراءات السبع (ص ٢١٠،٢٣٢)

(٧) (بن القاسم) ليست في (جـ) .

(٨) عبدالرحمن بن عتيق بن خلف أبو القاسم بن الفحام الصقلي .

=

"التجريـد" [١]، والعـراقيين قاطبـة، وهـو الوجـه الثـاني في "الكامـل"، و"التيسير" [٢]، و"الشاطبية" [٣]، فمن لم ينقل [٤] حركة الهمزة بعد اللام إلى اللام الساكنة قبلها مَدَّ [٥] على [٦] الألف بعد الهمزة الأولى مداً مشبعاً [٧]؛ لالتقاء الساكنين كفواتح السور، ومن نقل [٨] كورش [٩]، وقالون [١٠]، وأبي

= ولد سنة (٤٢٥هـ) تقريبا، مؤلف كتاب "التجريد" . توفي سنة (٥٣٦هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٨٧) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٧٢) غاية النهاية (١/ ٣٧٤) مقدمة تحقيق كتاب التجريد د. ضاري العاصي (ص ١١-٢٣)

(١) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٧)

(٢) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٨،٣١٠)

(٣) الوافي شرح الشاطبية (ص ٨٨)

(٤) في (جـ) : فمن ينقل .

(٥) المد : إطالة الصوت بأحد حروف المد ملاقاة الهمز أو السكون .

رياضة اللسان (ص٧٤) مختصر العبارات (ص ١٠٦)

(٦) كذا في جميع النسخ، ولعل كلمة (على) مقحمة، والمعنى بدونها أوضح ؛ فالمذهب لمن ينقل حركة الهمزة بعد اللام إلى اللام الساكنة قبلها مَدَّ الألف بعد الهمزة الأولى مدا مشبعا .

(٧) الإشباع : إتمام الحكم المطلوب في المدود الفرعية الزائدة على مقدار المد الطبيعي .

مرشد القارئ (ص ٢٧٧) مختصر العبارات (ص٢٤)

(٨) النقل : تحويل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها مع حذف الهمزة .

إفادات العطار (ص١٣٦) إبراز المعاني (ص ٤٢) مختصر العبارات (ص ١٢٥)

(٩) عثمان بن سعيد أبو سعيد القرشي مولاهم المصري .

الملقب بورش . ولد سنة (١١٠هـ) يروي عن نافع بن أبي نعيم . توفي بمصر سنة (١٩٧هـ) .

سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٩٥) معرفة القراء الكبار(١/ ١٥٢) غاية النهاية (١/ ٥٠٢)

(١٠) عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى الزرقي أبو موسى المديني .

قارئ أهل المدينة في زمانه ونحويهم، ولقب قالون لجودة قراءته . توفي سنة (٢٢٠هـ)

=

جعفر[1] فلا يخلو إما أن يعتد [2] بالعارض[3] أو لا ؛ فإن لم يعتد بحركتها وقدر [4] سكونها إذ [5] النقل عارض وجب حينئذ مد الألف بعد همزة / [أ(٣/أ)] الاستفهام مداً مشبعاً كما يجب مدها حالة عدم النقل [6]، وإن اعتد بحركتها قَصَرَ. وهذان الوجهان نص عليهما أبو الحسن / [ب (٣٤/أ)] طاهر بن غَلْبُون وغيره في ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ﴾[7] حالة النقل، وفي ﴿الٓمٓ اللَّهُ﴾ [8] حالة الوصل [9]، وذلك أصل مطرد عند القراء .

= سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٢٦) معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٥) غاية النهاية (١/ ٦١٥)

(١) يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومي المدني .

أحد القراء العشرة، تابعي مشهور، عرض القرآن على ابن عباس وأبي هريرة . توفي سنة (١٣٠هـ)

معرفة القراء الكبار (١/ ٧٢) غاية النهاية (٢/ ٣٨٢)

(٢) في (ب) : أما يعتد .

(٣) في (أ) : عن العارض . وكأنها عدلت إلى : بالعارض .

العارض : لغة :الشيء يحول دون شيءٍ آخر.واصطلاحًا : ما يكون محمولا على الشيء خارجًا عنه، فالوضع الطارئ أو الحادث للكلمة أو العبارة أو التركيب يسمى عارضًا . الأصل والعارض في أحكام التجويد والقراءات د. حاتم التميمي (ص ١١)

(٤) في (جـ) : بقدر .

(٥) في (أ) : إذا .

(٦) كذا في (جـ)، وأما في (أ) و (ب) : حالة النقل . وما أُثبت هو الصحيح يدل على ذلك ما ذكره آنفا في مذهب من لم ينقل .

(٧) سورة العنكبوت آية رقم ١-٢ . وفي (جـ) زيادة : (الناس) .

(٨) سورة آل عمران آية رقم ١-٢ .

(٩) التذكرة في القراءات الثمان (١/ ٧١)

إذا علم ذلك ؛ فإن لورش مذهبا آخر يختص به في المد بعد الهمز، وذلك المقصود من ذكر هذه المسألة، فتقول [١] الأئمة الذين [٢] نقلوا عن ورش من باب ﴿ ءَامَنَ ﴾ [٣] و ﴿ ءَازَرَ ﴾ [٤] وشبهه لا يخلو عندهم حرف المد الأول من ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ إما أن يكون واجب البدل أو جائِزَهُ، فمن كان عنده جائز البدل كصاحب "التيسير" [٥] و"الشاطبية" فلا يجوز أن يلحق عنده بباب ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿ءَازَرَ ﴾ ؛ لأنه [٦] واجب البدل [٧] ؛ بل بباب ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ و﴿ ءَأَلِدُ ﴾ [٨]، فإنه جائز البدل ؛ لثبوت التسهيل عندهم في القراءة الأخرى؛ فإن نظرنا إلى ما كان في الأصل قبل النقل مددناهم [٩] مداً مشبعاً مثل : ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ و﴿ءَأَنتَ ﴾ [١٠] حالة البدل أيضا، وأما من كان عنده واجب البدل كما هو مذهب/ [أ(٣/ب)] الجمهور من أهل الأداء فلا يجوز [١١] أن

---

(١) في (ب) : فيقول .

(٢) (الذين) ليست في (جـ) .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣ وغيرها .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٧٤ .

(٥) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٩)

(٦) في (جـ) : فإنه .

(٧) (أو جائزه ... البدل) من (أ) و(ب) وألحقت في هامش (جـ) .

(٨) سورة هود آية رقم ٧٢ .

(٩) في (ب) و(جـ) : مددنا .

(١٠) سورة المائدة ١١٦ والأنبياء آية رقم ٦٢ .

(١١) في (جـ) زيادة : أيضا .

تلحق [1] عندهم بباب ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿ءَازَرَ﴾ إلا على تقدير اعتدادهم بالعارض، وذلك بعد [2] أصل لورش ينبغي أن يُعرف، وهو أن مذهبه أن حرف المد الواقع بعد الهمزة إذا وقع بعده [3] همزة أو ساكن مد لأجل الهمزة والساكن ؛ لأنه أقوى ؛ فيُلغي الأضعف، وهو مده لأجل الهمزة قبله؛ لأن مد حرف المد للهمزة قبله ضعيف ومده للهمزة[4] بعده أو للساكن قوي، وإذا اجتمع معنا سببان ضعيف وقوي روعي الأقوى وأُلغي الأضعف، ولذلك لم يكن لورش في : ﴿ءَآمِّينَ﴾ [5]، و﴿رَءَآ أَيْدِيَهُمْ﴾ [6]، و﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ﴾ [7] ونحوه ثلاثة أوجه؛ بل وجهٌ واحدٌ، وهو المد مراعاة للهمزة والساكن الذي بعد حرف المد، وله إذا وقف على ﴿رَءَآ﴾ و﴿وَجَآءُوٓ﴾ الثلاثة الأوجه التي له ؛ لزوال الهمزة التي بعدها.

فإذا عُلم ذلك ؛ فإن لم يعتد بالعارض في ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾وهو نقل الحركة يمد لورش مداً مشبعاً من / [أ(٤/أ)] أجل سكون اللام[8] ؛ لأن حركتها عارضة،

---

(١) في (أ) و(جـ) : يلحق .

(٢) في (جـ) زيادة : تقدير .

(٣) في (ب) : بعد .

(٤) (قبله ضعيف ومده للهمزة) ليست في (جـ).

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٢.

(٦) سورة هود آية رقم ٧٠ .

(٧) سورة يوسف آية رقم ١٦.

(٨) في (جـ) : الهمزة . وضرب عليها وكتب : اللام .

فهي على هذا التقدير مثل : ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ﴾، و﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ [١]، و﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ﴾ [٢]، وإن اعتددنا بالعارض وإلى ما آل إليه اللفظ يكون فيه ثلاثة أوجه : فيشبعه مَنْ مذهبه الإشباع، ويوسطه مَنْ مذهبه التوسط، ويقصره مَنْ مذهبه القصر[٣] ؛ هذا حكم الألف التي قبل اللام .

وأما الألف التي بعد اللام ؛ فإن من نقل عن ورش مد ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿ءَازَرَ﴾ فيها على ثلاثة أقسام [٤] : منهم من أطلق فيها المد كسائر الباب، ولم يفرق بينها وبين غيرهما كمكي [٥] صاحب "التبصرة" [٦]؛ فإنه استثنى ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[٧] / [ب(٣٤/ب)]، ولم يستثن ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ ومذهبه الإشباع[٨]، وكأبي عمرو الداني صاحب "التيسير" [٩]؛ فإنه لم يستثنه مع استثنائه ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيره [١٠]، ومذهبه التوسط، ومنهم من استثناه كما استثنى غيره كأبي

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٣ و ١٤٤

(٢) سورة يونس آية رقم ٥٩

(٣) القصر: ترك الزيادة في المد .

إبراز المعاني (ص ١١٣) مختصر العبارات (ص٩٧)

(٤) في (جـ) : أوجه . وضرب عليها وكتب : أقسام .

(٥) في هامش (ب) : فمكي .

(٦) التبصرة في القراءات السبع (ص ٢٥٩)

(٧) سورة النجم آية رقم ٥٠ .

(٨) في (جـ) : إشباع المد .

(٩) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٨)

(١٠) أبو عمرو لم يستثنها في "التيسير" ؛ لكنه استثناها في "الجامع في القراءات السبع" (٢/ ٤٨٠) .
=

عبدالله بن سفيان صاحب "الهادي"، وأبي عبدالله بن شريح صاحب "الكافي"[1]، وأبي العباس المهدوي صاحب "الهداية" [2]، ومنهم/ [أ(٤/ ب)] من لم يستثنه ولا استثنى شيئا من الباب ؛ فما أجمع على استثنائه كـ ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ و﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ [3] مما اختلف فيه كـ ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ و﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [4] كأبي الطاهر صاحب "العنوان" [5]، والأهوازي [6]، وابن الفحام صاحب "التجريد"[7]، وأبي الحسن بن بَلِّيمة [8] صاحب

= وقد ذكر ابن الجزري أن أبا عمرو نص على الخلاف فيها في كتابيه "الإيجاز" و"المفردات" .النشر (١/ ٣٤١)

(١) الكافي في القراءات السبع (ص٢١١)

(٢) شرح الهداية (١/ ٣٩)

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٣٤ وغيرها .

(٤) الجملة غير واضحة، ولعل المراد أن منهم من لم يستثنه ولا استثنى شيئا من الباب مما أجمع على استثنائه ولا مما اختلف فيه .

(٥) العنوان في القراءات السبع (ص٤٣)

(٦) الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزداد بن هرمز أبو علي الأهوازي .

ولد سنة (٣٦٢هـ) بالأهواز، قرأ على ابن شنبوذ وابن مجاهد، قرأ عليه أبو القاسم الهذلي . توفي سنة (٤٤٦هـ)

سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٣) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٠٢) غاية النهاية (١/ ٢٢٠) لسان الميزان (٢/ ٢٣٧) مقدمة كتاب الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية أئمة الأمصار الخمسة للدكتور دريد حسن (ص ١١-٤١)

انظر الوجيز (ص ٩٨)

(٧) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨)

(٨) الحسن بن خلف بن عبدالله بن بَلِّيمة أبوعلي الأهوازي الميلي القيراوني .

ولد سنة (٤٢٧هـ)، قرأ على أبي معشر الطبري وغيره، له كتاب "تلخيص العبارات". توفي سنة (٥١٤هـ) .

=

"التلخيص" [١] ؛ فيحتمل لهم وجهان أن يكون [٢] مستثنى [٣] عندهم كما استثناه غيرهم، وأن لا يكون [٤] مستثنى عندهم [٥] كمن لم يستثنه . فإذا جعلناه غير مستثنى أشبعه من مذهبه الإشباع كصاحب "العنوان" و"التجريد" ووسطه من مذهبه التوسط كالأهوازي، وابن بَلِّيمة.

فحينئذ يكون حاصل ما يظهر لورش في هذه الكلمة على تقدير جواز البدل كما هو مذهب الشاطبي[٦]، والداني [٧]، ومن وافقهما، وعلى تقدير وجوب البدل على مذهب غيرهم إن لم يعتد [٨] بعارض في المذهبين ستة أوجه :

أحدها [٩] :مد الأول والثاني مداً مشبعاً، وهذا الوجه طريق الشاطبي[١٠]،

= معرفة القراء الكبار (١/ ٤٦٩) غاية النهاية (١/ ٢١١) شذرات الذهب (٦/ ٦٨) مقدمة تحقيق كتاب "تلخيص العبارات" لسبيع حاكمي (ص٦ -٧)

(١) تلخيص العبارات (ص ٢٧،٢٨)

(٢) في (أ) : يكو .وفي (جـ) : أن أن يكون .

(٣) في (ب) كتبت هكذا : مستثناً .

(٤) كذا في (جـ) .وأما في (أ) و(ب) : وأن يكون .

(٥) (عندهم) ليست في (ب) .

(٦) القاسم بن فِيْرُّه بن خلف أبوالقاسم الشاطبي الرعيني الضرير .

الإمام الكبير . ولد سنة (٥٣٨هـ)، نظم قصيدته اللامية في القراءات، والرائية في الرسم . توفي سنة (٥٩٠هـ) .

معرفة القراء الكبار(٢/ ٥٧٣) غاية النهاية (٢/ ٢٠) شذرات الذهب (٦/ ٤٩٤)

(٧) التيسير في القراءات السبع (ص ٣١٠)

(٨) في (جـ) : إن يعتد .

(٩) (أحدها) ليست في (جـ) .

(١٠) الوافي شرح الشاطبية (ص ٧٥)

ومكي [1]، ويحتمل لصاحب "التجريد" [2]، ولا يجوز أن يكون لصاحب "العنوان" / [أ(٥/أ)]لأن مذهبه تسهيل الأول [3] .

الثاني: مد الأول وتوسط[4] الثاني طريق "التيسير"[5] و"الشاطبية"[6]، ويحتمل الأهوازي [7]، وابن بَلِّيَمة [8].

الثالث:مد الأول وقصر الثاني طريق الشاطبي أيضا [9]، وطريق ابن سفيان، وابن شُرَيح[10]، والمهدوي [11]، ويحتمل الأهوازي [12]، وابن بَلِّيَمة[13]، وصاحب "التجريد" [14].

فهذه ثلاثة أوجه مع مد الأول على تقدير جواز البدل ووجوبه نظرا للأصل وعدما للاعتداد بالعارض .

---

(١) التبصرة في القراءات السبع (ص ٢٦٧)

(٢) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨)

(٣) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٦) . وفي (جـ) : الأولى .

(٤) في (جـ) : توسيط .

(٥) التيسير في القراءات السبع(ص ١٤٩)

(٦) في (جـ) : طريق الشاطبية والتيسير .

(٧) الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية (ص ٩٨) . و في (جـ) : للأهوازي .

(٨) تلخيص العبارات (ص ٢٨)

(٩) الوافي شرح الشاطبية (ص ٧٥)

(١٠) الكافي في القراءات السبع (ص٢٢١)

(١١) شرح الهداية (١/ ٣٩)

(١٢)الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية (ص ٩٩) .وفي (جـ) : للأهوازي .

(١٣) تلخيص العبارات (ص ٢٨)

(١٤) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨) (ص ٢٣٧)

ويجوز لهم [١] ثلاثة أخرى عن ورش مع القصر في الأول على تقدير جواز البدل ووجوبه اعتدادا بالعارض ؛ فكل [٢] من مد الأول قصره مع ما لَه في الثاني [٣] .

وهذه الستة أوجه تجوز لقالون وأبي جعفر في الوقف [٤]، ويظهر لورش على تقدير وجوب البدل مع الاعتداد بالعارض ثلاثة أوجه :

الأول : مدهما طريق مكي [٥]، ويحتمل لصاحب "التجريد" [٦]. والثاني: قصرهما طريق أبي الحسن بن غَلْبُون [٧]، ويندرج في الستة المتقدمة [٨] .

الثالث في اللفظ وهو التاسع/ [أ(٥/ ب)] في الحكم، والسابع في الواقع/ [ب(٣٥/ أ)] : توسطهما ولا أعلمه [٩] مذهب أحد بالنص، وإنما يحتمله [١٠] عبارة الأهوازي[١١]، وابن بَلِّيمة [١٢] كما يحتمل عباراتهما الثامن

(١) في (جـ) : وتجويزهم .

(٢) في (جـ) : وكل .

(٣) يظهر لي -والله أعلم- أن هذا ليس على إطلاقه ؛ فالمعروف من طريق الشاطبية أنه إذا قصر في الأول، فليس له في الثاني إلا القصر .

(٤) في (جـ) زيادة : ولحمزة إذا وقفت كالنقل لمن مذهبه ذلك عنه .

(٥) التبصرة في القراءات (ص ٢٧٧)

(٦) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨)

(٧) التذكرة في القراءات الثمان (١/ ١٠٩)

(٨) في (جـ) : ويتحد هذان الوجهان في الستة المتقدمة .

(٩) في (جـ) : أعلم .

(١٠) في (جـ) : تحتمله .

(١١) الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية (ص ٩٩)

(١٢) تلخيص العبارات (ص ٢٨)

في اللفظ : وهو توسيط [1] الأول وقصر الثاني ؛ فإن قُرِئ لهما بهذا قُرِئ لهما بما قبله، وإن مُنِع هذا مُنِع ما قبله . ويبقى في القسمة العقلية تاسع [2] : وهو توسط الأول وإشباع الثاني، وهذا الوجه لا أعلمه مذهب أحد بنص ولا احتمال، وكتاب الله مُنزه عن ذلك، والله أعلم .

فهذه الأوجه مع البدل، وأما مع التسهيل ؛ فيظهر لورش ثلاثة أوجه: المد، والتوسط، والقصر ؛ فالمد من ظاهر كلام [3] الشاطبي، ويحتمله كلام صاحب "العنوان"، والتوسط طريق التيسير، وظاهر كلام الشاطبي [4]، والقصر طريق ابن غَلْبُون إن أخذ له بالتسهيل، ولم أره ذكره في كتاب "التذكرة"، ولا نقله عنه [5] أحد بالتصريح، وهو ظاهر [6] كلام الشاطبي، ويحتمله كلام صاحب "العنوان" [7] أيضا [8] . انتهى كلام الشمس ابن

(١) في (جـ) : توسط . وكتب قبلها : توسطهما . وضرب عليها .

(٢) كتب قبلها في (أ) : سا . وضرب عليها

(٣) (كلام) كررت في (أ) . وضرب على الأولى .

(٤) (ويحتمله ... الشاطبي) من (ب) و(جـ) وألحقت في هامش (أ) .

(٥) في (ب) : عن .

(٦) في (جـ) : ومعنى ظاهر .

(٧) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٣، ٤٦)

(٨) ورد في نهاية نسخة (جـ) ما نصه :

فهذا ما تيسر إملاؤه في هذه المسألة، وفيما ذكرناه كفاية ومتسع وغنى إن شاء الله تعالى ؛ فليأخذ (...) بما ينشرح له صدره ويثلج له قلبه، وتطهر إليه نفسه قال صلى الله عليه وسلم : "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" . وقال صلى الله عليه وسلم : "استفت قلبك، وإن أفتاك الناس أو أفتوك ". وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . غفر الله لكاتبها ولقارئها (...) =

الجزري رحمه الله تعالى .

ولقد أجاد شيخنا حفظه الله تعالى على المسلمين، وأدام النفع بعلومه وبركاته/ [أ(٦/أ)] في الدنيا والدين في رسالته المسماة بـ "فتح الكبير المتعال بشرح مُذْهِبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال". فأوضح مشكلات هذه الآية الشريفة ونظمها بقالب فكره، وشرحها بجوهر ذهنه. فهي رسالةٌ جليلةُ المقدار ؛ لم يُسْبَق إلى مثلها في قطر من الأقطار أدام الله عليه جزيل الإنعام، وبوأه على صنيعه دار السلام، وها أنا أغترف من بعض بحره معترفا بتقصير اللسان ؛ لأني لست من أهل هذا الميدان الذي تجول فيه فحول الفرسان ؛ لكن لمَّا أمدَّني الشيخ حفظه الله تعالى بنظره ؛ فحلت عليَّ بركةٌ من بركتِهِ ؛ فصرت ببحر عرفانه أسبح [(١)]، وبفيض إمداداته [(٢)] أتنقح ؛ وأخذت بعضا من فوائد هذه الرسالة العظيمة، والدرة الغويصة اليتيمة ؛ فأقول وبالله المستعان وعليه المعول والتكلان :

قال الشيخ حفظه الله تعالى: إذا عرفت ذلك فاعلم أن نافعا [(٣)] قرأ

= والحمدلله رب العالمين في اليوم التاسع شهر المحرم الحرام في البلد الحرام سنة أربع وعشرين بعد الألف المبارك في رباط ربيع والحمدلله رب العالمين .

(١) في (أ) : أسيح .

(٢) في (أ) : امتداداته .

(٣) نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم أبو رويم الليثي المدني.

أحد القراء السبعة، وإمام أهل المدينة في القراءة في عصره، قرأ على أبي جعفر وقرأ عليه قالون وورش، توفي سنة (١٦٩هـ)

وفيات الأعيان (٥/ ٣٦٨) معرفة القراء الكبار (١/ ١٠٧) غاية النهاية (٢/ ٣٣٠)

بالنقل في ﴿ ءَآلْءَٰنَ ﴾ بالمد والقصر/ [أ(٦/ ب)]، فالمد على أنه لم يعتد بالعارض، والقصر على أنه اعتد به لكوْن السكون زال بالنقل، وعنه تسهيل همزة الوصل من غير إدخال [(١)] ؛ هذا كله [(٢)] على قصر ﴿ءَامَنتُم﴾ لورش.

أما قالون فليس له إلا ذلك / [ب (٣٥ب)] على قصر المنفصل ومده .

ثم على التوسط في ﴿ءَامَنتُم﴾ لورش تأتي ستة أوجه : التوسط والمد والقصر في ألف[(٣)] (لان) [(٤)]، وكذلك الثلاثة في اللام[(٥)]، ثم بوجهي التسهيل، وهما التوسط والقصر.

وعلى مد ﴿ءَامَنتُم﴾ تأتي عليه بالمد في الألف بعد همزة الاستفهام، والمد والقصر في ألف (لا)، ثم تأتي بالقصر في الألف الكائنة بعد [(٦)] الهمزة

(١) الإدخال : مجال الألف بين همزتين التقتا لمن له الفصل بينهما .

التمهيد في علم التجويد (ص ٦٧) مختصر العبارات (ص٧٨)

(٢) في (أ) : هذه الكلمة كله . وعدلت (هذه) إلى (هذا) وضرب على (الكلمة) .

(٣) كتبت في (أ) : الألف . وعدلت بمسح (لأ) إلى : ألف .

(٤) كذا في (أ) و(ب) . وهذا يعني أن المراد الألف التي بعد اللام (لان) . ولعل الأقرب أن تكون الألف التي قبل اللام (ءالان) ؛ لأنها لو كانت ألف (لان) لكانت هي اللام التي ذكرها بعد : (وكذلك الثلاثة باللام)، وعبر عنها باللام تجوزا لأنه لا يُمد إلا حرف مد واللام ليست كذلك.

(٥) الأوجه الثلاثة وهي : التوسط والمد والقصر في ألف (ءالان) مع الثلاثة في اللام تحتاج إلى تحرير أكثر فلم تتفق جميع الطرق على ذلك، وهناك خلاف فيما إذا كانت معتدا بالعارض أم لا كما نقل المؤلف عن ابن الجزري آنفا (ص ٤٢)

(٦) في (ب) : بعده .

المذكورة والمد في ألف[١] (لان) وقصره. فيحصل أربعة أوجه، ثم تأتي بتسهيل همزة الوصل الكائنة بعد همزة الاستفهام والمد والقصر في ألف [٢] (لان) ؛ هذا إذا ركبت ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ مع ﴿ءَامَنتُم ﴾.

وأما إذا وقفت على﴿ بِهِۦ﴾؛ فلك في ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ على وجه الإبدال ستة أوجه، وذلك أن لك[٣] في مد الألف بعد همزة الاستفهام المد والتوسط[٤]/ [أ(٧/أ)] والقصر. وعلى المد يأتي في ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ هذه الثلاثة، وعلى التوسط يأتي في﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ توسط وقصر، وعلى القصر القصر لا غير؛ فهذه ستة أوجه .

وإن [٥] أسهلت همزة الوصل تأتي بثلاثة أوجه وهي: المد، والتوسط، والقصر في ألف ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ ؛ فجملة الأوجه بأوجه التسهيل تسعة.

وأما إذا وقفت على [٦] ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ أي على نونها ؛ فتأتي [٧] بثلاثة أوجه في همزة الاستفهام : المد والتوسط والقصر، وتأتي على مد الألف الكائنة بعد همزة الاستفهام بالمد والتوسط والقصر في ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾، وعلى التوسط في

(١) كتبت في (أ) : الألف . وعدلت بمسح (لأ) إلى : ألف .

(٢) كتبت في (أ) : الألف . وعدلت بمسح (لأ) إلى : ألف .

(٣) كتبت في (أ) : ذلك . وعدلت إلى : لك .

(٤) التوسط في الألف التي بعد همزة الاستفهام ليس من طريق الشاطبية، وعليه لا يترتب توسط وقصر في ألف (لان).

(٥) في (ب) : وإذ .

(٦) (على) من (أ) . وألحقت في هامش (ب)

(٧) في (ب) : تأتي .

الألف تأتي بالأوجه المذكورة، وكذا على القصر فالجملة بتسعة أوجه، ثم تأتي بأوجه التسهيل الثلاثة ؛ فالجملة اثنا عشر وجها .
قال [١] ذلك محمد بن أسد [٢] تلميذ الشمس ابن الجزري : وهذا لا يتأَتَّى إلا إذا وقفت على الهاء من ﴿ بِهِۦ﴾ وابتدأت [٣] بـ ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾. فإن الشمس ابن الجزري نظم بيتين فيما يتعلق بقطع ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ عما قبلها ؛ فقال[٤] / [أ(٧/ ب)]:

للأَزْرَق [٥] في الآن سِتةُ أوجهٍ عَلَى وَجْهِ إبدالٍ لدى وَصْلها تَجْرِ [٦]
فَمُدَّ وثَلِّث ثانيا ثم وَسّطَنْ بِهِ وبقَصْرٍ ثُمَّ بالقَصْرِ مع قَصْرِ

(١) في (أ) : قاله .
(٢) كذا في النسختين . ولم أجد من تلاميذ ابن الجزري من اسمه : محمد بن أسد، ولعل الصواب : أحمد بن أسد، انظر "غيث النفع" (١/ ٢٤٢) وهو :
أحمد بن أسد بن عبدالواحد بن أحمد الأميوطي الإسكندري شهاب الدين أبو العباس الشافعي. ولد سنة (٨٠٨هـ)، شاعر، مشارك في بعض العلوم . له من المؤلفات "شرح حرز الأماني"، و "أرجوزة الذيل المترف من الأشرف إلى الأشرف في التاريخ" . توفي سنة (٨٨٢هـ) .
الضوء اللامع (١/ ١٨٩) هدية العارفين (٤/ ١٢٢) معجم المؤلفين (١/ ١٠٢)
(٣) في (ب) : وابتديت .
(٤) النشر (١/ ٣٥٩) وفيه: وصله .
(٥) في (ب) : للأزراق .
يوسف بن عمرو بن يسار الأزرق أبو يعقوب المدني ثم المصري .
لزم ورشا مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء . توفي في حدود سنة (٢٤٠هـ)
معرفة القراء الكبار (١/ ١٨٦) غاية النهاية (٢/ ٤٠٣)
(٦) في (أ) : تجري .

ونظمها الشيخ محمد شمس [١] الدين القباقبي[٢] في بيتين من بحر الرجز ؛ فقال [٣]:

وإنْ يَصَلْ مُبْدلاً [٤] الآن ومُدّ   لأزْرَق [٥] الأُولى ثلّثِ الأُخْرى وَعَدّ

توسيطَ [٦] كل منهما وقَصْـــرَهْ   والسَّادسُ التوسيط [٧] فالقصرُ لهْ

/ [ب(٣٦/ أ)] انتهى .

ووافق [٨] نافعا من طريق (الدُّرَّة) ابن ورَدْان [٩] عن أبي جعفر [١٠]، وليس

---

(١) في (أ) زيادة : نظم . وضرب عليها .

(٢) محمد بن خليل بن أبي بكر شمس الدين المعروف بابن القباقبي .

ولد سنة (٧٧٨هـ) . ولد وتعلم في حلب، عالم بالقراءات، له كتب كثيرة منها "إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز" . توفي في بيت المقدس سنة (٨٤٩هـ) .

شذرات الذهب (٧/ ٢٦٥) الأعلام (٦/ ١١٧) مقدمة كتاب "إيضاح الرموز" للدكتور أحمد شكري (ص ١٣-٣٦)

(٣) إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز (ص ١٢٢) وفيه : وإن تصل .

(٤) في (ب) : منه . وكتب في الهامش : مبدلا .

(٥) في (ب) : لأزراق .

(٦) في (أ) : توسط . لكن وضع نقطتين تحت السطر بين السين والطاء .

(٧) في (أ) : التوسط . لكن وضع نقطتين تحت السطر بين السين والطاء .

(٨) في (ب) : وافف . وصححت في الهامش وكتب : ووافق .

(٩) عيسى بن وردان أبو الحارث المدني.

إمام مقرئ حاذق، وراو محقق ضابط، عرض على نافع . قال الداني : هو من جلة أصحاب نافع وقدمائهم، وقد شاركه في الإسناد . مات في حدود (١٦٠هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ١١١) غاية النهاية (١/ ٦١٦)

(١٠) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٣٩)

في طريق (طَيِّبة النشر) من خالف في ذلك ؛ بل هم على أصولهم، وأما حمزة فله السكت [1] وعدمه على التحقيق، وكذا الوجهان على التسهيل، وإذا وقف فهو على أصله من الوقف بالنقل والسكت، وكذا على وجه التسهيل النقل والسكت .

وأما إذا أردت أن تقف له بأوجه الوقف الجارية بين القراء؛ فله في ذلك اثنا عشر وجها [2]، وهي أوجه النقل : المد، والتوسط، والقصر، وأوجه السكت/ [أ(٨/ أ)] الثلاثة، وكذا أوجه التسهيل الثلاثة، وأوجه السكت على التسهيل الثلاثة أيضا ؛ فافهم ذلك ؛ فقل من يتنبه لذلك.

ووافقه في السكت من طريق (طَيِّبة النشر) ابن ذكوان [3]، وحفص [4]،

---

(١) السكت : قطع الصوت زمنا دون زمن الوقف عادة من غير تنفس .
النشر (١/ ٢٠٦) مختصر العبارات (ص ٧١) .

(٢) الذي يظهر أن لحمزة وقفا خمسة عشر وجها، وذلك لأن من مذهبه وقفا النقل ؛ فإذا نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وهو اللام ؛ فتتحرك اللام بحركة عارضة ؛ فإذا اعتددنا بالعارض يكون له في الألف التي بعد همزة الاستفهام بدل مع القصر اعتدادا بالعارض مع أوجه المد العارض وهي المد والتوسط والقصر ؛ فهذه ثلاثة أوجه بالإضافة إلى الاثني عشر وجها التي سيذكرها المؤلف ؛ فيكون المجموع خمسة عشر وجها .انظر غيث النفع للصفاقسي (٢/ ٦٩٤) البسط في القراءات العشر، سمر العشا (ص ٣٢٨) .

(٣) عبدالله بن أحمد بن بشر بن ذكوان أبو عمرو الدمشقي .
ولد سنة (١٧٣هـ) روى عنه القراءة هارون بن موسى الأخفش . له كتاب "أقسام القرآن" وغيره. توفي سنة (٢٩٢هـ) .
معرفة القراء الكبار (١/ ١٩٨) غاية النهاية (١/ ٤٠٤) شذرات الذهب (٣/ ١٩٢)

(٤) حفص بن سليمان بن المغيرة أبو عمرو الأسدي الكوفي .
ولد سنة (٩٠هـ)، كان صاحب عاصم وربيبه، نزل بغداد وأقرأ بها، وغلبت قراءته على =

وإدريس[(١)] عن خلف[(٢)] في اختياره، وهم على أصولهم من تحقيق وتسهيل[(٣)].

وقد نظم العلامة الشيخ علي الشَّبْرَاملسي[(٤)] ما[(٥)] يتعلق بمذهب ورش في ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾، فقال[(٦)]:

للأزرق[(٧)] في آمنتم حيث ركبت مع الآن بالإبدال وجهان مع عشْرِ

= الأمصار. توفي سنة (١٨٠هـ).

معرفة القراء الكبار (١/ ١٤٠) غاية النهاية (١/ ٢٤٥)

(١) إدريس بن عبدالكريم الحداد أبو الحسن البغدادي .

قرأ على خلف بن هشام، روى عنه ابن مجاهد وابن شنبوذ . توفي سنة (٢٩٢هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٤) معرفة القراء الكبار (١/ ٢٥٤)

(٢) خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف أبو محمد البزار المقرئ البغدادي .

ولد سنة (١٥٠هـ) قرأ على جماعة أشهرهم سليم عن حمزة، وأخذ حرف نافع عن إبي إسحاق المسيبي، قرأ عليه الحلواني والكسائي وغيرهما . توفي سنة (٢٢٩هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٧٦) معرفة القراء الكبار (١/ ٢٠٨) غاية النهاية (١/ ٢٧٣)

(٣) الهادي شرح طَيِّبة النشر في القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها لمحمد سالم محيسن (ص ٢٣٩)

(٤) علي بن علي نور الدين أبو الضياء الشَّبْرَاملسي .

ولد عام (٩٩٧هـ)، تعلّم وعلّم بالأزهر، فقيه شافعي مصري، والشَّبْرَاملسي نسبة إلى شبراملس قرية بالغربية بمصر . وصنف كتبا منها : "حاشية على المواهب اللدنية للقسطلاني"، و"حاشية على شرح المقدمة الجزرية في التجويد" . توفي سنة (١٠٨٧هـ) .

خلاصة الأثر (٢/ ١٣٤) الأعلام (٤ / ٣١٤) معجم المؤلفين (٢/ ٤٧٨) .

(٥) (ما) كررت في (ب)

(٦) ذكر هذه الأبيات البنا في "إتحاف فضلاء البشر" (٢/ ١١٣) وقال : ونظمها شيخنا . ولم يسمه .

(٧) في (ب) : للأزراق . وفيها زيادة : الآن . وضرب عليها .

فإن تقصر آمنتم فمد واقصـر [(١)] لِأَول مدى لان والثاني بالقصْرِ

وإن وسطتَ فالثاني [(٢)] أقصر [(٣)] ووسطَنْ مع المد والتوسيط والقصر ذا [(٤)] ادرِ

ومع مدها مد فقصْرٌ وعكسُهُ وقصرهما والمدُ ذا ظاهر النشرِ

إلا أنـه رحمـه الله اقـتصر في الـنظم عـلى الاثنـي عشــر وجهـا، وتـرك بـاقي الأوجه؛ أي أوجه التسهيل الخمسة [(٥)] .

والحاصل أنك إذا أردت الجمع لقوله تعالى ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ / [أ(٨/ب)] وركبت ﴿ ءَامَنتُم ﴾ مع ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ فتبتدئ لقالون بالقصر [(٦)] في ﴿بِهِۦ﴾ وعدم الصلة [(٧)]، وثلاثة أوجه في ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ المد والقصر والتسهيل، ثم تعطف عليه أبا عمرو [(٨)] بالبدل والتسهيل، ويندرج

---

(١) في (أ) : فمد أو قصرت .

(٢) (فالثاني) من (أ) وألحقت في هامش (ب) .

(٣) في (ب) : فاقصر .

(٤) في (أ) : إذا .

(٥) في (أ) زيادة : . اهـ يتولف . و(أي أوجه التسهيل الخمسة) ليست في (ب) .

(٦) (بالقصر) ليست في (ب) .

(٧) الصلة : النطق بهاء الضمير المكني بها عن المفرد الغائب موصولة بحرف مد لفظي يناسب حركتها، فيوصل ضمها بواو ويوصل كسرها بياء.

الإضاءة في بيان أصول القراءة (ص ١٧) مختصر العبارات (ص ٧٨)

(٨) زِبَّان على الصحيح ابن العلاء بن عمار أبو عمرو المازني البصري .

أحد القراء السبعة . ولد سنة (٦٨هـ) . قرأ على الحسن البصري وعاصم وابن كثير وغيرهم، روى عنه يونس بن حبيب وخلق كثير . توفي سنة (١٥٤هـ) .

مشاهير علماء الأمصار (ص ١٥٣) معرفة القراء الكبار(١/ ١٠٠) غاية النهاية (١/ ٥٠٢)

معه يعقوب [١] إن كنت تقرأ من طريق (الدُّرَّة)، ثم تأتي بالمد في ﴿بِهِۦ﴾ وعدم الصلة، وعليه الأوجه الثلاثة في ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾، وتعطف عليه أبا عمرو كما تقدم، ويندرج مع أبي عمرو ابن عامر [٢] وعاصم [٣] إن كنت تقرأ بمرتبتين، وإلا فتأتي بالمد لابن عامر وغيره بعد مد ورش، ثم تأتي بالمد[٤] في ﴿بِهِۦ﴾ لورش، وعليه ثلاثة أوجه : المد والقصر والتسهيل، وتعطف عليه حمزة بمد البدل والسكت، ثم بالتسهيل والسكت، ثم تأتي بالصلة مع عدم / [ب(٣٦/ب)] المد، وعليها الأوجه الثلاثة المذكورة كما تقدم، ثم تعطف عليه ابن كثير[٥] بالبدل والتسهيل، ويندرج مع قالون ابن وَرْدان إن كنت

(١) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي مولاهم أبو محمد البصري .
ولد سنة (١١٧هـ) . أحد القراء العشرة، وإمام أهل البصرة ومقرؤها . توفي سنة (٢٠٥هـ) .
سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٦٩) معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٧) غاية النهاية (٢/ ٢٨٦)

(٢) عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم أبو عمران –على الأشهر – الشامي .
ولد سنة (٢١هـ)، أحد القراء السبعة، انتهت إليه رئاسة الإقراء في الشام، وتولى القضاء بدمشق . توفي سنة (١١٨هـ) .
سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٩٢) معرفة القراء الكبار (١/ ٨٢) غاية النهاية (١/ ٤٢٣)

(٣) عاصم بن بهدلة أبي النجود الأسدي مولاهم أبو بكر الكوفي .
أحد القراء السبعة، تصدر للإقراء، وقرأ عليه خلق كثير، جمع بين الفصاحة والإتقان والتجويد . توفي سنة (١٢٧هـ)
سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٥٦) معرفة القراء الكبار (١/ ٨٨) غاية النهاية (١/ ٣٤٦)

(٤) كتب قبلها في (أ) : في المد ثم ضرب عليها .

(٥) عبدالله بن كثير بن المطلب القرشي من بني عبدالدار أبو معبد المكي .
ولد سنة (٤٥هـ) . أدرك غير واحد من الصحابة، إمام أهل مكة في القراءة في عصره، قرأ عليه =

تقرأ من طريق (الدُّرَّة)، ويندرج/ [(٩/أ)] ابن جماز [(١)] مع ابن كثير، ثم تأتي[(٢)] بالمد على الصلة، وعليه الأوجه الثلاثة المتقدمة، ثم تأتي لورش بالتوسط في ﴿ءَامَنتُم ﴾ وعليه ثمانية أوجه في ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ وهي : المد في الهمز، والتوسط والقصر في اللام . والتوسط في الهمز، والتوسط والقصر في اللام [(٣)]. والقصر في الهمز، والتوسط والقصر في اللام . والتسهيل في الهمز[(٤)]، والتوسط والقصر في اللام .

ثم تأتي له بالمد الطويل في ﴿ءَامَنتُم ﴾، وعليه ستة أوجه في ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ وهي: المد في الهمز، والمد والقصر في اللام . والقصر في الهمز، والمد والقصر في اللام [(٥)]. والتسهيل في الهمز، والمد والقصر في اللام . وكذا إذا أردت جمع قوله تعالى ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ ﴾ فتبتدئ لقالون بالأوجه الثلاثة المذكورة، وهي : المد،والقصر، والتسهيل .

وأما ورش فله فيها تسعة أوجه وهي : المد في الهمز، والمد والتوسط

= أبو عمرو بن العلاء وغيره. توفي سنة (١٢٠هـ)

وفيات الأعيان (٣/ ٤١) معرفة القراء الكبار (١/ ٨٦) غاية النهاية (١/ ٤٤٣)

(١) سليمان بن مسلم بن جماز الزهري أبو الربيع المدني .

مقرئ، ضابط، جليل، قرأ على أبي جعفر يزيد بن القعقاع . توفي سنة (١٧٠هـ)

الأنساب (١/ ٤٨٠) غاية النهاية (١/ ٣١٥)

(٢) (تأتي) ليست في (ب) .

(٣) في (ب) زيادة : ثم تأتي بالمد الطويل. وضرب عليها .

(٤) في (أ) في المواضع الثلاثة : الهمزة . ومسحت التاء المربوطة .

(٥) (والقصر في الهمز والمد والقصر في اللام) ليست في (ب) .

والقصر في اللام . والتوسط في الهمز، والتوسط والقصر في اللام[١]./ [أ(٩/ ب)] والقصر في الهمز واللام. والتسهيل في الهمز[٢]، والمد والتوسط والقصر في اللام . انتهى [٣] .

وأما قوله تعالى ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ في موضعي الأنعام، وقوله تعالى ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في موضع يونس، وقوله تعالى ﴿ءَآصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في سورة النمل [٤]، فلجميع القراء فيهن البدل والتسهيل [٥] .

وأما قوله تعالى ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ في سورة يونس[٦] ؛ فقرأه أبو عمرو وأبو جعفر بالاستفهام فلهما فيه البدل والتسهيل، وقرأه الباقون بالإخبار [٧] .

والمد على وجه البدل بقدر ثلاث ألفات، وحكى السخاوي[٨] بقدر

---

(١) (والتوسط في الهمز والتوسط والقصر في اللام) من (أ)، وألحقت في هامش (ب) .

(٢) في (أ) : الهمز . لكن كتبت التاء المربوطة فوق السطر .

(٣) انظر غيث النفع (٢/ ٦٩٥-٧٠٠) مختصر بلوغ الأمنية (ص٥٤) إرشاد المريد (ص ٨٧)

(٤) آية رقم ٥٩ .

(٥) النشر (١/ ٣٧٧)

(٦) آية رقم ٨١ .

(٧) المبسوط في القراءات (ص ٢٠٦) إرشاد المبتدي (ص ٣٦٥) النشر (١/ ٣٨٧) (٢/ ٢٨٦)

(٨) علي بن محمد بن عبدالصمد أبو الحسن الهمداني السخاوي .

ولد سنة (٥٥٨هـ) بسخا بمصر . قرأ على أبي القاسم الشاطبي وغيره، وقرأ عليه أبو شامة، شرح "الشاطبية"، وسماها "فتح الوصيد"، وشر الرائية وسماها "الوسيلة إلى شرح العقيلة" . توفي سنة (٦٤٣هـ) .

معرفة القراء الكبار (٢/ ٦٣١) البداية والنهاية (١٣/ ١٧٠) غاية النهاية (١/ ٥٦٨) مقدمة كتاب فتح الوصيد للدكتور مولاي الإدريسي (١/ ٢٣-٨٩) .

أَلِفَيْن[1]، والوجهان صحيحان، والأكثر يقولون يمد بقدر ثلاث ألفات انتهى .

وأمَّا آيات الاستفهام [2] المكرر[3]، والمراد أن تتقدم همزة الاستفهام على (أئذا) و(أئنا) [4]، وتقديم (أئذا) وتأخير (أئنا) التي تصاحبها همزة الاستفهام وهو الأكثر، وقد تُقدم (أئنا) على (أئذا)، وذلك في قوله تعالى سورة والنازعات/ [أ(١٠/أ)] ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ [5]، وتكون أئنا مع مثلها، وذلك في سورة العنكبوت في قوله تعالى [6] ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [7]، وبعدها [ب(٣٧/أ)] ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [8]. ولم يقع لفظ (أئذا) مع نظيرتها في موضع أبدا .

وقد وقع في أحد عشر موضعاً في تسع سور، وهو على حكم التكرار اثنان وعشرون؛ ففي سورة الرعد ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ [9]، وفي

---

(١) فتح الوصيد (٢/ ٣١١)

(٢) في (ب) : الاستفهامات . وعدلت إلى : الاستفهام .

(٣) الاستفهام المكرر: أن تجتمع همزتان في كلمة وبعدها كلمة أخرى ذات همزتين . النشر (١/ ٣٧١) مختصر العبارات (ص ٢٢)

(٤) في (ب) : أو (أئنا) .

(٥) آية رقم ١٠-١١. و(عظاما) ليست في (ب).

(٦) في (ب) زيادة : في سورة . وضرب عليها .

(٧) آية رقم ٢٨ .

(٨) آية رقم ٢٩ .

(٩) آية رقم ٥ .

سورة الإسراء موضعان الأول : ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[(١)]، والثاني لفظه كلفظه[(٢)]، وفي المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[(٣)]، وفي النمل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾[(٤)]، وفي العنكبوت ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾[(٥)]، [أ(١٠/ ب)] وفي سورة السجدة ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ﴾[(٦)]، وفي الصافات[(٧)] موضعان الأول : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[(٨)]، والثاني : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[(٩)]، وفي الواقعة ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[(١٠)]، وفي النازعات ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى

(١) آية رقم ٤٩. وفي (ب) : (... أئنا لفي خلق جديد) . وعدلت إلى (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) .

(٢) آية رقم ٩٨ .

(٣) آية رقم ٨٢ .

(٤) آية رقم ٦٧ .

(٥) آية رقم ٢٨-٢٩ .

(٦) آية رقم ١٠ .

(٧) في (ب) : الصف . وعدلت إلى الصافات .

(٨) آية رقم ١٦.

(٩) آية رقم ٥٣ . وفي (ب) خطأ في الآية : (أئذا كنا ..) وضرب على كلمة (كنا) .

(١٠) آية رقم ٤٧.

ٱلْحَافِرَةِ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ ؛ فهذه جملة المواضع.

إذا علمت هذا فاعلم أن نافعا والكسائي [1] يقرءان بهمزتين [2] في الموضع الأول من أحد الاستفهامين، وفي الثاني بهمزة واحدة ؛ إلا أن نافعا خالف قاعدته في النمل والعنكبوت ؛ فقرأ بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني. والكسائي خالف قاعدته في العنكبوت ؛ فقرأ بالاستفهام في الأول والثاني.

وقرأ ابن عامر بالإخبار في الأول/ [أ(١١/ أ)] والاستفهام في الثاني فيما تقدم ذكره، وخالف قاعدته في النمل والنازعات ؛ فاستفهم في الأول وأخبر في الثاني، وزاد في الثاني من استفهامي النمل هو والكسائي نوناً، وأما في سورة الواقعة فاستفهم فيهما معا.

وقرأ حفص وابن كثير بالإخبار في الأول من استفهامي العنكبوت؛ فتحصل أن الذين يقرؤون بالإخبار في الأول من العنكبوت هم نافع وابن كثير وابن عامر وحفص .

وقرأ باقي القراء بالاستفهام في جميع المواضع التي تقدم ذكرها، وكل منهم

---

(١) علي بن حمزة بن عبدالله أبو الحسن الأسدي الكوفي .

ولد في حدود سنة (١٢٠هـ) . أحد القراء السبعة، وإمام الكوفيين في النحو واللغة، أخذ القراءة عن حمزة أبي بكر بن عياش، ألف كتبا منها "القراءات" . أخذ عنه خلف وغيره . توفي سنة (١٨٩هـ).

معرفة القراء الكبار(١/ ١٢٠) غاية النهاية (١/ ٥٣٥) بغية الوعاة (٢/ ١٦٢)

(٢) في (ب) : يقرؤون بالهمزتين . وفي (أ) : يقرءان بمد بهمزتين . وفيها إشارة إلى حذف كلمة : بمد .

على أصله من : إسهال، وتحقيق [١]، وإدخال وعدمه ؛ إلا أن أكثر الطرق عن هشام [٢] على الفصل بالألف مع التحقيق في هذا [٣] الباب أعني الاستفهام، وبذلك قطع صاحب "التيسير" [٤] و"الشاطبية" [٥] وسائر المغاربة، وأكثر المشارقة كابن شِيْطا [٦]، وابن سَوَّار [٧]، وأبي العز [٨]،

---

(١) التحقيق : النطق بالهمزة على صورتها كاملة الصفات من مخرجها الذي هو أقصى الحلق .
الإضاءة في بيان أصول القراءة (ص ٢٨) مختصر العبارات (ص ٤٣)

(٢) هشام بن عمار بن نصير السلمي وقيل الظفري أبو الوليد الشامي .
ولد سنة (١٥٣هـ)، روى القراءة عن أبي عبيد والحلواني، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم . توفي سنة (٢٤٥هـ).
سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٢٠) معرفة القراء الكبار (١/ ١٩٥) غاية النهاية (٢/ ٣٥٥)

(٣) في (أ) : فهذا . وعدلت إلى : في هذا .

(٤) التيسير في القراءات السبع (ص ٣٢٦-٣٢٨)

(٥) الوافي شرح الشاطبية (ص ٢٩٨) .

(٦) عبدالواحد بن الحسين بن أحمد بن شِيطا أبو الفتح البغدادي .
ولد سنة (٣٧٠هـ) . أخذ عن أبي طاهر بن سَوَّار، له كاتب "التذكار في القراءات العشر" . توفي سنة (٤٠٥هـ) .
تاريخ بغداد (١١/ ١٦) معرفة القراء الكبار (١/ ٤١٥) غاية النهاية (١/ ٤٧٣)

(٧) أحمد بن علي بن عبيدالله بن سَوَّار أبو طاهر البغدادي .
ولد سنة (٤١٢هـ) . قرأ على أبي الفتح بن شيطا، وقرأ عليه سبط بن الخياط وغيره . مؤلف كتاب "المستنير في العشرة" . توفي سنة (٤٩٦هـ) .
معرفة القراء الكبار(١/ ٤٤٨) غاية النهاية (١/ ٨٦) مقدمة كتاب المستنير في القراءات العشر للدكتور (١/ ٢٣-٤٨)
انظر المستنير في القراءات العشر (٢/ ٢٢٦-٢٢٧)

(٨) محمد بن الحسين بن بندار القلانسي أبو العز الواسطي .
=

والهمداني [1] وغيرهم/ [أ(١١/ ب)] .

وذهب آخرون إلى إجراء الخلاف عنه في ذلك كما هو مذهبه في سائر هذا الضرب منهم أبو محمد سبط الخياط [2]، والهذَلي [3]، والصفراوي [4]

= ولد سنة (٤٣٥هـ)، شيخ العراق، ومقرئ القراء بواسط، صاحب التصانيف المفيدة، ومنها "إرشاد المبتدي" . توفي في شوال سنة (٥٢١هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٩٦) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٧٣) غاية النهاية (٢/ ١٢٨) مقدمة تحقيق كتاب إرشاد المبتدي للدكتور عمر الكبيسي (ص ٥٥-٦٥)

انظر إرشاد المبتدئ (ص ٣٨٩) .

(١) كذا في "النشر" . وفي (أ) كأنها كتبت : الهمدان . وليست في (ب) كما سيأتي .

المنتجب بن أبي العز بن رشيد منتجب الدين أبو يوسف الهَمَذاني .

إمام كامل علامة، قال الذهبي : كان رأساً في القراءات والعربية صالحاً متواضعاً صوفياً . له شرح للشاطبية سماه "الدرة الفريدة" . توفي في ربيع الأول سنة (٦٤٣هـ) .

معرفة القراء الكبار (٢/ ٦٣٧) غاية النهاية (٢/ ٣١٠) الأعلام (٧/ ٢٩٠)

(٢) عبدالله بن علي بن أحمد سبط أبي منصور الخياط أبو محمد البغدادي المقرئ النحوي .

ولد سنة (٤٦٤هـ) . قرأ على القلانسي وابن سَوَّار، له كتاب "المبهج" و"الروضة" . توفي سنة (٥٤١هـ) .

نزهة الألباء (ص ٢٩٨) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٩٤) غاية النهاية (١/ ٤٣٤) انظر مقدمة كتاب المبهج للدكتوره وفاء عبدالله (ص ١٦٣-٢٠٦)

انظر المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي (ص٥٦٦)

(٣) يوسف بن علي بن جبارة أبو القاسم الهُذَلي .

ولد سنة (٣٩٠هـ) . قرأ على الكارزيني وغيره . له كتاب "الكامل في القراءات الخمسين" . توفي سنة (٤٦٥هـ).

الصلة لابن بشكوال (٣/ ٩٧٥) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٢٩) غاية النهاية (٢/ ٣٩٧)

(٤) عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل أبو القاسم الصفراوي الإسكندري .

الأستاذ المقرئ المكثر .ولد سنة (٥٤٤هـ) . كان إماما كبيراً ؛ مفتياً على مذهب مالك . ومن =

وغيرهم، وهو الظاهر قياسا ؛ ذكره في "النشر" [(١)]، وذكر الوجهين في "الطَيِّبة" [(٢)] انتهى [(٣)] .

وأما من طريق (الدُّرَّة) فأبو جعفر يخبر في الأول من أحد الاستفهامين، ويستفهم في الثاني في جميع المواضع، وخالف في سورة والصافات فاستفهم في الأول وأخبر في الثاني، وأما [ب (٣٧/ ب)] الموضع الثاني منها فهو فيه على قاعدته، وكذلك خالف في سورة الواقعة فاستفهم في الأول وأخبر في الثاني[(٤)].

وأما يعقوب فإنه يستفهم في الأول ويخبر[(٥)] في الثاني كنافع، وعكس أبي جعفر، وخالف في العنكبوت ؛ فأخبر في الأول واستفهم في الثاني، ووافق أصله في النمل فاستفهم فيهما [(٦)].

وأما خلف فهو على أصله يقرأ بالاستفهام في جميع ما تقدم ذكره . انتهى[(٧)].

وأما قوله تعالى ﴿هَاأَنتُمْ ﴾/ [أ(١٢/ أ)] فقد وقع منها موضعان بآل عمران،

= مؤلفاته "الإعلان"، و"التقريب والبيان في معرفة شواذ القرآن" . توفي سنة (٦٣٦هـ).
معرفة القراء الكبار (٢/ ٦٢٥) غاية النهاية (١/ ٣٧٣) معجم المؤلفين (٢/ ٩٧)

(١) النشر (١/ ٣٧٢-٣٧٤)

(٢) (إلا أن أكثر الطرق ... الطيبة) ليست في (ب) .

(٣) الهادي شرح طَيِّبة النشر في القراءات العشر (ص ١٩٦-١٩٩)

(٤) في (أ) : الثانية .

(٥) في (ب) : وأخبر . وعدلت إلى : ويخبر .

(٦) (ووافق أصله في النمل فاستفهم فيهما) ليست في (ب) .

(٧) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٢٨)

وهما قوله تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ ﴾ (١)، ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ (٢)، وموضع بالنساء، وهو قوله تعالى ﴿هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ ﴾(٣)، وموضع بالقتال وهو قول تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٤)، والحكم فيها أنك تسهل همزة (أنتم) لنافع وأبي عمرو، وأدخل لقالون وأبي عمرو ألفا بين الهاء والهمزة، وورش قرأ بعدم (٥) الإدخال .

وله وجهٌ ثان، وهو إبدال الهمزة ألفاً، والمد عليها بقدر ثلاث ألفات، وحكى السخاوي أَلِفَيْن، ويسمى المد : مدا كلميّاً مخففاً (٦). والقولان جاريان أيضا في كل مثقل، وقد قُرِئ بهما؛ إلا أن أكثر أهل الأداء على المد بقدر ثلاث ألفات، وبه قرأنا على شيخنا، وأخبر أنه قرأ به على أشياخه (٧) كذلك، وما ذُكِرَ عن قالون وأبي عمرو من إدخال الألف بين الهاء والهمزة جار على أن الهاء مبدلة من همزة الاستفهام / [أ(١٢/ ب)] كقولهم (٨) : (أَرَقْتُ الماء

(١) آية رقم ٦٦ .

(٢) آية رقم ١١٩ . وكتب في (أ) زيادة : ولا تحبونهم .

(٣) آية رقم ١٠٩ .

(٤) آية رقم ٣٨.

(٥) في (أ) : بعد .

(٦) المد الكلمي المخفف : أن يقع بعد حرف المد ساكنٌ سكوناً لازماً للزوم سببه في الحالين وصلا ووقفا . فإن كان ما بعده في الكلمة غير مشدد سمي المد اللازم الكلمي المخفف .
النشر (١/ ٣١٤) مختصر العبارات (ص ١١٥)

(٧) في (ب) : شيخه . وضرب عليها وكتب بعدها : أشياخه .

(٨) في (أ) زيادة : في .

هَرَقتُهُ).

وحكي عنهما وجه ثان أن الهاء للتنبيه فيه القصر والمد ؛ فيدخل القصر في وجه الإدخال المتقدم ؛ فيكون من وجهين، ويكون المد على قاعدة من يمد[1] قدر ألف ونصف وألفين.

وابن كثير والباقون يقرؤون بتحقيق الهمزة إلا أن قُنْبُلا [2] يقرأ (هأنتم) من غير إدخال على وزن (فَعَلْتُم)، والباقون يقرؤون بالإدخال على وزن (فاعَلْتُم) .

وما ثبت من كون الهاء مبدلة من همزة الاستفهام ؛ أو أنها [ب(٣٨/ أ)] للتنبيه ثابت للكوفيين وابن عامر؛ إلا أن كونها مبدلة [3] من همزة الاستفهام أكثر في الأداء عنهم، وكل من الكوفيين وابن عامر شيخا كان أو راويا إذا جعلت هاء [4] للتنبيه يمد على قاعدته .

أما ورش وقُنْبُل فنقل عنهما إبدالها من همزة الاستفهام .

---

(١) في (أ) : مد .

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن سعيد المخزومي مولاهم .

ولد سنة (١٩٥هـ) . ولقب بقُنْبُل ؛لأنه كان من قوم يقال لهم القنابلة، وكان إمامًا في القراءة، متقناً، ضابطاً . انتهت إليه رئاسة الإقراء بالحجاز، ورحل إليه الناس من الأقطار . توفي سنة (٢٩١هـ).

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٣٠) غاية النهاية (٢/ ١٦٥) إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢١)

(٣) (مبدلة) ليست في (ب) .

(٤) في (ب) : جعلتها .

وأما البَزِّي[(١)] فيقرأ بالقصر على قاعدته سواء قيل : إنها مبدلة من همزة /[أ(١٣/أ)] الاستفهام أو أنها للتنبيه، ومن روى عنه [(٢)] التسهيل ؛ فهو بين الهمزة والألف ؛ لكون الهمزة مفتوحا . والله أعلم .

وأما من طريق (الدُّرَّة) فأبو جعفر على أصله مثل قالون، وخالف يعقوب أصله فقرأ بالتحقيق، وكذلك خلف على أصله في التحقيق . انتهى [(٣)].

وتقدم أنا قلنا : إن ورشا يقرأ بعدم الإدخال، وله وجه ثان ؛ وهو إبدال الهمزة ألفا، والمد عليها بقدر ثلاث ألفات هو مذهب (الشاطبية) و(الدُّرَّة).

وأما من طريق (طَيِّبة النشر) ؛ فروى عنه بعض أهل الأداء إثبات الألف كقراءة أبي عمرو وأبي جعفر وقالون؛ إلا أنه يمد مشبعا على أصله، وهو الذي في "التبصرة" [(٤)]، و"الكافي"[(٥)]، و"العنوان" [(٦)]، و"التجريد"[(٧)]،

---

(١) أحمد بن محمد بن عبدالله القاسم بن أبي بَزَّة البَزِّي أبو الحسن المكي .

ولد سنة (١٧٠هـ) . انتهت إليه رئاسة الإقراء بمكة، أستاذ محقق، وضابط متقن . توفي سنة (٢٥٠هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٠) معرفة القراء الكبار (١/ ١٧٣) غاية النهاية (١/ ١١٩)

(٢) في (ب) : ومن روى فيها .

(٣) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٣٦-١٣٧)

(٤) التبصرة في القراءات السبع (ص ٤٦٠)

(٥) الكافي في القراءات السبع (ص ٣٣٦)

(٦) العنوان في القراءات السبع (ص ٧٩)

(٧) التجريد لبغية المريد (ص ٢٠٣)

و"التلخيص" [١]، و"التذكرة" [٢]، وعليه جمهور المصريين والمغاربة، انتهى من "النشر" [٣].

فيصير له من طريق (الطَيِّبة) ثلاثة أوجه : القصر، والإدخال، والبدل، وهذه الثلاثة للأزرق . وأما الأصبهاني [٤] / [أ(١٣/ب)] فله وجهان : القصر والإدخال فقط [٥].

وأما قُنْبُل فزيد له من هذه الطريقة أيضا [٦] الإثبات؛ فيصير له من طريق ابن شَنَبُوذ [٧] الإثبات، ومن طريق ابن مجاهد [٨] القصر، والله أعلم .

---

(١) تلخيص العبارات (ص٢٦،٧٦)

(٢) التذكرة في القراءات الثمان (٢/ ٢٨٩)

(٣) (١/ ٤٠٠) . و(كقراءة أبي عمرو ... النشر) ليست في (ب) .

(٤) محمد بن عبدالرحيم بن شبيب بن يزيد الأسدي أبو بكر الأصبهاني .

كان إماماً في رواية ورش، ضابطا لها مع الثقة والعدالة، رحل فيها، وقرأ على جماعة من أصحاب ورش وأصحاب أصحابه . توفي (٢٩٦هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٣٢) غاية النهاية (٢/ ١٦٩) القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق لعلي بن محمد الضباع (ص ٥-٦)

(٥) القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق (ص ١٨-١٩)

(٦) (أيضا) ليست في (ب) .

(٧) محمد بن أيوب بن الصلت بن شَنَبُوذ أبو الحسن البغدادي .

سمع من ابن واصل، قرأ عليه أبو بكر بن مقسم، وأبو بكر الشذائي . توفي سنة (٣٢٨هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٦٤) معرفة القراء الكبار(١/ ٢٧٦) غاية النهاية(٢/ ٥٦)

(٨) أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي أبو بكر البغدادي .

ولد سنة (٢٤٥هـ) ببغداد، قرأ على قُنْبُل وغيره، وهو أول من سبع السبعة ؛ فصنف كتاب "السبعة" . وقرأ عليه أبو بكر الشذائي وغيره . توفي سنة (٣٢٤هـ) .

=

فإذا أردت الجمع لهذه الآية ؛ فإنك تبتدئ لقالون بالقصر في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ بالتسهيل وإثباته قدر ألف مداً طبيعياً [1]، وبعدم الصلة، وبالقصر في المنفصل من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، ويندرج معه أبو [2] عمرو . ثم بالمد في المنفصل من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ . ثم بالصلة أيضا على قصر ﴿هَٰٓأَنتُمۡ ﴾، ثم تأتي عليها بالقصر والمد في ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، ويندرج معه في الصلة أبو جعفر إن كنت تقرأ من طريق (الدُّرَّة). ثم تأتي بالمد في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ مع عدم الصلة والمد [3] أيضا في المنفصل من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ . ويندرج معه أبو عمرو . ثم تأتي بالصلة ؛ فيتم لقالون ستة أوجه .

ثم تأتي بورش بالقصر في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ بالتسهيل من غير إدخال . ثم بمد البدل . ثم تأتي بالبزِّي/ [أ(١٤/أ)] بالصلة مع التحقيق والإدخال . ثم بقُنْبُل أيضا بالتحقيق وبعدم الإدخال . ثم تأتي بابن عامر بالقصر في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ ؛ إلا أنه يثبته قدر ألف مدا طبيعيا كما تقدم لقالون وأبي عمرو بالتحقيق أيضا . ثم بعاصم . ثم بحمزة [4] على قصر ابن عامر . وتعطف على ابن عامر

= تاريخ بغداد (٥/ ٤٤) معرفة القراء الكبار (١/ ٢٦٩) غاية النهاية (١/ ١٣٩)

(١) في (أ) : طبيعاً .

(٢) في (أ) : أبوا .

(٣) في (ب) : وبالمد .

(٤) حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات أبو عمارة الكوفي التيمي .

ولد سنة (٨٠هـ) . وأدرك الصحابة في السن ؛ فيحتمل أن يكون رأى بعضهم . قرأ القرآن على جماعة منهم الأعمش وحمران بن أعين وغيرهما، وقرأ عليه جمع منهم الكسائي وسليم بن عيسى =

يعقوب إن كنت تقرأ من طريق الدرة . ثم تأتي بالمد لابن عامر على قاعدته . ثم لعاصم . ثم لحمزة ؛ فهذه طريق السبع .

وأما جمعها من طريق (طَيِّبة [١] النشر) [٢] ؛ فإنك لما تأتي بالأوجه المتقدمة لقالون وأبي عمرو -يندرج معهما الأصبهاني في وجه الإدخال [٣]- تأتي للأصبهاني بالقصر والتسهيل في ﴿هَآأَنتُمْ﴾، وبالقصر في المنفصل من [٤] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ثم بمده . ثم بالمد للأزرق . ثم بوجه الإدخال للأصبهاني ثم بالقصر والمد في المنفصل[٥] . ثم بالمد للأزرق [٦]، في ﴿هَآأَنتُمْ﴾ مداً مشبعاً مع التسهيل، ويجوز القصر ؛ لأنه بعد همز مغير بالتسهيل كما ذكره في "النشر" [٧] . ثم تأتي للأزرق بوجه البدل في / [ب(٣٨/ب)] ﴿هَآأَنتُمْ﴾ / [أ(١٤/ب)] ثم بالبَزِّي [٨]، ويندرج معه قُنْبُل في الإدخال من هذه الطريق .

= . توفي سنة (١٥٦هـ) .

سير أعلام النبلاء (٧/ ٩٠) معرفة القراء الكبار (١/ ١١١) غاية النهاية (١/ ٢٦١)

(١) في (ب) : الطيبة . وعدلت إلى : طيبة .

(٢) الهادي في شرح طَيِّبة النشر محمد محيسن (ص٢٣١)

(٣) (يندرج معهما الأصبهاني في وجه الإدخال) ليست في (ب) .

(٤) في (أ) : ثم .

(٥) القول الأصدق (ص ١٩) . و (ثم بوجه الإدخال للأصبهاني ثم بالقصر والمد في المنفصل) ليست في (أ) .

(٦) في (ب) في الموضعين : للأزراق .

(٧) (١/ ٤٠١) . و(في ﴿هآنتم﴾ ... "النشر") ليست في (ب) .

(٨) في (أ) : بالبز .

ثم تأتي [1] بالوجه الثاني لقُنْبُل وهو عدم الإدخال . ثم تأتي بابن عامر كما تقدم ؛ إلا أنك تقدم الحُلْواني [2] بالقصر في المنفصل من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ . ثم بالمد لهشام . ثم بالمد للأخفش [3]، ويندرج معه حمزة . ثم لعاصم . ثم بالسكت لحمزة في المنفصل، وبعدمه في المتصل . ثم بالسكت فيهما معا [4] . ثم بالمد ليعقوب ؛ لأن له المد من هذه الطريق [5] . ثم تأتي بالمد لابن عامر في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ . ثم للأخفش . ثم لعاصم . ثم بالسكت لحمزة في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾، وفي المنفصل من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وبعدمه في المتصل . ثم بالسكت فيهم جميعا . ثم بالمد ليعقوب ؛ فهذا حاصل هذه الآية، والله أعلم .

وأما قوله تعالى: ﴿ سَوۡءَٰت ﴾ [6] على مذهب ورش ؛ فقد تقرر في مذهب

---

(١) (تأتي) ليست في (ب) .

(٢) في (ب) : الداجوني .

أحمد بن يزيد بن أزداذ أبو الحسن الحُلْواني .

قرأ على هشام وقالون . توفي سنة (٢٥٠هـ)

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٢٢) غاية النهاية (١/ ١٤٩)

(٣) هارون بن موسى بن شريك الأخفش التغلبي أبو عبدالله الدمشقي .

شيخ المقرئين بدمشق في زمانه، وكان ثقة مُعَمَّراً .توفي في صفر سنة (٢٩٢هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٤٨) غاية النهاية (٢/ ٣٤٧)

(٤) (فيهما معا) ليست في (ب) .

(٥) في (ب) : الطريق .

(٦) وردت الكلمة في القرآن بالألفاظ الآتية : (سَوۡءَٰتُهُمَا) الأعراف [٢٢] طه [١٢١] . و(سَوۡءَٰتِهِمَا) (الأعراف [٢٠، ٢٧] . و(سَوۡءَٰتِكُمۡ) الأعراف [٢٦]

الشاطبية أن كل واوٍ أو ياءٍ وقعتا بين فتح وهمزة لورش فيهما وجهان : التوسط والمد كـ (سَوْءَ) [١] و(شيء) ومنه هذا اللفظ[٢] .

وقد ذكر الشاطبي رحمه الله [٣] ما يؤخذ منه أن[٤] / [أ(١٥/أ)] في﴿سَوْءَٰت﴾ تسعة أوْجهٍ لورش، وذلك أنه ذكر أن حرْفَ المد إذا تأخر عن[٥] الهمز لورش فيه : القصر والتوسط والمد ؛ أشار إلى ذلك بقوله :

وَمَا بَعْدَ هَمْزٍ ثَابِتٍ أو مُغيرٍ فَقَصْرٌ وقد يُرْوى لوَرْشٍ مُطَوَّلاً

وَوَسَّطَهُ قَوْمٌ .... [٦]

فدخل في عموم ذلك ﴿ سَوْءَٰت ﴾.

وذكر في آخر الباب في واوها خلافا له، والخلاف دائرٌ بين التوسط والمد والقصر الذي لغيره من القراء ؛ فإذا نظرت إلى ذلك حصل على المد في الواو ثلاثةٌ في الهمز، وعلى التوسط والقصر كذلك ؛ فتصير تسعة أوجه مشى على ذلك الجعبري [٧]، وجماعة من شُرَّاح

---

(١) في (أ) : كـ (سواء) .

(٢) فتح الوصيد (٢/ ٢٨٢) .

(٣) في (ب) زيادة : تعالى .

(٤) (أن) كررت في (أ) .

(٥) في (أ) : عنه .

(٦) ... كَآمَنَ هؤلاء آلهةً آتى للإيمانِ مُثِّلا . الوافي شرح الشاطبية (ص ٧٥)

(٧) إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل أبو محمد الجعبري .
ولد سنة (٦٤٠هـ)، شرح الشاطبية والرائية . توفي سنة (٧٣٢هـ) .

=

الشاطبية[1]، والذي حرره[2] الشمس ابن الجزري رحمه الله تعالى أن من مدَّ الهمز المبدل قصر واو ﴿سَوْءَٰت﴾، ومن وسط واوها وسط الهمز المبدل لا غير، ومن قصر واوها قرأ بالأوجه الثلاثة المتقدمة في الهمز المبدل/ [أ(١٥/ ب)]؛ فحصل من ذلك أربعة أوجه، وقد نظمها من البحر الطويل فقال [3]:

وسوءات قصر الواو والهمز ثَلِّثاً [4] ووسّطهما فالكل أربعةٌ فادري

/ [ب (٣٩/ أ)] ونظمها العلامة محمد بن القباقبي رحمه الله تعالى فقال [5]:

والهمزَ ثلِّث مع قصر الواو في سوءات والرابع وسّطهما [6]

وإذا اجتمع معها ما فيه [7] مد بدل كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ

= معرفة القراء الكبار (٢/ ٧٤٣) طبقات الشافعة الكبرى للسبكي (٩/ ٣٩٨) غاية النهاية (١/ ٢١) وانظر كتاب "الجعبري ومنهجه في (كنز المعاني في شرح حرز الأماني) " للأستاذ أحمد اليزيدي (١/ ٢٥-١٦٠)
انظر كنز المعاني (٢/ ٣٥٢)

(١) سراج القارئ لابن القاحص (ص ٦٣) الفريدة البارزية في حل القصيدة الشاطبية لابن البارزي (ص ١٤٨) الوافي شرح الشاطبية (ص ٨٣)

(٢) في (ب): حرر.

(٣) النشر (١/ ٣٤٧)

(٤) في (ب) كتبت هكذا: ثَلِثَن.

(٥) إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز (ص ١٢٥)

(٦) كذا في (ب). وأما في (أ): وسطنهما.

(٧) في (ب): معها مد فيه.

﴿لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾[١] ؛ فإنك تأتي على قصر ﴿ءَادَمَ﴾ بقصر الواو، وعليه القصر في الهمز، وتأتي على توسط ﴿ءَادَمَ﴾ بالتوسط [٢] في الواو والهمز، وبقصر الواو وتوسط الهمز فقط، وتأتي على المد الطويل في ﴿ءَادَمَ﴾ بقصر الواو والمد في الهمزة، فعلى التأمل تجد الأوجه الأربعة ثابتة سواء أفردت أو جمعت مع ما فيه مد بدل والله أعلم.

وأما قوله تعالى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾في موضع الأحزاب [٣]، وموضع المجادلة [٤] وموضع الطلاق[٥]؛ فقرأ قالون وقُنْبُل بتحقيق الهمزة / [أ(١٦/ أ)] وبحذف الياء، وقرأ ورش بالتسهيل والبَزِّي وأبو عمرو بتسهيل الهمزة من طريق العراقيين، وأبدلاها ياءً ساكنة من طريق المغاربة والمصريين، ويجوز لورش وأبي عمرو والبَزِّي حالة التسهيل المد والقصر كما قال الشاطبي:

وإنْ حَرْفُ مَدٍّ قَبْلَ هَمْزٍ مُغَيَّرٍ[٦] يَجُزْ قَصْرُهُ...... إلخ [٧].

وإذا وقفوا يقفون بياء ساكنة ويقف قالون وقُنْبُل بهمزة ساكنة. وأما على

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٦ .

(٢) في (أ): التوسط .

(٣) آية رقم ٤.

(٤) آية رقم ٢.

(٥) آية رقم ٤.

(٦) في (أ) : مغر .

(٧) ... والمدُّ ما زَالَ أَعْدَلا . الوافي في شرح الشاطبية (ص ٩٤)

قراءة ابن عامر [(١)] والكوفيين الآتية ؛ فالوقف [(٢)] لهم كالوصل إلا حمزة ؛ فإنه يسهل الهمزة بين بين مع المد والقصر على قاعدته في الهمز المتوسط . انتهى .

وقرأ ابن عامر والكوفيون بياء ساكنة بعد الهمزة، وأما من طريق (الدُّرَّة) ؛ فأبو جعفر كورش في الوجهين، ويعقوب كقالون وخلف على أصله [(٣)] .

وفي هذا القدر كفاية، ولله الحمد والمنة على هذه النعمة، والمسؤول ممن اطلع على هذه الرسالة إذا نظر عيبا أن يصلحه [أ(١٦/ أ)]، وأن يدرأ بالحسنة السيئة. فقلَّ أن يسلم المرء من هفوة أو زلة خصوصا فهمي القاصر [(٤)] وذهني الفاتر .

وقد قرأتها على شيخنا –حفظه الله تعالى– ؛ فاستحسنها، وأسأل الله العظيم أن ينفعني بعلمه والمسلمين، وأن يجعل قراءتنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يميتنا على حفظ كتابه، وأن يجعلنا من العاملين به [(٥)]، ومن جملة أحبابه، وأعوذ به من علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع، ومن / [ب(٣٩/ ب)] قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وأن يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين، ولمن قرأ في هذه الرسالة،ودعا [(٦)] بالمغفرة، وأن لا ينساني من

(١) (ابن عامر) من (أ)، وألحقت في هامش (ب) .

(٢) في (أ) : قالوقف . وفيها إشارة لحذف إحدى نقطتي القاف .

(٣) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٣٧)

(٤) في (ب) : القصير .

(٥) (به) ليست في (أ) .

(٦) في (ب) : ودعا لي .

صالح دعائه في خلواته وجلواته، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين كلما ذكره [(١)] الذاكرون /[أ(١٧/أ)] وغفل عن ذكره الغافلون .

على يد جامعها عفا الله تعالى عنه؛ تحريرا في يوم الأحد ثامن شهر ربيع الأول من شهور سنة [(٢)] اثنين ومائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

تمت بعون الله وحسن توفيقه[(٣)].

---

(١) في (أ) : ذكرك .

(٢) (سنة) ليست في (أ) .

(٣) (تمت بعون الله وحسن توفيقه) ليست في (ب) .

ورد في نهاية نسخة (أ) ما يأتي : نقلت هذه من خط مؤلفها وقوبلت عليها في تاريخه أدناه .

وفي آخرها ورد أيضا : وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة يوم الثلاثاء المبارك أربعة عشر يوما في جُماد آخر سنة ألف ومائتين وأربعة وستين، على يد كاتبه عبدالرحمن سليم، غفر الله ولوالديه ولمن قرأ فيها وللمسلمين أجمعين

وورد في نهاية نسخة (ب) ما يأتي : انتهى ما في الأصل من خط مؤلفها نفعنا الله به وبعلومه آمين، بحمدالله تعالى، وحسن عونه على يدي كاتبه لنفسه ولمن شاء الله بعده أحمد بن مسعود الكنسوسي الشويشي، كان ... بتاريخ بعد الظهر من يوم الجمعة التاسع من شهر الله جمادى الأولى سنة عشرين ومائة وألف وصلى الله على سيدي محمد وآله وصحبه وسلم تسليما وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين الجامع الأزهر بمصر المحروسة عمرها الله .

فهرس المراجع والمصادر

- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للبنا، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، علم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .
- أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية، عبدالله عبدالرزاق إبراهيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ١٤١٠هـ -١٩٨٩م .
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦هـ .
- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة، شمس الدين القباقي، تحقيق أحمد بكري، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان،الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ -٢٠٣م .
- الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدرة، للزبيدي، تحقيق عبدالرزاق موسى، دار ابن القيم، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م .
- التبصرة في القراءات، مكي بن أبي طالب، تحقيق غوث الندوي، الدار الهندية، بومباي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢هـ .
- التجريد لبغية المريد في القراءات السبع، لابن الفحام، تحقيق ضاري العاصي ، دار عمار، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م .
- التذكرة في القراءات الثمان، لابن غلبون، تحقيق أيمن رشدي سويد،

الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ -١٩٩١م .

- تلخيص العبارات للطيف الإشارات في القراءات السبع، لابن بَلِّيَمة ، تحقيق سبيع حاكمي، دار القبلة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م .
- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تحقيق حاتم الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .
- الحلقات المضيئات من سلسلة أسانيد القراءات، للسيد بن أحمد بن عبدالرحيم، طبع على نفقة الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن ببيشة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت ، لبنان .
- ديوان المثقب العبدي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مصر، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .
- شرح الهداية، لأبي العباس المهدوي، تحقيق حازم حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ .
- الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، لعامر النجار، دار

المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة السادسة .

- العنوان في القراءات السبع، لأبي طاهر إسماعيل بن خلف، تحقيق زهير اهد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري، عني نبشره بيرجشتراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢،
- غنية الطالبين ومنية الراغبين، لشمس الدين البقري، تحقيق محمد معاذ مصطفى، دار الأعلام، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢ م.
- فتح الوصيد في شرح القصيد، للسخاوي، تحقيق مولاي الأدريسي، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م .
- فضائح الصوفية، لعبدالرحمن عبدالخالق، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦هـ .
- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن .
- فهرس المكتبة الأزهرية، فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى عام ١٩٥٢م. مطبعة الأزهر، ١٣٧١هـ-١٩٥٢ م.
- فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، أحمد الرقيحي،

وعبدالله الحبشي، وزارة الأوقاف والإرشاد، صنعاء، اليمن، ١٤٠٤هت-١٩٨٤م .

- القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق، علي الضباع، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م .
- الكافي في القراءات السبع، لابن شريح الرعيني، تحقيق سالم الزهراني، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ.
- المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي، لأبي محمد سبط بن الخياط، تحقيق وفاء عبدالله قرماز، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، إبراهيم الدوسري، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- المستنير في القراءات العشر، لابن سوار، تحقيق عامر الددو، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م .
- معرفة القراء الكبار، للذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .
- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ. .

- منهج ابن الجزري في كتابه النشر مع تحقيق قسم الأصول، سالم محمد الشنقيطي، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري،تصحيح علي الضباع، دار الكتاب العربي.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تحقيق محمد محفوظ الشنقيطي، من أول باب افرش الحروف إلى آخر الكتاب كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٥هـ .
- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها، محمد سالن محيسن، دار الجيل، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان .
- الوافي شرح الشاطبية، لعبدالفتاح القاضي، مكتبة السوادي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م .
- الوجيز في شرح قراءات القرآن الثمانية، لأبي علي الأهوازي، تحقيق دريد حسن أحمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م .

القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم

إعداد

د. ناصر بن محمد بن عبد الله الماجد

د. ناصر بن محمد بن عبدالله الماجد

- أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته: (عادات أهل الجاهلية – دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (أحكام القرآن للقاضي بكر بن العلاء القشيري، من أول سورة الأنفال إلى آخر القرآن – دراسة وتحقيق).

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء :١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]،،، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل، ودستور الإسلام الجامع، وآية الرسول العظمى، ومعجزته الكبرى، أحيا الله به قلوباً غلفاً، وبَصَّرَ بهداياته أعيناً عُمياً، وفتح بآياته آذاناً صمّاً، جمع الله به هذه الأمة من شتات فُرْقَتها، وَوَحَّد مِزَق صفها، وألف في محرابه أرواحها، وطهَّر قلوبها، وزكى نفوسها، وأقامها على سنن الفطرة، فكانت خير أمة أخرجت للناس.

وفي هذا القرآن الكريم قص الله تعالى قبساً من سير الأنبياء والصالحين، وعِبَراً من ذكر الأولين، نماذج يُقتدوى بها، وأسوة يُعتبر بها.

والمجتمعات البشرية اليوم بأمسّ الحاجة إلى وجود قدوة حسنة، تهديها طريق النجاة، في ظل الانحراف الذي نراه في اتخاذ القدوات، ولا أهدى سبيلاً، ولا أسد طريقاً من الرجوع إلى السراج المنير، إلى كتاب الله الكريم، لتَرسُّمِ معالم القدوة الحسنة فيه، وتبين منهج القرآن الكريم في

عرض مجالاتها، وذكر نماذجها، ومعرفة الصفات التي أهلت أهلها ليكونوا أسوة للناس يقتدون بهم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر؛ فإن وجود القدوة الحسنة من أنجح الوسائل المؤثرة في إعداد الفرد وتكوينه نفسياً، واجتماعياً، وأخلاقياً، وهي عامل كبير في صلاح المرء واستقامته.

إنه ليس من العَسِرِ أن يضع المربون منهجاً ما، ولكن من الصعب أن يتحقق ذلك المنهج واقعاً معاشاً؛ إذا لم يكن هناك أفراد يطبقونه ويعملون به، بحيث يراه الناس ماثلاً أمامهم، ويحسون به واقعاً مشاهداً يقتدون به.

ولهذا فقد استعنت الله تعالى في دراسة القدوة الحسنة، سعياً للإبانة عن منهج القرآن الكريم في عرضها، مترسماً فيه معالمها، واقفاً على صفات أهلها، محدداً مجالاتها، ضارباً نماذج لها، وأسميت هذه الدراسة:

القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم.

وجعلتها مكونة من ثلاثة مباحث، قدمت لها بمقدمة، وأنهيتها بخاتمة ضمنتها أهم نتائج البحث، على النحو التالي:

المقدمة: أشرت فيها إلى أهمية البحث، والخطة التي أتبعها فيه.

المبحث الأول: حقيقة القدوة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

المطلب الثاني: أهمية القدوة، ومجالاتها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: أهمية القدوة.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة، وآثارها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة.

الفقرة الثانية: آثار القدوة.

المبحث الثاني: أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدِي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة الحسنة.

المبحث الثالث: مجالات القدوة الحسنة ونماذجها، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

المطلب الثالث: المجال السياسي

المطلب الرابع: المجال العسكري.

المطلب الخامس: مجال الصبر

المطلب السادس: مجالات متنوعة

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وتوصياته.

وبعد: فأسأل الله تعالى أن يعصمنا من زلل الرأي، وخَطَل القول، وأن يجعل عملنا خالصاً له ـ عز وجل ـ وأن يحفظنا من الشيطان وشركه.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: حقيقة القدوة.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها.

المطلب الثاني: أهمية القدوة الحسنة، ومجالاتها.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة، وآثارها.

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها .

وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

- **تعريف القدوة.**

القدوة: أصل بنائها القَدْوُ، ويتشعب منه تصريف الاقتداء، يقال: قِدوة وقُدوة ـ بضم القاف وكسرها ـ لما يقتدى به[1]، قال الأزهري نقلاً عن الكسائي: "يقال: لي بك قُدْوة، وقِدْوَة، وقِدَة، ومثله حَظِيَ فلانٌ حِظْوَة، وحُظْوة، وحِظَةً"[2].

قال ابن فارس: "القاف والدال والحرف المعتل؛ أصل صحيح، يدل على اقتياس بالشيء واهتداء"[3].

ويدور معنى القدوة فيما ذكره أئمة اللغة على: معنى التأسي، والمتابعة، والتسنن، قال ابن سيدة: "القِدوة والقُدوة ما تسننت به"[4].

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: قدا، وتاج العروس مادة: قدو، والمحكم، والقاموس مادة: القدوة.

(٢) تهذيب اللغة، مادة: قدا.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة:قدو.

(٤) المحكم، مادة: القدوة.

ينظر أيضا: تهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: قدا، وتاج العروس مادة: قدو، والقاموس مادة: القدوة.

ولهذا يقال ـ كما ذكر ابن الأعرابي ـ للمتقدم في الخِلال كلها المُبَرِّز فيها: "فلان لا يُقاديه أحدٌ، ولا يُماديه أحدٌ، ولا يُباريه أحدٌ، ولا يُجاريه أحدٌ، وذلك إذا بَرَّز في الخلال كلها"[١].

هذا مدار كلمة القدوة عند أهل اللغة، وأما أئمة التفسير؛ فقد تقاربت المعاني التي ذكروها في حقيقة المراد بالقدوة:

قال الطبري: "معنى الاقتداء ـ في كلام العرب ـ بالرجل: اتباع أثره، والأخذ بهديه، يقال: فلان يقدو فلاناً؛ إذا نحا نحوه واتبع أثره"[٢].

وقال ابن عطية: "معنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة"[٣].

ونلحظ في هذا التعريف لفت النظر إلى أن الاقتداء يتناول الفعل والقول والسلوك بعامة، وهذا ما عبَّر عنه ابن عطية في قوله: والسيرة.

وقال الواحدي: "معنى الاقتداء في اللغة: طلب موافقة الثاني للأول في فعله الثاني بمثل فعل الأول لأجل أنه فعله"[٤].

وفي هذا التعريف إشارة إلى أن سلوك الاقتداء مبني في أصله على القصد، فهو ـ كما يقول الواحدي ـ طلب يتضمن قصد موافقة المُقتدَى به.

وقال الشنقيطي: "الأسوة كالقدوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي

---

(١) لسان العرب، مادة: قدا.

(٢) تفسير الطبري(٥/ ٢٦٢).

(٣) المحرر الوجيز(٣/ ٤١٢).

(٤) التفسير البسيط(٨/ ٢٦٨).

يكون عليها حسنة أو قبيحة"[1].

وهذا التعريف فيه النص على أن سلوك القدوة يقع في الخير والشر، والحسن والقبيح.

- **أركان القدوة.**

هذه المعاني التي قررها أهل العلم من المفسرين واللغويين لمعنى القدوة والاقتداء؛ وإن تنوعت في عباراتها، فهي تدل على أن لسلوك الاقتداء أركاناً لابد من تحققها، حتى يصدق على الفعل أنه اقتداء، وعلى الفاعل أنه مقتدي، وهي ثلاثة أركان:

الأول: المُقتدَى به، وهو: من يُتابعه غيرُه في سلوكه، ويتميز هذا المقتدَى به ـ عادة ـ بالتقدم والتميز في شخصيته وسلوكه، مما جعله قدوة لغيره، يتأثر الناس بسلوكه، ويتابعونه في أخلاقه وأفعاله، وهذا المعنى قد أشار إليه ابن الأعرابي إذ قال: "فلان لا يُقاديه أحدٌ، ولا يُماديه أحدٌ، ولا يُباريه أحدٌ، ولا يُجاريه أحدٌ، وذلك إذا برز في الخلال كلها"[2].

وكما يكون هذا المقتدَى به فرداً بعينه، فقد يكون جماعة، كما في قوله تعالى حكاية عن قول المترفين من الأمم المكذبة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

على أن هذا المقتدَى به وإن يكن في الأصل أعياناً مشاهدة، يقتدى

(١) أضواء البيان(٨/ ٩٣).

(٢) لسان العرب مادة: قدا.

بها ويتابعها الناس على سلوكها؛ فربما يتوسع الأمر حتى يصير السلوك بذاته، ومجموع العادات؛ قدوة للناس، بغض النظر عن أعيان أصحابها، وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] إيماء لهذا المعنى، حيث جعل تعالى محل الاقتداء مجموع الهُدى الذي كان عليه الأنبياء، قال البغوي: " ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء"[١].

الثاني: المُقْتدِي، وهو: من يتابع غيره في سلوكه.

الثالث: السلوك الذي يقع فيه الاقتداء، وهذا السلوك ـ فعلاً كان أو قولاً ـ عام يقع في الخير والشر.

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ بسط الحديث عن هذه الأركان الثلاثة للقدوة، وضرب الأمثلة لها، عند الكلام عن أسلوب القرآن الكريم في ذكر القدوة الحسنة[٢].

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

هناك نظائر لكلمة القدوة وردت في القرآن الكريم، يدور معناها حول معنى القدوة، وهي:

١- الأسوة:

الإسوة: القدوة، ويقال ائْتَس به أي اقتد به وكن مثله، وفلان يأتسي

(١) معالم التنزيل (٢/ ٤٢).

(٢) في المبحث الثاني عند ذكر أسلوب القرآن الكريم في ذكر القدوة الحسنة.

بفلان أي يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به، والقوم أسوة في هذا الأمر أي حالهم فيه واحدة، وتأسى به: اتبع فعله واقتدى به[1].

قال الراغب الأصفهاني: " الأُسوة والإسوة كالقُدوة والقِدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فوصفها بالحسنة "[2].

٢- الإمام:

تدور كلمة الإمام في اللغة على معنى من يؤتم به ويتابع، من رئيس أو غيره، والجمعُ أَيمّةٌ، أصله من الأمِّ، وهو القصد، تقول: أَمَّهُ يؤُمُّهُ أمّاً، وأْتَمَّهُ وتأمَّمَهُ.

ويقال للرجل الجامع للخير أُمةٌ، وكل من كان على دين الحق مخالفًا لسائر الأديان فهو أُمة وحده[3].

قال الراغب الأصفهاني: " الإمام المؤتم به، إنساناً كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتاباً، أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً "[4].

---

(١) ينظر: تاج العروس ومختار الصحاح، مادة: أسو، والمحكم ولسان العرب، مادة: أسا.

(٢) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: أسا.

وسيأتي في المطلب الأول من المبحث الثاني؛ تعليق على مسألة استعمال لفظ الأسوة في القدوة السيئة.

(٣) ينظر: المحكم وتاج العروس، مادة: أمم، والقاموس المحيط، مادة: أمه، إصلاح الوجوه والنظائر مادة: أمة.

(٤) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: أم.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الإمام يُرَادُ به من يَتَّبِعه غيره ويُقتَدَى به، سواء في الخير أو الشر، ففي الخير يقول تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] وفي الشر يقول تعالى في وصف قوم فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١].

٣- الإتباع:

تبع الشيء تَبَعاً وتباعاً في الأفعال، وتبعتُ الشيء تُبوعاً سرت في إثره، وتقول: تَبِعتُ القوم تَبَعا وتَبَاعَةً بالفتح، إذا مشيت خلفهم، والتابع المثالي، وتابع بين الأمور واتر ووالى[1].

قال الراغب الأصفهاني: " يقال: تَبِعَه واتَّبَعَه قَفَا أثره، وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك قوله: ...﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ... ويقال أَتْبَعَه إذا لحقه قال: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾.."[2].

وهذا الإتباع يكون في جانب الخير كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] كما يكون - أيضاً - في جانب الشر، يقول تعالى مخبراً عن تبرؤ الأتباع والمتبوعين: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] .

٤- المثل:

يأتي المثل في القرآن الكريم مراداً به - كما يقول الراغب الأصفهاني:

---

(١) ينظر: المحكم وتاج العروس واللسان والقاموس المحيط، وإصلاح الوجوه والنظائر، مادة: تبع.

(٢) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: تبع.

" مقابلة شيء بشيء هو نظيره، أو وضع شي ما ليحتذى به فيما يفعل"[1] .

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المثل مرادًا به الحالة التي تُحتَذَى كقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١] قال القرطبي: "ضرب ... مثلاً بامرأة فرعون، ومريم بنت عمران، ترغيباً في التمسك بالطاعة، والثبات على الدين، وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون، حين صبرت على أذى فرعون"[2].

فهذه الألفاظ الأربعة: الأسوة، والإمام، والإتباع، والمثل، هي نظائر لكلمة القدوة تقاربها في المعنى والدلالة، وتأتي في جانب الخير وجانب الشر.

وهناك ألفاظ أخرى لها دلالة قريبة من معنى القدوة، مثل:

١. التقلّيد.

٢. المحاكاة.

غير أنها لمّا لم ترد في القرآن الكريم؛ أعرضت عنها، على اعتبار أن هذه الدراسة دراسة قرآنية.

---

(١) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: مثل.

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٢١/ ١٠٤).

المطلب الثاني: أهمية القدوة الحسنة، ومجالاتها.

في هذا المطلب فقرتان:

الفقرة الأول: أهمية القدوة الحسنة.

الفقرة الثاني: مجالات القدوة الحسنة.

الفقرة الأولى: أهمية القدوة الحسنة.

إن من أنجح الوسائل في إعداد الفرد وتكوينه نفسياً، واجتماعياً، وأخلاقياً؛ وجود القدوة الحسنة، فهي عامل كبير في صلاح الإنسان وفساده، بل وصلاح المجتمع من ورائه، فما المجتمع إلا أُنَاسٌ جمعهم زمان ومكان واحد.

إن من السهل على المربين أن يضعوا منهجاً من المناهج الإصلاحية، لكن من الصعب أن يتحقق ذلك المنهج أو تلك الفكرة واقعاً مشاهداً، إذا لم يكن هناك أفراد يطبقونه، ويعملون به، بحيث يراه الناس ماثلاً أمامهم، ويحسونه واقعاً مشاهداً، يتأثرون به ويكون دافعاً لهم على الاقتداء والتأسي، أما بقاء المنهج في عالم الأوراق، وبين الأسطر، وعلى الأرفف، فإنه وإن طال به الزمن؛ فإن أحداً لن يلتفت إليه أو يتأثر به.

ولذا كان من بالغ حكمة الله تعالى ـ وهو الحكيم العليم ـ أن أنزل الشرائع والتكاليف، وجعل لها حملة يعملون بها، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم تَنْزِل شريعة من غير رسول يبلغها للناس، يقتدون به

ويستنون بسنته.

ولما تعجب كفار قريش من كون الرسول بشراً من جنسهم غير مختلف عنهم، جاء الجواب كاشفاً عن جهلهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] وقال عن قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود:٢٧] وعن قوم صالح: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:٢٤] وهذا التعجب منهم والإنكار؛ جهل بحقيقة الرسالة ومقصودها، ذلك أن الله لو أرسل ملكاً؛ فهل يعقل أن يتلقوا عنه ! أو يأنسوا إليه! إن قِوَام الإنسان لا يطيق مجرد المشاهدة، فضلاً عن التلقي عنه أو الأنس به، بل إن الأنبياء الكرام كانت الملائكة تأتيهم - في غالب الأحوال - في صورة بشر عاديين "وحيث كان شأنهم كذلك، وهم المؤيدون بالقوى... فما ظنك بمن عداهم من آحاد الناس"[1].

أضف لذلك أنه لو كان الرسول مَلَكاً؛ لكان للقوم شبهة في عدم اتباع الرسول، متعللين بأنه لا قدرة لهم على أن يفعلوا فعله، أو يقتدوا بهديه.

---

(١) إرشاد العقل السليم(٣/ ١١٢).

وقد أخرج البخاري[١ كتاب بدء الوحي، الباب الثاني] واللفظ له، ومسلم[٤/ ١٨١٦ كتاب الفضائل] أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس – وهو أشده عليَّ – فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعي ما يقول).

ولما سُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق النبي ﷺقالت: (إن خلق نبي الله ﷺكان القرآن)[١] إنها إجابة دقيقة مختصرة شاملة، ضمت في معانيها منهج القرآن الشامل ومبادئه السامية، حقاً إن النبي ﷺكان الترجمان الحيّ لمبادئ القرآن، والصورة الناطقة لتوجيهاته.

ولما تأثر الصحابة وسلف هذه الأمة بهذه القدوة الحسنة، المتمثلة في شخص الرسول ﷺ، فأُشربتها قلوبهم، وامتلأت بها أرواحهم؛ انتشر الإسلام في كثير من الممالك النائية، والبلاد الواسعة، في شرق الدنيا وغربها، من غير قتال ولا إكراه، بل كان مجرد السلوك العملي لما يعتقدونه؛ كافياً لتأثر الناس بهم وبمعتقدهم.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن وجود القدوة؛ مما يعين على الصبر، وتحمل المشاق والصعاب التي تَعْرِض للمرء، مهما تكن، ولهذا فقد كان من مقاصد ذكر قصص الأنبياء السابقين، وسياق ما جرى لهم؛ تثبيت فؤاد النبي ﷺ وأصحابه من ورائه، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] قال السعدي:" لما ذَكَر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذَكَر؛ ذَكَر الحكمة في ذِكْر ذلك فقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ أي قلبك ليطمئن ويثبت، وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به"[٢] ويقول تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه[١/ ٥١٣ كتاب المسافرين] من حديث سعد بن هشام بن عامر.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص:٤٤١.

ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مُثَبِّتَه على المضي لما قلَّده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوة ﷺ، وآمِرَه بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك؛ بأولي العزم من قبله من رسله، الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد (فَٱصۡبِرۡ) يا محمد على ما أصابك في الله، من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار (كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ) على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته، من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدة "[1].

وهذا المنهج التربوي القرآني أخذ الرسول صحابته به، فقد روى خباب بن الأرت قال: ((**شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ! ألا تدعو الله لنا ! قال: كان الرجل فيمن قبلكم، يحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، وَيُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، لكنكم تستعجلون**)) [2].

إن المجتمعات البشرية اليوم كأشد ما تكون حاجة إلى قدوة حسنة، تهديها سبيل الرشاد، وتأخذها إلى شاطئ الأمان، في ظل تلك النماذج

---

(١) جامع البيان(١١/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري[٧٤٠ كتاب المناقب، باب علامات النبوة].

الضالة، التي انخدع بها كثير من الناس، ولاسيما الشباب، فتقاذفتهم الأمواج ذات اليمين، وذات الشمال، تارة يشرقون، وأخرى يغربون، يأخذون من كل ثقافة قشورها، يتطلعون إلى نماذج بشرية خاوية من معاني البر والهدى، ليس فيها إلا أنها وليدة الإعلام وآلته، من رحمه خرجت، وتحت عينه صنعت.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة الحسنة.

القدوة بهذه الرؤية ـ التي أشرنا إليها في المطلب السابق ـ فيها معنى الشمول والإحاطة لمجالات الحياة كلها، وميادينها جميعاً، ذلك أن حقيقة سلوك الاقتداء قائم على معنى المتابعة والتأثر بالمقتدَى به، في سلوكه وأفعاله، والإنسان له في كل حالة سلوكٌ وأفعالٌ ربما كانت محلاً لتأثرِ الناس واقتدائهم بها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القدوة تطبيق عملي لسلوك واتجاهات معينة، والمجتمع له في كل مجال من مجالات الحياة قيمة وتصور ما، وكم هي المجالات واسعةٌ رحبةٌ لسلوك القدوة؛ في مجال العلم والعبادة، والأخلاق والسلوك، والتعامل والمعاملات مع الناس، وحتى العادات الاجتماعية إنما تتناقلها المجتمعات بفعل سلوك الاقتداء والمحاكاة، بل إن هذا ليصدق على كل سلوك اجتماعي.

فالعالم والمعلم والمربي ـ مثلاً ـ قدوة في مجتمعه وبين طلابه، فعليه أن يكون فعّالاً لا قوالاً، يأمر بالخير ويسابق إليه، وينهى عن الشر ويحذر

مقاربته، وإلا كان قدوة سيئة لطلابه ومريديه، وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يبين لقومه ضلال هذا المسلك، واعوجاج سبيله، مما يتنزه عنه العاقل: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨] قال ابن سعدي: " إن من تكملة دعوة الداعي وتمامها؛ أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول مُنْتَهٍ عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾ ولقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ "(١).

والوالدان قدوة في بيتهما، وبين أفراد أسرتهما، فيجب عليهما المحافظة على شعائر الدين، والخلق الحسن، وتربية الأبناء بالسلوك العملي، القائم على القدوة الحسنة، فإن الأطفال أول نشأتهم يتعلقون بآبائهم وأمهاتهم، ويرونهم قدوة لهم في كل سلوك، حتى لو كان سلوكاً غير حميد، بل قد يؤدي هذا التأثر بهما إلى الضلال عن الحق، وإلى هذا المعنى يشير الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البهِيمَةُ بهيمةً جَمْعَاءَ هل تحسون فيها من جدعاءَ**))(٢) قال الطيبي فما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٣٥.

(٢) أخرجه البخاري [١٠١٥ كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله] ومسلم[٤/ ١٦٢٤ كتاب القدر].

قال النووي في شرح مسلم(١٦/ ٢٩٠): " وأما قوله : (كما تنتج البهيمة بهيمة) فهو بضم التاء =

نقله ابن حجر عنه:" والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجِبِّلَة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يُعْدَل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد"[1].

ومثل هذا حال الراعي مع رعيته؛ فهو قدوة لهم في القيام بالأمانة، وسياسة الناس بالعدل، وتقوى الله فيما استرعاه، وإلى هذا المعنى يشير علي بن أبي طالب فيما قاله لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لما حُمِلَ مالٌ عظيم من الخُمُس إليه، قال عمر: (إن قوماً أدوا الأمانة في هذا لأُمَنَاء، فقال له علي: عففت فعفت الرعية، ولو رتعت لرتعوا)[2].

وفي المبحث القادم ـ إن شاء الله ـ سنشير إلى نماذج ومجالات القدوة الحسنة ذُكرت في القرآن الكريم.

= الأولى، وفتح الثانية، ورفع البهيمة، ونصب بهيمة، ومعناه: كما تلد البهيمة بهيمة (جمعاء) بالمد، أي مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها (جدعاء) بالمد وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء".

(١) فتح الباري(٣/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية(٢٨/ ٢٦٨).

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة، وآثارها.

في هذا المطلب فقرتان:

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة.

الفقرة الثانية: آثار القدوة الحسنة.

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة.

الإنسان مدني بطبعه، يتفاعل مع البيئة المحيطة به، فيتأثر بها، ويؤثر فيها، ولهذا فإن سلوك الاقتداء والتأثرُ بمن يحيط به؛ سلوك فطري، نابع من أصل تكوين الإنسان، لا يمكن للمرء أن يسلم منه؛ لأنه رغبة ملحة تدفع البشر جميعاً، مهما كانت أعمارهم، أو مستوياتهم العلمية، ومكانتهم الاجتماعية، إلى سلوك الاقتداء والتقليد لغيرهم، وإن اختلفت درجات التأثر والاقتداء، وتنوعت مجالاته وميادينه[1].

وأهم الأسس النفسية التي تُحَفِّزُ وتدفع إلى هذا السلوك؛ الإعجاب بمن يَقْتَدي به، هذا الإعجاب الذي يكون الدافع له؛ ما يتميز به المقتدَى به من صفات خاصة، تجعله قادراً على التأثير في غيره، حتى يقتدي به، ويتأثر بسلوكه[2].

---

(١) ينظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص: ٢٥٧.

(٢) يعبر علماء النفس عن هذه الشخصية التي يكون تأثيرها على غيرها شديدًا بالجاذبية الشخصية أو (كاريزما:Charisma) ينظر: كتاب: كاريزما السلم الوظيفي.

وقد يترقى الأمر من أن يكون سلوك الاقتداء مجرد إعجاب بالمقتدَى به، إلى أن يكون مبنياً على قناعة وثقة بأهليته، حتى يكون ذات الاقتداء والاتباع عبادة وديناً، وفي هذا المعنى يقول تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ويقول تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي مثل هذه الحالة يخرج سلوك الاقتداء، عن أن يكون مبنياً على مجرد الإعجاب والتقليد الذي قد يقع دون وعي وإدراك، إلى أن يكون سلوكاً يمارسه الإنسان بوعيٍ وإدراك، راجياً به تحقيق أهداف ومقاصد معينة، وهذه حقيقة التأسي والاقتداء بالأنبياء والربانيين من أتباعهم.

الفقرة الثانية: آثار القدوة الحسنة.

تضمن ما ذكرناه في مبحث: أهمية القدوة؛ إشارة إلى طرف من آثار القدوة ونتائجها، وفي هذا المطلب نذكر إجمالاً أبرز آثار القدوة الحسنة ونتائجها:

أولا: نشر القيم والمبادئ.

إن وجود قدوة حسنة تحقق قيماً ومبادئ يعترف بها المجتمع، يؤدي إلى نشر تلك القيم والمبادئ في ذلك المجتمع، ويكون حافزاً لأفراده لتطبيقها، متبعين لهذا القدوة، ومتأسين به في سلوكه، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن جرير ـ رضي الله عنه ـ ((**من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فعُمِل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا يَنْقُصُ من**

أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعُمِل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيء))[1].

ثانيا: إعطاء الدليل العملي على إمكان التطبيق.

ذلك أن وجود تطبيق عملي للقيم والمثل؛ يُعطي الأفراد والمجتمعات الدليل العملي على إمكان تطبيق تلك القيم والمثل في الواقع المشاهد، بحيث تزول عن النفس شبهة صعوبتها، وخداعها بعدم إمكان تطبيقها.

والحقيقة أن من أصول مبعث الرسل والأنبياء، تطبيق الشرائع والسنن الإلهية، وهذا المعنى هو ما يشير إليه التوجيه الرباني لعباده بأخذ الأسوة بنبيه محمد ﷺ، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولما تعجب المشركون من كون الرسل بشراً من جنسهم؛ رد الله عليهم بما يدل على جهلهم بحقيقة الحكمة الإلهية العظيمة في جعله بشراً من جنسهم يأنسون إليه ويقتدون به، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

(١) أخرجه مسلم[٤/ ١٦٣٥ كتاب العلم].

(٢) ينظر في هذا المعنى: كلام أبي السعود في إرشاد العقل السليم(٣/ ١١٢).

ثالثا: التطبيق العملي الصحيح.

ومع أن وجود القدوة الحسنة في المجتمع، يعطي الدليل العملي على إمكانية التطبيق ـ على ما تقدم ـ فإنها تعطي أيضا صورة التطبيق العملي الصحيح، بحيث تصبح القدوة نموذجاً صحيحاً للتطبيق العملي للقيم والمبادئ والشرائع، وبهذا تصير أسلوباً من أساليب التعلم، وطريقة من طرق إيصال العلم، يقول الرسول ﷺمقرراً هذا المعنى مُؤكِداً عليه: (**صلوا كما رأيتموني أصلي**)[(١)] ويقول: (**خذوا عني مناسككم**)[(٢)]وإذا علمنا أن هذا الأمر ـ منه عليه الصلاة والسلام ـ جاء متعلقاً بأعظم شعيرتين عمليتين في الإسلام ـ الصلاة والحج ـ علمنا مدى أهمية وجود القدوة التي تعطي التطبيق العملي الصحيح للشرائع والقيم.

ويتأكد هذا إذا أدركنا مدى تفاوت الناس في فهم الخطاب، وتأويل الكلام، تفاوتاً قد يوقع في الاختلاف، والتطبيق العملي مانع من التفاوت في الفهم، عاصم من هذا الاختلاف.

رابعا: التأسي والمتابعة.

ومن الآثار الطيبة التأسي والمتابعة للقدوة الحسنة في سلوكه وعمله؛ بما يعين المرء على القيام بواجباته، ويعزيه فيما يلاقيه من مصائب الدنيا، أو يواجهه من مشاقها ومصاعبها، فكثيراً ما نجد في سلوك القدوة الحسنة

---

(١) أخرجه البخاري [١٢٨ كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين] عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه[٢/ ٩٤٢ كتاب الحج] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

دافعاً لنا على التأسي به والمتابعة له، بما يعيننا على القيام بواجباتنا الدنيوية أو الأخروية، وحتى فيما نلاقيه من مصاعب ومشاق الحياة.

وعلى هذا المعنى العظيم يربي الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ فيأمره بالتأسي بمن سبقه من الأنبياء والرسل أولي العزم، يقول تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[الأحقاف: ٣٥] قال ابن سعدي: " أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم"[(١)].

وهذا المعنى الذي تربى عليه النبي ﷺ أَثَّـرَ في سلوكه العملي، فها نحن نراه يتأسى بصبر موسى عليه السلام على ما يلاقيه من الأذى، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدِل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته فقال: ((**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**))[(٢)] قال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٣١.

(٢) أخرجه البخاري[٦٤٠ كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم...] ومسلم[٢/ ٦٠٨ كتاب الزكاة].

ابن حجر تعليقاً على هذا الحديث: " وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم، ومع ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحلم، كما صنع النبي ﷺ اقتداء بموسى عليه السلام"[١].

(١) فتح الباري(١٧/ ٢٧٦).

المبحث الثاني:
أسلوب القرآن في عرض القدوة الحسنة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدِي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة.

تنوع أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، كما تنوع كذلك في عرض النماذج لها، ومن خلال استعراض الآيات، يمكننا تَبَيُّن أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، من خلال خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدِي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة.

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

باستقراء آيات القرآن الكريم؛ يتبين أن التعبير عن القدوة الحسنة جاء على ضربين:

الأول: التعبير بلفظ القدوة الصريح.

الثاني: التعبير بلفظ يؤدي معنى اللفظ الصريح.

- **التعبير بلفظ القدوة الصريح.**

ورد لفظ القدوة في القرآن الكريم في موضعين، أحدهما في جانب الخير، والآخر في جانب الشر، فأما الذي في جانب الخير فهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[الأنعام: ٩٠] قال ابن كثير: "يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء، والذرية، والإخوان، وهم الأشباه (الذين هدى الله) أي هم أهل الهدى لا غيرهم، فبهداهم اقتد

واتبع، وإذا كان هذا أمر للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به"[١].

- **التعبير بلفظ يؤدي معنى اللفظ الصريح :**

قد تقدم الحديث عند التعريف اللغوي للقدوة؛ ذكر عدد من النظائر لكلمة القدوة، التي يقرب معناها من معنى القدوة، وهي: الأسوة، والإمام، والمثل.

وقد ذكرنا هناك تعريف هذه الألفاظ واستعمالاتها اللغوية، ونشير هنا إلى وجه دلالتها على معنى القدوة الحسنة:

- **الأسوة:**

ورد لفظ الأسوة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، كلها تشير إلى القدوة الحسنة وهي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الموضع الثاني: قوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٩٩).

وأما الذي في جانب الشر فهو قوله تعالى:﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾ [الممتحنة: ٦].

هذه هي المواضع الثلاثة للفظ الأسوة التي وردت في القرآن الكريم، ودلالتها على معنى القدوة الحسنة ظاهرة.

ومما هو جدير بالإشارة؛ أن لفظ الأسوة لم يرد في القرآن الكريم إلا في جانب الخير دون الشر، خلافاً للفظ القدوة، ولباقي الألفاظ التي هي في معنى لفظ القدوة، وهذا يقوي أن يكون لفظ الأسوة إنما يستعمل في جانب الخير دون الشر، خلافاً لما ذهب إليه بعض أهل العلم ممن نقلت كلامهم عند تعريف الأسوة؛ وأنها تكون في الخير والشر، معتمدين في ذلك على أن الأسوة في المواضع الثلاثة وصفت بالحسنة، ولا توصف بذلك إلا إن كانت تَرِد كذلك في جانب الشر، وهذا وإن كان محتملاً؛ إلا أن عدم استعمالها في القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو كلام العرب ـ فيما وقفت عليه ـ في جانب الشر؛ يدل على أنها لا تستعمل إلا في جانب الخير فقط، ويكون وصف الأسوة بالحسنة في تلك المواضع الثلاثة؛ وصفاً كاشفاً مؤكداً لما يفهم من ذات اللفظ.

- **الإمام.**

ورد لفظ الإمام في مواضع عدة من القرآن الكريم، مراداً به من يُقتدى به في الخير، فمرة جاء بلفظ : إمام، وذلك في مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة: ١٢٤]

قال الطبري: " إني مُصَيرُك للناس إماماً، يُؤتم به ويُقتَدى به"[١].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[هود: ١٧] ونحوه في سورة الأحقاف، يقول تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ونلحظ هنا أن الوصف جاء للكتاب نفسه، قال أبو السعود عند كلامه عن آية هود: "أي مُؤتماً به في الدين، ومقتدى"[٢].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان: ١٢] قال ابن عاشور: "سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان؛ أن يجعلهم قُدوةً يَقتدي بهم المتقّون"[٣].

ومرة جاء بصيغة الجمع: أئمة، في موضعين:

الأول: عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

---

(١) جامع البيان(٢/ ١٨).

(٢) إرشاد العقل السليم(٢/ ١٨).

(٣) التحرير والتنوير(١٠/ ١٧٠).

[الأنبياء: ٧٣] قال قتادة: " جعلهم الله أئمةً يُقتدى بهم في أمر الله "[١].

والثاني: عند قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السجدة: ٢٤] قال الطبري: ".. وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة في الخير، يؤتمّ بهم، ويُهْتَدى بهديهم"[٢].

ومرة جاء بلفظ: أمة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] قال ابن كثير: " فأما الأمة، فهو الإمام الذي يُقتدى به"[٣].

- **المثل:**

ورد لفظ المثل في القرآن الكريم مراداً به الحالة التي تُحتَذَى ويقتدى بها في جانب الخير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾[التحريم: ١١] قال ابن عاشور: " جاء أحد المثلين للذين آمنوا مثلاً لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرؤوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة " [٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان(١٨/ ٤٧٢).

(٢) جامع البيان(٢٠/ ١٩٤).

(٣) تفسيرالقرآن العظيم(٤/ ٦١١).

(٤) التحرير والتنوير(١٥/ ١٩٣).

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

حفل القرآن الكريم بنماذج كثيرة للقدوة الحسنة، ترجع في مجملها إلى صنفين:

الأول: الأنبياء.

الثاني: الصالحون من أتباع الأنبياء.

فأما الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فلا شك أن الأخذ بسننهم، والسير في طريقهم؛ مطلب أصيل في رسالات الله جميعاً؛ ذلك أنهم المبلغون عن الله تعالى، قد بعثهم عز وجل ليكونوا قدوة لأممهم، يتأسون بسنتهم، ويقتدون بهديهم.

وأما الصالحون من أتباعهم، فترسم هديهم والتأسي بطريقتهم، هو في حقيقته اقتداءٌ بالأنبياء أنفسهم؛ لأن ما هم عليه من الهدى والرشاد ـ الذي حمل الناس على الاقتداء بهم ـ إنما كان لاتباعهم رسل الله، وسَيْرِهم على طريقتهم.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم مقررةً هذا الأمر، داعيةً إليه، يقول الله تعالى ـ بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء ملحقاً بهم الصالحين من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام:٩٠] قال أبو السعود: " فاختصَّ هداهم بالاقتداء، ولا تقتدِ بغيرهم، والمراد بهداهم؛ طريقتُهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ، فإنها بعد النسخ لا تبقى هُدى"[١].

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٩٩).

=

ونلحظ أن هذا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، جاء بعد ذكر ثمانية عشر نبياً، مبتدئاً بنوح أول الرسل، مروراً بإبراهيم أبي الأنبياء، ووصولاً إلى آخرهم عيسى، عليهم ـ جميعاً ـ الصلاة والسلام، وفي هذا دلالة عميقة على الحبل الموصول بين رسل الله تعالى، تختلف أماكنهم، وتتباعد أزمانهم، ويبقى هداهم ودينهم واحد.

وملحظ آخر كريم تدل عليه هذه الآية، أشار إليه المفسرون، يقول ابن عاشور: " وفي إفراده بالذكر، وترك عدّه مع الأوّلين؛ رمز بديع إلى فذاذته، وتفرّد مقداره، ورَعْي بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة، ولذلك قُدّم المجرور وهو: (بهداهم) على عامله، للاهتمام بذلك الهدى؛ لأنّه هو منزلتك الجامعة للفضائل والمزايا، فلا يليق به الاقتداء بهُدَىً هو دون هُداهم"[1].

ومثل هذه الآية الكريمة الدالة على الاقتداء بالأنبياء وأتباعهم؛ قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الممتحنة:٤] كما يقول تعالى عن عيسى عليه السلام وأتباعه من الحواريين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

= واختلف المفسرون في متعلق الاقتداء بهم، في أي شي يكون، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: الاقتداء بهم في توحيد الله تعالى، ونفي الشرك ومحاربته.

القول الثاني: الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة.

القول الثالث: الاقتداء بشرائعهم إلا ما خصه الدليل.

القول الرابع: حمله على كل ما ذكر إلا ما دل الدليل على تخصيصه.

ينظر: جامع البيان (١١/ ٥١٨) ومفاتيح الغيب(٦/ ٣٦٥) والجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤).

(١) التحرير والتنوير(٥/ ٢٣).

ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف/١٤] قال ابن سعدي: "... ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ "(١).

وهذه الآيات تدل - أيضاً - على أن القدوة كما تكون تأسياً بالأفراد؛ فقد تكون أيضاً بالجماعة، ويكون هذا باتباع منهجهم، وسلوك طريقتهم، ولهذا قال تعالى في شأن مخالفة ما عليه جماعة المؤمنين: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥].

على أن الاقتداء قد يخرج عن أن يكون متابعة لأفرادٍ أو جماعة، إلى أن يكون ذات الكتاب المنزل إماماً يقتدي به الناس، وهذا ما يقرره قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[هود: ١٧] ونحوه في سورة الأحقاف، يقول تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢] قال ابن كثير: " أي ومن قبل هذا القرآن كتاب موسى، وهو التوراة (إِمَامًا وَرَحْمَةً) أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان؛ قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن "[1].

(١) إرشاد العقل السليم(٢/ ١٨).

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة[(١)].

لما كانت القدوة الحسنة بهذه المنزلة الرفيعة، والمكانة العالية؛ كان لزاماً أن يكون أهلها قد بلغوا رتبة عالية من الكمال البشري، جعلتهم أهلاً لئن يَقتدِي بهم غيرهم، وهذا ما تنطق به آيات القرآن الكريم، إذ هي حافلة بعدد من الصفات التي تؤهل المرء حتى يكون قدوة حسنة، وإماماً يتبع في الخير.

ويمكن تَبيُنُ تلك الصفات واستنباطها عن طريق النظر في الآيات التي أشارت إلى لفظ القدوة، أو الألفاظ الأخرى التي تدل على معنى القدوة الحسنة، والسياق الذي وردت فيه، والشخصيات التي ذكرت مقترنة بالدعوة إلى أخذ القدوة منها.

وسنذكر تلك الآيات متبعين لها بما تدل عليه من صفات، لنخلص بعدها إلى أبرز الصفات التي تؤهل المرء ليكون إماماً، وأسوة يقتدى به.

يقول تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] فهذه الآيات الكريمات تشير إلى جملة من الصفات هي[(٢)]:

---

(١) ينظر بالإضافة إلى هذا المطلب، ما ورد في هذا البحث في مطلب: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة.

(٢) ينظر في تفسير الآيات، وما دلت عليه من هذه الصفات: جامع البيان(٧١/ ٣١٦) ومفاتيح الغيب (٩/ ٤٨٤) وتفسير القرآن العظيم(٤/ ٦١١) وإرشاد العقل السليم(٤/ ١٦٣) .

- لزوم طاعة الله تعالى مع الخضوع والخشوع له، وهذا معنى القنوت المشار إليه في الآيات الكريمة.
- الاستقامة على دين الله والميل عن الضلالة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.
- الإخلاص لله تعالى، وهو معنى نفي الشرك عنه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.
- شكر الله تعالى على نعمه، وهو معنى قوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾.

وأوقفك على آية أخرى في سورة السجدة، أشارت إلى صفات أخرى حسنة لمن يَقتَدي به الناس، حيث ذكر تعالى أنه اصطفى من بني إسرائيل أئمة يُقتَدى بهم، فقال عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1] [السجدة: ٢٤] وهذه الآية الكريمة تشير إلى صفتين أُخْرَيين، هما:

- الصبر على فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه.
- التصديق بآيات الله، واليقين بها.

قال أبو السعود تعليقاً على قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ قال: " هي (لما) التي فيها معنى الجزاء، نحو: أحسنت إليك لما

(١) ينظر في تفسير الآية وما دلت عليه من هذه الصفات: معالم التنزيل (٦/ ٣٠٩) وروح المعاني(١٦/ ٢٠) والتحرير والتنوير(١٧/ ١٨١).

جئتنِي، والضمير للأئمة، تقديره: لما صبروا جعلناهم أئمة... والمراد: صبرهم على مشاق الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصرة الدين، أو صبرهم عن الدنيا"[(١)] وهذا المعنى أخذه بعض العلماء فقال: بالصبر واليقين؛ تنال الإمامة في الدين[(٢)].

وإذا تأملنا هذا الصفات وجدناها ترجع إلى معنى كلي ينتظمها جميعاً، وهو العبودية لله تعالى، ونعني بها العبودية التامة المتضمنة كمال الخضوع والانقياد، والتجافي عن كل مظاهر الشرك، مع ما يتطلبه ذلك من الصبر الجميل لبلوغ هذه الرتبة التي تجعل المرء أهلاً لئن يكون قدوة في الخير، يتأسى به الخلق.

وهذا المعنى هو حقيقة الابتلاء الذي نال به خليل الله إبراهيم عليه السلام منزلة الإمامة في الدين، يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[البقرة: ١٢٤] والمفسرون وإن اختلفت عباراتهم في تحقيق المراد بمعنى الكلمات التي ابتُلي بها خليل الله، فإنها تشير إلى قيامه بما أمره تعالى به أتم قيام، ولهذا قال ابن كثير: " قوله تعالى: (بكلمات) أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تُطلق، ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

(١) إرشاد العقل السليم(٥/ ٣١٥) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٧/ ٣٧٢).

وتُطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي: قام بهن. قال: (إني جاعلك للناس إماما) أي: جزاء على ما فَعَل، كما قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإمامًا يُقتَدى به، ويُحتَذى حذوه"[1] وقد أكد تعالى هذا المعنى في جوابه ـ عز وجل ـ على سؤال إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته من بعده، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ويدل على معنى هذه العبودية التامة التي تجعل المتصف بها قدوة وإماماً؛ ما ورد في وصف إبراهيم وبنيه ـ إسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام بالعبودية، في سياق تقرير إمامتهم في الدين يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الأنبياء: ٧٣].

ولعل هذا يفسر لنا ذكر دعاءِ عبادِ الرحمن ربهم؛ بأن يجعلهم أئمة للمتقين، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان: ١٢] حيث ذكر تعالى وصفهم بالعبودية (عباد الرحمن) في أول سياق صفاتهم، ثم عَدَّ كثيراً من صفاتهم التي يجمعها ما أشرنا إليه من معنى العبودية التامة لله تعالى، وختم

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم(١/ ٤٠٥).

ذلك بذكر دعائهم ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين، فكأن تلك الصفات تبلغ بهم درجة الإمامة في الدين.

وقبل أن نختم الكلام عن صفات القدوة يحسن التنبيه على ثلاثة أمور:

الأول: أن كل صفة حسنة فيمن أمر الله أن يُقتَدى بها، هي مما يحسُنُ أن يتحلى الإنسان بها ويقتدي بأهلها، وهذا الذي ذكرناه من صفات القدوة الحسنة؛ هو أرفع تلك الصفات وأكملها، ولا يعني أن عداها من صفاتهم الحسنة ليست محلاً للقدوة والتأسي.

الثاني: أن هذه الصفات التي أشرنا إليها؛ هي في أعلى درجات الكمال الإنساني، بحيث جاء التعبير القرآني عن المتصف بها بلفظ الإمام، والجانب اللغوي الذي أشرنا إليه ـ في أول البحث ـ يكشف شيئاً من هذه الحقيقة، حيث يكون الإمام جامعاً للخير، يقوم مقام الجماعة الكثيرة من الناس.

وهي بهذا المعنى في أرفع كمالات البشر، وقليل من يدرك أعلاها، ولهذا فأهلها يتفاوتون فيها، وعندئذ يكفي أن تكون معياراً لصفات القدوة الحسنة، فبقدر ما في المرء منها يكون الاقتداء به.

الثالث: أنه ليس بلازم أن يكون الأسوة الحسنة مُبَرأً من كل عيب، سالماً من كل نقص، فإن هذا ليس بمستطاع؛ لما جبل عليه البشر من نقص، دل عليه أن الله تعالى لما جعل خليله إبراهيم عليه السلام أسوة للمؤمنين ـ وهو الموصوف بأعلى صفات القدوة ـ استثنى من ذلك ما وقع منه عليه

السلام لما استغفر لأبيه، فلم يجعله موضعاً للأسوة، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤] مع أن الله تعالى قد بين عذر إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه، إذ كان ذلك منه عن وعدٍ وعد به أباه، رجاء أن يهتدي إلى الحق، حتى تبين له أنه عدو لله؛ فتبرأ منه، وترك الاستغفار له، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤] قال السعدي بياناً لمعنى نهي الله للمؤمنين عن الاستغفار للمشركين: " فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين؛ لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو عُلم أنهم يموتون عليه؛ فقد حقت عليهم كلمة العذاب... ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ في قوله: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾"[(١)]

---

(١) تيسير الكريم المنان ص: ٣٥٣.

المطلب الرابع: صفات المُقتدِي.

إنْ يكن بلوغ درجة القدوة رفيع المقام، لا يرقى إليه إلا من تحلى بجميل الصفات، وكريم الخصال؛ فإن التوفيق للاقتداء، وأخذ الأسوة بمن سلف من أئمة الهدى والرشاد؛ شرف لا يبلغه إلا من كان فيه من الصفات ما يدل على صدقه في تحري الحق، وحرصه على التوفيق إليه.

وإذا نظرنا في الآيات الكريمة الواردة في الاقتداء؛ سنجدها تشير إلى صفتين رئيستين، يجب أن يتحلى بهما من يريد الاقتداء والتأسي، وقد جاء ذكرهما في سياق الدعوة إلى أخذ الأسوة، بالنبي ﷺ، وخليل الله إبراهيم ومن تبعه من المؤمنين:

الصفة الأولى: رجاءُ ثواب الله وخشية عقابه.

وقد ورد ذكر هذه الصفة في موضعين؛ الأول عند قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ... ﴾ [الأحزاب: ٢١] والموضع الثاني في شأن إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٦] وهذه الآيات الكريمة فيها إشارة إلى أن التأسي في الخير؛ منوط برجاء المتأسي ثواب الله تعالى وخشية عقابه، وما يتبع ذلك من صحة نيته وسلامة قصده، ولهذا ذُكر اليوم الآخر معطوفاً على رجاء الله تعالى، قال الألوسي: " (لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ) أي: يؤمل الله تعالى وثوابه، كما يرمز إليه أثر ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - وعليه يكون قد وضع (اليوم الآخر) بمعنى يوم القيامة

موضع الثواب؛ لأن ثوابه تعالى يقع فيه، فهو ـ على ما قال الطيبي ـ من إطلاق اسم المحل على الحال، والكلام نحو قولك: أرجو زيداً وكرمه، مما يكون ذكر المعطوف عليه فيه توطئة للمعطوف وهو المقصود، وفيه من الحسن والبلاغة ما ليس في قولك: أرجو زيداً كرمه على البدلية ... "[1].

الصفة الثانية: ذكرُ الله كثيراً.

وهذه الصفة جاء النص عليها في آية الأحزاب، يقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ونلحظ هنا أن هذه الصفة جاءت معطوفة على الصفة الأولى: (لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ) وهذا فيه إشارة إلى أن التأسي والاقتداء؛ يحتاج إلى كثرة ذكرٍ لله تعالى، ومداومةٍ عليه، قال أبو السعود: "وقَرَنَ بالرجاء ذكر الله (كثيرا) أي: ذِكْراً كثيراً، أو زماناً كثيراً، فإن المثابرة على ذكره تعالى؛ تؤدي إلى ملازمة الطاعة، وبها يتحقق الإئتساء برسول الله ﷺ"[2].

وبهذا يظهر لنا أن هاتين الصفتين؛ هي أعظم ما ينبغي أن يتحلى به من يريد الاقتداء بسير المصطفين الأخيار، إذ التأسي بأصحاب هذه المقامات العالية أمر عظيم، يحتاج معه المرء إلى باعث قوي عليه، ولا أعظم معيناً من الإخلاص لله، ودوام الصلة به ـ عز وجل ـ، قال الشوكاني: "وجمع بين الرجاء لله والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله صلى

---

(١) روح المعاني (١٦/ ٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٣٢٧) ونقله عنه الألوسي في روح المعاني (١٦/ ٧٠) وأشار إلى معناه الشوكاني في فتح القدير (٦/ ٣١).

الله عليه وسلم"[١].

وهذه الآيات الكريمة التي تشير إلى صفات المقتدي بأهل المقامات العالية، المتأسي بهم، فيها إيماء - أيضاً - أن سلوك القدوة يجب أن يكون عن وعي وإدراك، وليس مجرد تقليد ومحاكاة، فإن الرجاء المشار إليه فيها لا يكون إلا بقصد وإدراك، ولهذا وصف تعالى هذا السلوك بأنه قدوة وأسوة، ودعا المؤمنين وأرشدهم إليه.

(١) فتح القدير(٦/ ٣١).

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة الحسنة.

جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى أخذ القدوة والأسوة الحسنة بطريقين:

الطريق الأول: الدعوة الصريحة لأخذ القدوة.

الطريق الثاني: الدعوة غير الصريحة.

فأما الدعوة الصريحة لأخذ القدوة، فيدل عليها لفظ: القدوة، والأسوة، والإمام، فهذه الألفاظ ذاتها تدل على معنى الاقتداء والتأسي ـ كما مر بنا ـ.

وهذه الألفاظ مع دلالتها الصريحة على معنى القدوة، فقد اقترن بها ثناءٌ على من ذُكر، وبيانٌ أن فيهم أسوة حسنة لمن يَقتَدي بهم، وأنهم أئمة هدى يُتَابَعون على طريقتهم، وأن السالكَ سبيلهم؛ مُتَّبِعٌ طريق الحق، سالكٌ سبيل الرشاد، ولهذا وُصِفَت الأسوة بالنبي ﷺ بالحسنة، وسِيْقَت مساقَ الثناءِ والتعظيمِ، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١] ومثله في شأن إبراهيم عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين، إذ قال تعالى عنهم:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد استدل بهذه الآية أهل العلم على مشروعية التأسي بأفعال النبي ﷺ، قال ابن كثير:" هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي

بـالنبي ﷺ يـوم الأحـزاب، في صـبره، ومصـابرته، ومرابطتـه، ومجاهدتـه، وانتظاره الفرج من ربه ـ عز و جل ـ صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين"(١).

وكذا الشأن في وصف إبراهيم عليه السلام بالأمة والإمام، يقـول تعـالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] وقولـه تعـالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] فهـذه الألفاظ مع دلالتها الصريحة على معنى القدوة؛ فقد جاءت في سياق الثناء على المذكورين وأنهم محل الاقتداء والتأسي والائتمام.

بل قد وردت الدعوة إلى أخذ القدوة بصيغة الأمر الصريح، وذلك عنـد قولـه تعـالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٦٢٦)

هذا وقد اختلف أهل العلم من المفسرين والأصوليين في دلالة الآية على حكم أفعال النبي المجردة، على أربعة أقول:

القول الأول: أن فعله المجرد دال على الإباحة.

القول الثاني: أنه دال على الاستحباب.

القول الثالث: أنه دال على الوجوب.

القول الرابع: يتوقف فيه فلا يدل على حكم حتى يعرف بعينه.

ينظر تفصيل ذلك في: أحكام القرآن للجصاص(٥/ ٢٢٤) والمستصفى(٢/ ١٩٢) والإحكام لابن حزم(٢/ ١٤٠) وأصول السرخسي(٢/ ٨٨) والمحصول(٣/ ٢٢٩) والجامع لأحكام القرآن(١٤/ ١٦٥).

قال ابن كثير بياناً لهذا المعنى: " أي: اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به"[1].

وفي معناه أمره تعالى لصحابة رسول الله والمؤمنين؛ أن يكونوا مثل أنصار عيسى ابن مريم في استجابتهم لدعوته عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ قال ابن سعدي: "... ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾"[2].

وأما الدعوة غير الصريحة لأخذ القدوة، فقد وردت في القرآن الكريم في سياق الثناء على أولئك الذين هم محل القدوة، حيث نجد آيات القرآن الكريم تدعو إلى الأخذ بسيرة أولئك الصالحين، والتأسي بهم، وذلك عن طريق الثناء على سيرهم، والإشادة بمواقفهم، والقرآن الكريم حافل بنماذج رائعة من أتباع الأنبياء، فيها ثناء عظيم عليهم، مثل ما ورد في خبر طالوت وجنوده، ومثل خبر مريم ابنة عمران، ومؤمن آل فرعون، ومؤمن القرية في سورة يس، وغيرهم كثير مما ورد في القرآن الكريم، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ ذكر مزيد من النماذج على هذا في المبحث الخاص بنماذج القدوة ومجالاتها.

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

ومما هو جدير بالإشارة أن آيات القرآن الكريم، وهي تعرض تلك النماذج لا تشير ـ في غالب الحال ـ إلى اسمها أو مكانها أو زمانها، وإنما يكون الاهتمام بمواقفها مجردة عن زمانها ومكانها، حتى يكون الاعتبار بالمواقف، بعيداً عن شخوصها زماناً ومكاناً، وحتى تكون تلك المواقف مثالاً يُحتذى به غير مرتبط بمكان أو زمان.

ومن الأمثلة الظاهرة على ذلك؛ الآيات الكريمة التي نزلت إثر غزوة أحد، وما فيها من تعقيب على ما حصل من بعض الصحابة من ضعف عن القتال، لَمَّا سمعوا صارخاً بمقتل رسول الله ﷺ لتنزل آيات عظيمة تُؤسسُ لمعنى حقيقة الجهاد والبذل لهذا الدين، وإنه لا يرتبط بأشخاص وإن علا مقامهم، وجلت أقدارهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٦] قال ابن عاشور: " وقولَه: (وكأين من نبي قاتل) عِبرة بما سلف من صبر أتباع الرسل والأنبياء، عند إصابة أنبيائهم أو قتلهم، في حرب أو غيره، لمماثلة الحالين، فالكلام تعريض بتشبيه حال أصحاب أحُدٍ بحال أصحاب الأنبياء السالفين؛ لأنّ مَحَلّ المثل ليس هو خصوص الانهزام في الحرب.

وأمَّا التَّشبيه فهو بصبر الأتباع عند حلول المصائب، أو موت المتبوع"(١).

ومن صور الدعوة غير الصريحة إلى أخذ القدوة؛ جعل المقتدَى به مثالاً يحتذيه المؤمنون، ويتأسون به، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١ ـ ١٢] قال ابن عاشور: " وجاء أحد المثلين للذين آمنوا؛ مثلاً لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرؤوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة"(٢).

(١) التحرير والتنوير(٣/ ٢٣٩).

(٢) المصدر السابق(١٥/ ١٩٣).

المبحث الثالث:

مجالات القدوة الحسنة ونماذجها.

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

المطلب الثالث: المجال السياسي.

المطلب الرابع: المجال العسكري.

المطلب الخامس: مجال الصبر.

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

مما سبق دراسته في هذا البحث يتضح لنا؛ أن سلوك الاقتداء فيه معنى الشمول لمجالات الحياة، والإحاطة بتطبيقاتها؛ ذلك أن حقيقة سلوك الاقتداء قائم على معنى المتابعة والتأثر بسلوكٍ ما، سواء كان قولاً أو فعلاً، والإنسان له في كل حالة وموقف سلوكٌ وأفعالٌ، فمجالات القدوة على هذا؛ متنوعة تنوع سلوك الإنسان، متعددة تعدد التطبيقات التي يمر بها، في شتى مواقفه وحياته.

وصورة هذا الشمول في مجالات القدوة، والتنوع في تطبيقاتها، ظهرت جليةً في آيات القرآن الكريم، وهي تعرض لنماذج القدوة الحسنة، حيث رأينا فيها من التنوع والتعدد؛ ما يجعلها عصية على الحصر، ويكفي في هذا المقام، الإشارة إلى نماذج القدوة في الأنبياء الذي ذكرهم الله في كتابه، ومن تأمل تلك المواقف التي قصها الله تعالى عنهم؛ لم يشك أن مجالات القدوة تشمل كل تطبيقات الحياة، وجميع مظاهرها، من عقائد وعبادات، إلى سلوك ومعاملات، وهذا ما يجعلنا نحتار في تلك القدوات، أي مواقفها نذكر، وأيها ندرس، وكل مواقفها قدوة، وكل تصرفاتها أسوة.

ويؤكد هذا ـ أيضاً ـ أن دعوة القرآن الكريم لأخذ القدوة الحسنة، جاءت مطلقة غير مقيدة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

بل حتى الاستثناء الذي ورد في شأن استغفار خليل الله إبراهيم عليه السلام لأبيه، يؤكد هذا المعنى؛ لأن الله إنما استثنى حادثة بعينها، فنهى

المؤمنين عن الاقتداء بها، يقول تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤] .

وإذا كان الحال كذلك؛ فإننا سنكتفي بذكر أبرز المجالات العامة، التي ورد في القرآن الكريم ذكر نماذج للقدوة فيها، مع الإشارة إلى أبرز الأمثلة على تلك المجالات، ولفت النظر إلى موطن القدوة فيها، وعِلمنا بسعتها يَحْمِلُنا على الاختصار في عرضها، وحسبنا أن نضع اليد على أبرز مواطن القدوة فيها.

ويحسن بنا قبل ذكر تلك المجالات هنا التأكيد على ثلاثة أمور:

الأول: أن تقسيم المجالات وتصنيفها؛ مرده الاجتهاد والاستنباط، فيمكن لمن أراد أن يغاير في هذا التقسيم، ويستنبط غيره.

الثاني: لم يكن المقصود من ذكر هذه الأمثلة الاستقصاء في دراستها، فمثل ذلك يطول به هذا البحث، والاختصار فيه مقصود، وإنما أردنا لفت النظر إلى محل القدوة في تلك النماذج، ووضع اليد على موطن القدوة فيها.

الثالث: أن بعض نماذج القدوة ـ ولا سيما الأنبياء ـ تتعلق بأكثر من مجال، ورغبة في الاختصار اقتصرت منها على أبرز مجال يتعلق بها، ولم أُرد تتبع مجالات القدوة فيها.

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

مجال الدعوة إلى الله تعالى أوسع المجالات في جانب القدوة؛ لسعة ما يتعلق به، فهو يتعلق بمجالات الحياة كلها، وقد تحدث القرآن الكريم عن الدعوة والدعاة، فذكر مناهج الدعوة وأساليبها، وبين طرقها ووسائلها، والقرآن الكريم هو المصدر الأول في معرفة مناهج الدعوة إلى الله وأساليبها على مرّ العصور.

إن هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم هو أشرف وظائف البشرية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] يكفي أهلها شرفاً أنها مهمة الأنبياء وأتباعهم، يَهْلك عليها أولهم، فيأخذها عنه آخرهم.

والقدوة الحسنة من الوسائل المهمة في تبليغ الدعوة، وإيصال الحق للناس، ذلك أن السيرة الحسنة، والأفعال الحميدة، تجذب أنظار المدعوين وتوقع في نفوسهم الأثر البليغ.

وإن سيرة أبناء الإسلام من تجار وغيرهم خير شاهد على مدى أهمية القدوة الحسنة، وبالغ أثرها في الناس، فإن كثيراً من أقطار العالم تتذكر تلك الفئة المؤمنة التي نشرت الإسلام في ربوعها، عن طريق السلوك الحسن والأسوة الطيبة.

وفي هذا المجال سنذكر نماذج للقدوة من سير المصطفين الأخيار من الأنبياء وأتباعهم، تكون زاداً للداعية إلى الله، وعوناً له في القيام بمهمته.

أولاً : معالم عامة للقدوة من سيرة الأنبياء عليهم السلام.

إن كل مواقف الأنبياء والرسل ـ في الأصل ـ هي مجال للقدوة في جانب الدعوة إلى الله تعالى، وكل مواقفهم التي ذكرها الله تعالى في كتابه تمثل جانباً من جوانب الدعوة إلى الله تعالى، ومجالاً من مجالاتها.

ولهذا فإن حصر مواطن القدوة في سيرتهم، وما قص الله من خبرهم، يطول جداً إذ كل سيرتهم موطن للقدوة، وفي أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بهم والسير على طريقتهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] إيماء إلى هذا المعنى.

وإذ كان الحال كذلك فإننا نكتفي من سِيَرِهم عليهم الصلاة والسلام في مجال الدعوة إلى الله تعالى، بإبراز مراسم الهدى فيها، ومعالم القدوة منها، وإن من أبرز معالم القدوة في مجال الدعوة إلى الله تعالى من سيرتهم المعالم التالية:

المَعْلَم الأول: العقيدة هي محور دعوة الأنبياء.

إن المتتبع لسياق دعوة رسل الله يجد أن هناك منطلقاً تبدأ منه كل الدعوات، ومُنْتَهى ترجع إليه كل الرسالات، وهو الأساس الذي تُبنى عليه، والمحور الذي تدور حوله، إنه أمر عقيدة توحيد العبادة له ـ عز وجل ـ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

لقد قص الله عن أنبيائه الكرام قولهم لقومهم أول دعوتهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] كل نبي يأتي إلى قومه ليقرر هذه

الحقيقة، أول دعوته، ومبدأ بعثته، لتكون الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصافية، ومعالجة الانحراف في تصورها أو مظاهرها في حياة الناس وسلوكهم، هي محور الرسالة ومنطلقها.

والعبودية الحقة لله تعالى التي أرسل بها أنبياء الله، لا تعني - فقط - الإقرار بالربوبية والخلق؛ فهذا لم ينازع فيه العقلاء، ولم ترسل من أجله الأنبياء، إنما أرسلت الرسل لِتُعبِد الناس لربها في كل مظاهر الحياة، في الأحوال الشخصية، والشؤون الاجتماعية، والنظم السياسية والاقتصادية.

ومن هنا ندرك فداحة الخلل في تصور بعض الناس للعبودية، وأنها تقتصر على أداء بعض شعائر العبادة، إن الأمر أوسع من ذلك وأشمل، إن العبودية لله تعني مطلق الذل والخضوع لله تعالى في كل شؤون الحياة جليلها ودقيقها، يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

المَعْلَم الثاني: تقويم السلوك في ضوء العقيدة.

الناظر في دعوة رسل الله الكرام يلحظ أنهم يبدؤون بدعوة قومهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والخلوص من الشرك، ثم ينتقلون إلى معالجة الانحراف العملي في سلوك أممهم، كلٌ بحسب الانحراف الذي وقع فيه قومه، استمع لقول نبي الله تعالى شعيب وهو يدعو قومه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾

[هود: ٨٤].

هذا هو المنهج العام لدعوة أولئك الرسل الذي كشفته سيرتهم، وهو الحق إذ لا يمكن الفصل بين السلوك والمعتقد، فالعقيدة هي الروح، والسلوك العملي هو البدن، فكيف الفكاك.

وهذا المنهج القائم على هذين الركنين هو المنهج الرباني، وأيّ دعوة إصلاحية تخل بأحد هذين الركنين، سيصيبها من الفشل والنقص في مسيرتها الإصلاحية، بقدر ما أخلت وفرطت فيهما.

المَعْلَم الثالث: المعرفة الدقيقة بأحوال المدعوين.

دلت آيات القرآن الكريم على أن أنبياء الله كانوا على علم تام بأحوال مجتمعاتهم، ومعرفة دقيقة بسلوك أممهم، لا تخفى عليهم مظاهر الانحراف فيهم وعلاماته.

وتلك المعرفة ليست معرفة سطحية، بل هي تفصيلية عميقة، ولذا كان حديثهم مع قومهم، حديث العارف ببواطن الأمور، المطلعِ على خفايا الأحوال، استمع مثلا إلى قول لوط عليه السلام وهو يُجابه قومه بفضح سلوكهم المنحرف، ويكشف لهم بعض أخلاقهم الذميمة: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨ – ٢٩].

إن من الواجب على الداعية إلى الله تعالى أن تكون معرفته دقيقة

بحال مجتمعه، حتى تكون تصوراته صحيحة، تحكي واقعه، وحتى يكون علاجه مناسباً لحال أمته، ملبياً حاجتها.

المَعْلَم الرابع: تنوع أساليب الدعوة وطرقها.

جُبلت طبائع الخلق على اختلافٍ وتنوع، يُورثُ اختلاف الآراء، وتباين الأهواء، فضلاً عن عوامل الزمان والمكان، وأثرهما البالغ على الناس، ولهذا فقد كشفت سيرة الأنبياء الكرام عن تنوعٍ في أساليب دعوتهم، وتعددٍ في طرقها، ولم يحصر أحد منهم نفسه في أسلوب محدد لا يبارحه، وما ذاك إلا لاختلاف عوامل التأثير في الناس، فما يؤثر فيك قد لا يؤثر في غيرك، ولهذا وجدنا نوحاً عليه السلام يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، يخص أحدهم بحديثه تارة، ويعمهم تارة أخرى، يُرغبُ لعلهم يطمعون، ويُرهبُ لعلهم يحذرون، مستعيناً بشتى البراهين والآيات، في الأفاق والأنفس، استمع لخبر الله تعالى وهو يذكر هذا التنوع في دعوة نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم

مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢ – ٢٠].

إن تقدير الدعاة والمربين لهذا التفاوت والاختلاف أمر بالغ الأهمية؛ حتى يُستَعمل مع كل أحد ما يناسبه من الأساليب والوسائل، ونُخْطئ كثيراً حينما نحصر أنفسنا في مسلكٍ اعتدناه، وطريقةٍ ألفناها، مع أن المجالاتِ رحبةٌ والوسائلَ كثيرةٌ .

المَعْلَم الخامس: التجرد لله في دعوتهم.

وأما تجرد أنبياء الله تعالى في دعوتهم وجهادهم، من أغراض الدنيا ومطامحها ومطامعها، فمعلم ظاهر، وسمة بارزة لكل الرسل والأنبياء، فهذا نوحٌ وهود وصالح ولوط وشعيب، قد أخبر الله تعالى عنهم أن كل واحدٍ منهم قال لقومه أول دعوته: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ١٠٩] لقد أكد رسل الله على هذه الحقيقة مراراً وتكراراً، حتى يقطعوا كل ذريعة ودسيسة لأعداء الله الصادين عن سبيله، يوهمون بها الناس، أن أنبياء الله أهل مطامع دنيوية، وهذا خاتم الرسل وإمامُهم يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] وعلى الدعاة والمصلحين أن يكونوا على حذر من الفرية التي يرددها أعداء الله تعالى حينما يصمونهم أو يصفونهم بأنه أصحاب مطامع دنيوية ومطامع سياسية.

المَعْلَم السادس: الصبر والمصابرة.

من أبرز مجالات القدوة في دعوة الأنبياء؛ ما كان عليه أنبياء الله من صبرٍ ومصابرةٍ في دعوة الناس، ومراغمة الباطل، وتحمل الأذى الذي ينال

أحدهم في ماله وولده، أو في نفسه، ذلك الأذى الذي ربما شمل التضييق والمحاصرة، أو الطرد والإبعاد، وربما تعداه إلى القتل وسفك الدم، فهذا طريق الأنبياء من سلكه سيصيبه فيه ما أصابهم، ويناله من الأذى بقدر ما فيه من الإيمان، يقول تعالى مقرراً هذه السنة داعياً أصحاب رسول الله إلى الاقتداء بمن سلف من الأنبياء وأتباعهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

بل هذا خاتمهم وإمامهم عليه الصلاة والسلام يأمره ربه أن يتأسى بإخوانه من أولي العزم في صبرهم لأمر الله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

يقوي هذا الصبر في أنبياء الله ويؤازره؛ توكل مطلق على الله، وتفويض كامل إليه، وحسن ظن به ـ عز وجل ـ مما جعلهم لا يخشون أذى قوي، ولا مكر عدو، استمع لهذا التحدي البالغ، والاستعلاء بالحق، وفرط الثقة بالله تعالى من نبي الله هود عليه السلام، وهو فرد واحد، يتحدى قومه وهم من هم قوة وبطشاً: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود: ٥٤ – ٥٦].

المَعْلَم السابع: العاقبة للمتقين.

ومعلم بارز من دعوة الأنبياء كشفت عنه آيات القرآن الكريم، أن الله تعالى قد جرت سنته بوعد منه أن العاقبة للمتقين، وأن الأرض له

يورثها من يشاء من عباده، قد يتأخر نصر الله، وتشتد وطأة المحن على المؤمنين، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، قد يتأخر نصر الله تعالى لأن أهل الإيمان لم يحققوا شرط النصر والتمكين، وربما حتى يَصِّحَ ويَصْدُق إيمانهم وتعلقُهم بربهم، أو ربما حتى تقوم الحجة على الكافرين والمكذبين، لكن نصر الله إذا نزل كان الغاية في إعزاز أوليائه والبطش بأعدائه يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

ثانياً: الجدل بالتي هي أحسن، الأسلوب الأصيل في الدعوة إلى الله.

إن الحوار والمجادلة هي الأسلوب الأصيل في الدعوة إلى الله تعالى، ولعل من أهم ما يواجه الداعية إلى الله تعالى محاورة أهل الضلال، ولا سيما أهل الطغيان منهم، فمجادلة مثل هذا النوع تحتاج إلى مؤهلات خاصة، فالثبات، والقوة، وسرعة البديهة، عناصر أساس في صفات المحاور، لاسيما عندما يكون الجدل مع أهل السلطة والنفوذ، أصحاب القدرة على البطش بخصومهم.

وحينما يذكر الحوار والجدال؛ فلا توجد شخصية يصدق عليها أنها أوفى نموذج للقدوة في هذا المجال، بما تمتلكه من مؤهلات الحوار بكفاءة وجدارة كخليل الله إبراهيم عليه السلام.

لقد عرضت آيات القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام في صورة الرجل الحليم العاقل، الذي أوتي قدراً كبيراً من البلاغة، وقدرة عجيبةً على المحاورة والجدل بالتي هي أحسن، بأسلوب ومنهج لا نظير له، يوافق

العقل ويوقظ الإحساس، ويلامس أوتار القلوب، ويخاطب المنطق، يستشهد بشتى الأدلة والبراهين من آيات الله في الأنفس والآفاق.

انظر إلى حواره مع ذلك الملك الجبار العاتي[1]، إنه يكشف لك سرعة البديهة عند الداعية إلى الله تعالى، يكشف لك سعة الأفق والفكر في عقليته عليه السلام، وأمرٌ آخر بالغ الأهمية وهو الثبات ورباطة الجأش في أصعب المواقف شدة وأكثرها خطراً.

وعند محاورته لقومه تتكشف لك القدرة الذهنية العجيبة، القدرة على حشد الأدلة المتنوعة، في ذاتها وغاياتها وسياقها، فيرصها لتكون أشبه بالجند المحتشدين لنصرته، كل يضرب في مجال، ويصيب من المخالف مقتلاً، مع التفنن البديع في الحوار، والتنوع المذهل في سياقاته وجوانبه.

وأخيراً في حواره مع والده يكشف لك تلك الشخصية الحانية الرفيقة الحليمة، في أسلوب هادئ دافئ، وعبارات رقيقة، تفيض رحمة وشفقة وبراً وإحساناً، مع ما تواجهه من استنكار واستكبار وتعنت.

ونقف الآن على آيات من القرآن الكريم تصور نموذجاً من نماذج القدوة في الحوار في مجال الدعوة إلى الله تعالى، يسترشد بها الدعاة ويستهدي بها المصلحون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا

(١) الوارد في سورة البقرة، ويأتي قريباً ذكره.

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨]. لقد سَكِرَ هذا الملك بقوة السلطان، فقام يتطاول على مقام الربوبية، ويدعي صفة من صفاتها، وذلك حينما أخبره إبراهيم عليه السلام بصفة من صفات الله تعالى " الإحياء والإماتة " وهي نعمة يستحق المُنعم بها العبادة وحده، فما كان من هذا المخدوع بالقوة، المغرور بالقدرة إلا أن قال: " أنا أحيي وأميت، أقتل هذا فيموت، أو أعفو عنه فيحيا"[(١)] وهذا منطق فيه عجرفة، سوغها قوة السلطة والنفوذ، لكن لننظر إلى موقف إبراهيم هل تلكأ أو تلعثم ؟ هل تردد أو تَحَيّر، أمام هذا التهديد المبطن من الطاغية الكافر، وهو يلوح بقدرته عل قتله وسفك دمه؟ كلا، لقد كان ثابتاً حاضر البديهة، سريع الجواب، فنقله نقلةً عجيبة، نقله إلى أُفق أرحب، لا يستطيع معه هذا المكابر أن يتمادى في كبره.. فتحداه أن يغير نظام الشمس في طلوعها وغروبها﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾لينزل عليه هذا التحدي كالصاعقة تصرعه، فلم يُحِر جواباً، ولم يجد مخرجاً، فَيفغُرُ فاهُ ويَشخُصُ بصره، تعلوه الحيرة وترتسم على وجهه الدهشة ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

إن على الدعاة إلى الله تعالى أن يعلموا أن حجج أهل الباطل واهية، لا تقف أمام قوة الحق وتأثيره، لكنها تحتاج إلى داعية قد تحصن بالعلم، وتسلح بالثبات، واستبطن البديهة، متوكلاً على ربه، مستنزلاً تأييده

---

(١) ينظر في معنى الآية: جامع البيان(٥/ ٤٣٢) ومعالم التنزيل(١/ ٣١٥) والمحرر الوجيز(١/ ٣١٣).

ومعونته.

ومن الأمور المهمة التي تؤخذ من هذه المجادلة، نوعية الحجج التي ذكرها إبراهيم عليه السلام، إنها حجج واضحة لا تعقيد فيها ولا تكلف، أمور عادية في هذا الكون الفسيح، كل الناس يشاهدها وكلهم يحسون بأثرها، يستوي في ذلك العالم والجاهل، والفقير والغني، وهذه المحسوسات مع بعدها عن التعقيد والتركيب إلا أنها تحمل في مضمونها وحقيقتها، سر هذا الوجود بحيث بهت الكافر أمامها.

ثالثاً: الداعية والمبادرة إلى الدعوة.

بعد أن تتضح معالم الهدى، ويتحدد للداعية هدفه، ويتسلح بالعلم، فلا مجال للإخلاد إلى الأرض والتسويف، واصطناع العوائق الوهمية أمام ميدان الدعوة، إن التأخر والتسويف لن يكسب الداعية إلا بلادة الذهن، وحب الركون وإِلْفَ الحياة الوادعة.

على الداعية إلى الله تعالى بعد أن يتسلح بالعلم ويتصور هدفه، أن ينزل إلى ساحة الدعوة، ليصارع قوى الشر في المجتمع، وإن أيّ تأخر بعد هذا لن يكون في صالح دعوته، إنما هو إمداد لأهل الغواية، وتَخْلِيةٌ للميدان من داعي الهداية.

لقد أخبر القرآن الكريم عن نفر تلقوا دعوة الحق، ومنها انطلقوا مباشرة إلى قومهم منذرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ .

قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأحقاف: ٢٩-٣٢] إنها حادثة عجيبة، تتحدث عن نوع غير معهود من الدعاة والمدعوين، فهاهنا عالم آخر يفتح لنا آفاقاً رحبة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، لا يقف عند حدود البشر، بل يتجاوزهم إلى عالم الأرواح اللطيفة.

لقد قص الله خبرهم وصورة من مبلغ تأثرهم بما سمعوا، وسرعة استجابتهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إن هذا التعبير يلقي بظلاله على الحدث، فالسرعة والنُّفْرة إلى الواجب بمجرد سماع آيات القرآن، معلم بارز في هذه الحادثة، وكم نحن بحاجة إلى هذه النوعية من المبادرة، فالهدى إذا اتضحت معالمه، كان التسويف والتأخير واصطناع العوائق الوهمية؛ ضرباً من الإخفاق وعدم التوفيق.

وحينما وعى الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى، كان الرجل منهم يسمع الآية أو الحديث فينطلق بها إلى قومه من غير تأخير، هذا ضمام بن ثعلبة لما قدم إلى النبي ﷺ وأخذ عنه أركان الإسلام، والحلال والحرام، كرّ عائداً إلى قومه، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى! قالوا: مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل كتاباً،

استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن إلا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه، قال فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضِرِه رجل ولا امرأة إلا مسلماً(١).

رابعاً: نُصْرةُ الدعاة إلى الله.

لقد تولى دعاة الله تعالى مهمة هي أعظم المهام وأخطرها، مهمة تنوء دون حملها شمُّ الجبال الراسيات، ولهذا فهم بحاجة إلى من يؤازرهم في مهمتهم، ويعينهم في أداء رسالتهم، يحتاجون إلى أعوان لا يترددون في بذل كل غال في سبيل هذه الدعوة، أناس لا يهنون لما أصابهم في سبيلها، ولا يضعفون لعدوهم ولا يستكينون.

وفي القرآن الكريم يذكر الله تعالى نموذجاً كريماً من نماذج نصرة دعاة الله تعالى، والوقوف معهم حتى يبلغوا رسالات ربهم، يتمثل في حواري نبي الله عيسى عليه السلام، الذين امتدح الله نصرتهم لنبيه، وأثنى على موقفهم، بل ودعا المؤمنين من هذا الأمة أن يكونوا مثلهم، ويقتدوا بهم في نصرة الله ورسوله، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف/١٤] لقد أثنى الله على نصرتهم لنبيه، وقيامهم معه حتى يبلغ دعوة الله، يقول تعالى ذاكراً تلك النصرة لما أحس عيسى عليه السلام الكفر من قومه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ

(١) أخرجه أحمد(٥/ ٤٨٨) وقال في مجمع الزوائد(١/ ٣٦١): "ورجال أحمد موثقون".

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: ٥٢ – ٥٣] قال ابن كثير: "والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: من رجلٌ يُؤْوِيني على أن أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلغ كلام ربي، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به وآزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه" [1].

وفضلاً عن هذا فإن دعاة الحق يعترض طريقهم الشيطان بأوليائه وأعوانه من شياطين الإنس والجن، بالكيد والمكر تارة؛ وبالتهديد والتلويح بالعنف تارة أخرى، وربما كان دعاة الحق لا يأوون إلى قوة تمنع عنهم أذى الظالمين وبطشهم، وكثيراً ما وقف الناس موقف النُظار يشاهدون دعاة الله تعالى يُكاد لهم، ويُمكر بهم، ويتعرضون للأذى والتضييق، وهم ساكتون سكوت الموت، لا ينصرون ولا يدفعون، غير أنه وإن تكن هذه حال غالب الناس، فهناك من يبذل نفسه وماله فِدى لدعاة الله، يرخص ماله وعرضه في سبيل الله، وتهون عليه نفسه في ذات الله، وفي كتاب الله تعالى نموذج مشرق لهذه الفئة من الناس، يتأسى به المؤمنون، حيث ذكر الله تعالى خبر المؤمن من القرية في سورة يس[2] يقول تعالى عنه: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥).

(٢) ينظر في خبره: جامع البيان(٢٠/ ٥٠٤).

رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٠ – ٢٥] لقد كان من خبر هذا الرجل أن رأى قومه معرضين عن الحق، مبعدين في الضلال، عازمين على ارتكاب أشد الجرائم فظاعة وبشاعة، جريمة قتل رسل الله، ولهذا انتفض على قومه وسعى إليهم من أقصى المدينة، ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم على رسل الله، فصاح فيهم بهذه الموعظة الصادقة، وقام نصرة لله ورسله، فكان جزاؤه أن أدخله الله الجنة في نعيم مقيم، وجوار كريم، فهو نموذج مشرق للتضحية في سبيل الله ونصرة لدعاته.

ومن النماذج البارزة في مجال نصرة الدعاة إلى الله تعالى وقول كلمة الحق: مؤمن آل فرعون، الذي ذكر الله خبره في سورة غافر(١)، يقول تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] لقد جاءت هذه الشريعة لِتُعْلِي من شأن كلمة الحق، ولا سيما حين تقال في وجه ملك يرغب إليه الناس ويرهبون، حينها تكون كلمة الحق أمامه لها تبعاتها الخطيرة، خصوصاً إذا علمنا ما انطوت عليه نفوس أهل

(١) ينظر في خبره: تفسير القرآن العظيم(٧/ ١٤٠).

السلطة من تسلط وتجبر، فحينما يقف أمامه رجل من سواد الناس، لا يملك من مقومات القوة المادية ما يدفع به عن نفسه، ويحجب عنها الأذى، ومع هذا كله يقف أمامه رابط الجأش، صادعاً بالحق، لا تأخذه في الله لومه لائم، حينها تكون هذه الكلمات منه هي أفضل الجهاد وأرفعه[١].

ومما يجعلها أفضل الجهاد أنها صيحة تحذير جاشت بها نفس المؤمن، إذ يعتزم فرعون وملؤه الإقدام على أبشع جريمة، جريمة قتل موسى عليه السلام، فلا مجال بعد هذا للسكوت عن الباطل، والتواري بالإيمان، والإغضاء عن المنكر، لقد وجب الآن الوقوف في وجه الطاغية، وقول كلمة الحق، حتى وإن كان ثمنها ذهاب نفسه التي بين جنبيه، ليصيح فيهم بكل ما أوتي من قوة: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ إنها كلمة مدوية، كلمة عظيمة، في موقف عصيب، تستحق كل ذلك الاحتفاء والثناء الذي تضمنته آيات القرآن الكريم لها.

---

(١) أخرج أبو داود[١٢/ ٤٨٢ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي] والترمذي[٨/ ٣٤٥ كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد] وابن ماجة[٢/ ٣٧١ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] وأحمد(٣/ ١٩) وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.أ.هـ وذكر الارناؤوط في تعليقه على المسند شاهدين له، ثم قال عنه: حسن لغيره.

خامساً: الداعية وداء العجلة.

لقد اختار الدعاة إلى الله تعالى مواجهة الناس، مواجهتهم في شهواتهم وأهوائهم وملذاتهم، ونذروا أنفسهم لهذه المهمة، فلا ريب أن يَلْقوا الصد والتكذيب، والأذى والتضييق، فعليهم أن يحذروا اليأس والاستسلام، أن يحذروا إلقاء السلاح والتخلي عن المعركة، وترك ميدانها، والانزواء خلف الجدران، وترك المجتمع تتقاذفه أمواج الباطل، فذاك أمرٌ يقدر عليه كل أحد، وما أيسره..

وفي كتاب الله تعالى عاتب الله نبياً كريماً من أنبيائه[1]، لما غضب على قومه، حين لم يستجيبوا له، فعجل في خروجه عنهم وهجره لهم، ولم يصبر حتى يحكم الله له، ولذا فقد نهى الله تعالى رسوله الكريم عن مثل هذه العجلة في مجال الدعوة فقال مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ – ٥٠] قال السعدي: " وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام، أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه "[2] إن مشقة الدعوة الحقيقة هي مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتي موعده في الوقت الذي يريده

(١) هو يونس بن متى، ينظر في خبره: تفسير القرآن العظيم(٥/ ٣٦٦).

(٢) تفسير الكريم الرحمن، ص: ٨٨١.

بحكمتـه، وفي الطريـق مشـاق كثـيرة، مشـقات دعـوة النـاس، ومشـقات تكذيبهم، ومشقات الصبر على أذاهم، ثم مشقات إمساك النفس على هـذا كله، راضية مستقرة، مطمئنة إلى وعد الله الحق.

سادساً: زوجات الدعاة.

إن مهمة الدعاة إلى الله مهمة عظيمـة، تتطلـب كثـيراً مـن التضـحية بالوقت والمال والجهد، تتطلب كثيراً مـن صـفاء الـذهن واجـتماع القلـب، ولهذا فهم بأشد الحاجة إلى أن تكون بيـوتهم التـي يـأوون إليـه مبـاءة أمـنٍ، وارفة الظـلال، يسـتريحون فيهـا اسـتراحة المحـارب، تهـدأ فيهـا أعصـابهم، وتسكن فيها أرواحهم.

إن الداعية إلى الله تعالى لا يستطيع أن يتصدى للدعوة إلى الله تعـالى خارج بيته، إذا لم يكن ذلك البيت واحة وارفة الظلال، لا يستطيع الداعيـة إلى الله تعالى أن يتقن القيام بمهمته، وهو مشغول الذهن بـما يـدور في بيتـه مـن خلافـات أو منغصـات، أرأيـت محاربـاً يخـرج إلى سـاحة القتـال وهـو مشغول الذهن بحصونه الداخلية.

وفي كتاب الله تعالى نموذج كريم لنسـاء الداعيـة الأول محمـد عليـه الصلاة والسلام، حيث أنزل الله تعالى عـلى نبيـه صـلى الله عليـه وسـلم آيـة التخيير، التي تضمنت تخيير نسائه بين البقاء معه على قلة العـيش وشـظفه، وبـين أن يسرحهـن سراحـاً جمـيلاً، فـما كـان مـنهن رضي الله عـنهن ـ وهـن العالمات بعظـم المهمـة التـي يقـوم بهـا النبـي صـلى الله عليـه وسـلم ـ إلا أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، على شظف العيش الذي يلاقينه في هذه

الدنيا، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩ ﴾ [الأحزاب: ٢٨ – ٢٩] إنه موقف كريم من نساء كريمات اخترن البقاء على شظف العيش والصبر على قلة أسباب الحياة، على زينة الدنيا ومتاعها، وتلك قدوة حسنة لزوجات الدعاة إلى الله تعالى.

إن زوجات الدعاة قد يلاقين شظف العيش وقلته، بل قد تجد الواحدة منهن إهمالاً من زوجها وعدم رعاية لها حق الرعاية، لانشغاله بالدعوة إلى الله تعالى، وقد ترى قريباتها ومن حولها في عيشة راضية لا يكاد الزوج يفارقهن، الأسباب لهن مهيأة والأحوال مواتية، أما هي - فلأن زوجها داعية إلى الله تعالى - لا تلقى ذلك الاهتمام، وتلك الرعاية، لا يكاد الزوج يجلس إليها حتى يأتيه داعي النفرة إلى الدعوة، يغيب عنها الأيام والليالي، وربما الأشهر، ولو أنه لم يكن داعية لاستراحت من هذا كله، حقاً إن مثل هذا الشعور قد ينتاب كثيراً من زوجات الدعاة، بل قد يجدن في نصوص الشرع ما يعضد موقفهن.

ولكن هل نظرت هذه المرأة إلى موقف أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وتأملت الحامل لهن على اختيار الله ورسوله والصبر على قلة متاع الدنيا، والتضحية بأوقاتهن وسعادتهن الخاصة من أجل الله ورسوله والدار الآخرة.

إن الدعاة إلى الله تعالى هم بأشد الحاجة إلى نساء يقفن بجانبهم،

ويذللن السبيل لهم، ويصبرن على مضاضة العيش، وضيق الحال، محتسبات عند الله تعالى راجيات ثوابه وفضله.

على نساء الدعاة إلى الله تعالى أن يعلمن أن من الصعوبة أن يواجه الداعية إلى الله تعالى هم الخارج وهم الداخل معاً، لن يستطيع الدعاة أن يواجهوا هم المجتمع وإصلاحه، وهم الأسرة المتمثل في المضايقة، وطول الشكوى، وكثرة التذمر من الحال، إن مثل هذا كفيل بأن يخلق اضطراباً في فكر الداعية، وتشويشاً في ذهنه، يمنعه من إتقان عمله، والقيام بواجبه.

ونحن إذ نطلب من زوجات الدعاة أن يضحين بحظوظهن من أزواجهن من أجل الله والدار الآخرة، فإننا لا ندعوها إلى ترك كل حقوقها وإهمالها، كلا.. لأن هذا حق فرضه الله تعال لهن، إننا ندعوهن إلى التنازل عن الحظوظ والفضول عن قدر الحاجة، ندعوهن إلى الوقوف مع أزواجهن وإعانتهم على مهمتهم، ندعوهن إلى أن يجعلن البيت مكاناً يستريح فيه الداعية من هموم دعوته، ويلقي على أعتابه الأذى الذي يلقاه.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

الأسرة لَبِنةُ المجتمع الأولى، وعنوان صلاحه وفساده، وصحتة وسقمه، إذا أَقمْتَ أسرة طيبة كريمة؛ أَقمْتَ مجتمعاً طيباً كريماً، والقدوة في المجال الأسري مجال بارز، تضمن عدداً من النماذج الحسنة التي يقتدي بها المرء في حياته، حيث نجد في القرآن الكريم الإشارة إلى نماذج متنوعة متعددة للقدوة، نشير منها إلى بعض أبرز تلك النماذج:

أولاً: تربية الأبناء.

تربية الأبناء هي المهمة الرئيسة الموكلة إلى الأسرة، وهي أخطر المهام وأبعدها أثراً، فالأبناء شُداةُ المستقبل وأمل الأمة، وإلى هذا المعنى يشير النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمَجِّسَانِهِ**))[1].

وفي القرآن الكريم نماذج للقدوة الحسنة في تربية الأبناء، أبرزها ما جاء في وصية لقمان لابنه، حيث تمثل منهجاً في تربية الأبناء والأخذ بيدهم نحو مسالك الهدى والرشاد، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه[١٠١٥ كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله] ومسلم في صحيحه[٤/ ١٦٢٤ كتاب القدر].

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ – ١٩] لقد تضمنت وصايا لقمان لابنه عدداً من المعالم البارزة في تربية الأبناء، يقتدي بها الآباء والمربون، ومنها:

- إن تربية الأبناء على معرفة خالقهم المنعم عليهم، هي أول ما يجب على الأسرة المسلمة؛ لأن معرفة الله تعالى بما له من جميل الصفات وجليلها، يورث في النفس محبة الله وتعظيمه، وتحقق معنى العبودية الخالصة له عز وجل من كل مظاهر الشرك وصوره.

ولهذا رأينا لقمان يؤكد على هذا المعنى، ويلفت نظر ابنه إلى كمال قدرة الله تعالى وبالغ علمه بخلقه، على نحو يملأ النفس من عظمة الله ومقامه.

إن الإيمان بالله تعالى يورث الاستقرار في حياة الإنسان، ويضبط السلوك، ويعمق في النفس الشعور بمراقبة الله تعالى واطلاعه، وهذا كله يحقق ضبط سلوك الأبناء وأفعالهم.

إن من واجب الآباء والمربين، أن يغرسوا في ضمائر النشء مراقبة الله

تعالى واطلاعه على أعمالهم، حتى ينشأوا على مبدأ الرقابة الذاتية الصادرة عن ضمائرهم.

- وبعد التأكيد على حق الله تعالى ـ أعظمِ الحقوق وأولِها ـ يأتي التأكيد على حق الوالدين، فحقهما أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى، لا يؤثر على هذا الحق حتى كفرهما بالله عز وجل.

غير أن حق الوالدين وإن عظم فهو تابع لحق الله تعالى، ولهذا لا يجوز متابعتهما على الباطل حتى ولو سعيا جاهدين في صرف ابنهما إليه

- وفي ثنايا ذكر مجاهدة الوالدين الكافرين في محاولتهما إضلال ابنهما؛ يأتي التأكيد على أهمية اتباع سبيل المؤمنين المنيبين إلى الله تعالى، للتأكيد على أهمية الاقتداء بأهل الاستقامة وسلوك طريقهم في مَسِيْرِهم إلى الله تعالى.
- وأمر الأبناء بالمحافظة على أركان الدين وشرائعه الكبار، ركن أصيل في تربيتهم، فتلك شعائر الإسلام العظام، لا يجوز التهاون بها والتسامح فيها، وجاء النص في وصية لقمان على شعيرة الصلاة، لأنها أعظم الشرائع، وهي الصلة بين العبد وربه، وكم جميل أن ينشأ الأبناء على حسن الصلة بربهم وخالقهم منذ نعومة أظفارهم.

ومما يجدر لفت النظر إليه أن لقمان لم يأمر ابنه بالصلاة وإنما أمره بإقامتها، ولفظ الإقامة يدل على الاستقامة المنافي للعوج، وظلال هذا اللفظ توحي بأداء العبادة على أكمل وجه وأوفاه، إن على الآباء والمربين أن يكون اهتمامهم متجهاً إلى إتقان الأبناء لما يكلفون به من شعائر

العبادة أو حتى تلك الواجبات الدنيوية، وليس مجرد أدائها ظاهرياً دون إتقان وإحسان.

- بعد التأكيد على حق الله تعالى ـ حق التوحيد والعبادة ـ وحق الوالدين؛ يأتي التأكيد على مبدأ العلاقة الإيجابية مع المجتمع الذي يعيش فيه، تلك العلاقة التي تتميز بالتفاعل المثمر، الذي يجعل المرء يشعر بمسؤوليته الاجتماعية تجاه مجتمعه وناسه الذين يعيش معهم، ولهذا وجدنا لقمان يأمر ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى الذي يلحقه بسبب هذا، كما نجده يحذره من بعض الآفات التي تنافي العلاقة الاجتماعية الإيجابية مثل: كبر النفس وغرورها، وإعجابها بما تملكه.

إن نشأة الأبناء على هذا المعنى الاجتماعي الكبير؛ يثمر جيلاً متماسكاً متعاطفاً، إيجابياً تجاه مجتمعه وناسه الذي يعيش بينهم.

- بقي أن نقول إن هذه الوصية تلفت النظر إلى العلاقة الوثيقة بين الاب وابنه، ومدى القرب بينهما، ولهذا كانت الوصية، تفيض حناناً ورحمة، ومحبة وشفقة، حيث يوصي الأب ابنه وفلذة كبده، فيدله على خير ما يعلم، ويحذره من شر ما يعلم، بأسلوب غاية في العطف والحنو، يستثير كوامن النفس وإدراكها، ويخاطب وجدانها وعقلها، وهكذا يجب أن تساق الوصايا والمواعظ، فليس لأنك أب أو مربٍ تلقي الكلام هكذا أمراً ونهياً، بل لا بد أن تتخير أجمل الألفاظ وأرقها، تخاطب بها عقول الأبناء وأرواحهم.

وبعد.. فتلك وصية لقمان لابنه متضمنة أصول التربية وأسسها، وهي ترجع في مضمونها إلى أساسين:

أولهما: تربية الأبناء على الوفاء بالحقوق، وأعظم تلك الحقوق: حق الله تعالى في توحيده وعبادته، ثم حق الوالدين في الإحسان إليهما وحسن صحبتهما.

ثانيهما: تربيتهم على التفاعل الايجابي مع المجتمع: وصورته الجلية في الأمر بالمعروف، كل معروف، والنهي عن المنكر، كل منكر، بما يقتضيه هذا التفاعل من الصبر على الأذى الذي قد يلحقه جراء ذلك، وكذلك ترك بعض المسالك السلبية من الكبر والغرور.

تلك بعض المعالم البارزة في وصايا لقمان لابنه، بما تضمنته من دلالات عميقة في علاقة الأب بابنه، ومعالم تربوية في تنشئة الأبناء، ودِلالتهم على خير ما يعلم لهم، وكلها معالم يقتدي بها الآباء والمربون، وهم يقومون بواجب تربية الأبناء والعناية بهم.

ثانياً: الأسرة وشعائر الدين.

وفي نموذج آخر يمثل قدوة للآباء، وهم يتعاهدون أهليهم في القيام بشعائر الله، والمحافظة عليها، تتمثل هذه القدوة في نبي الله إسماعيل عليه السلام، حيث أثنى الله تعالى عليه، فكان مما ذكر تعالى ثناءً عليه، تعاهده لأهل بيته في قيامهم بشعائر الله، وأعظمها الصلاة والزكاة، فهذه الشعائر العظام لا مجال للتهاون فيها مع الأهل والأبناء، فهي أساس الدين، ولهذا نص الله تعالى عليها وهو يثني على نبيه إسماعيل؛ فقال: ﴿ وَكَانَ

يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٥] وثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام في تعاهده لأهل بيته في شعيرة الصلاة والزكاة؛ تنبيه بالغ على أهمية تعاهد الأهل، وفيها دلالة على منزلة هاتين الشعيرتين من الدين

إن مما يؤسف له تهاون أصحاب المسؤولية والرعاية على أهليهم، وعدم تعاهدهم في شعائر الدين، ولا سيما العظيمة منها، وهذا من تضييع الأمانة وغش للمسؤولية، وقد توعد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ببالغ العقوبة ففي الحديث الذي أخرجه الشيخان: ((**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**)) [(١)].

ثالثاً: الأسرة والشائعات.

يكثر حديث أفراد الأسرة الواحدة فيما بينهم عن أخبار الجيران، وأحوال الأصدقاء والقرابات، يتجاذبون أطراف الحديث فيها، ويتسامرون عليها، وتطلق الألسنة من غير روية في نقل الأخبار، وربما زاد الراوي، ووهم السامع، ولا مجال للتثبت فيها، ولا للتأكد منها، فهي أحاديث الأهل والأسرة، إنما تقال تزجية للوقت، وقضاء على الفراغ، ويملؤ جو الأسرة بالشائعات والأخبار السيارة، وتصبح أعراض الناس لقمة تلوكها ألسنتهم، وفاكهة يسمرون عليها، وهذا النوع من الأحاديث

(١) أخرجه البخاري[١٤١٩ كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح] ومسلم[١/ ١١٦ كتاب الإيمان] واللفظ له.

خطر جداً، لأن ما تتداوله الألسن اليوم، على أنه حديث أسرة، وتزجية وقت، لا يبرح أن يفشو ويظهر، ويتناقله الجيران والناس، حتى يشاع وينتشر، ليكون بعد هذا من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وقد توعد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم؛ وذلك أن المجتمع الذي تسري فيه مثل هذه الشائعات؛ لا يبرح أن تتقطع أوصاله، وينحل عقد رباطه.

وفي كتاب الله تعالى نموذج لمثل هذه الشائعات التي تتناقلها الأسرة حتى تذيع بين الناس، في حادثة الإفك المشهورة التي وقعت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه والسلام الطاهرة المبرأة، حيث رُميت في عرضها الطاهر، وتناقل الناس هذه المقولة دون وعي أو إدراك، دون تبصر أو تأمل، بل حتى دون تثبت وتبين، ويالله العجب كيف جاز على قلوب المؤمنين وعقولهم مثل هذا الإفك، تُرمى به زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا يصور تعالى مقدار الغفلة التي وقع فيها الناس، بقوله عز وجل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وتأمل هنا دقة التعبير وجمال التصوير حيث جعل تعالى تلقي الناس لخبر الإفك بالأفواه، مع أن تلقي الأخبار يكون بالأسماع؛ ليشير إلى أنه كان تلقياً خلا من الوعي لهذه المقولة، والتبصر بعاقبتها، والتأمل في حقيقتها، فالناس يتلقون الخبر بالأفواه ليغادر أفواههم مرة أخرى بلا أدنى نظر أو تعقل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يقول ابن عاشور" جعلت الألسن آلة للتلقي على طريقة

تخييلية، بتشبيه الألسن ـ في رواية الخبر ـ بالأيدي في تناول الشيء، وإنما جعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع؛ لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر، جعلت الألسن مكان الأسماع... وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به، بلا ترو ولا تريث... ووجه ذكر: ((بأفواهكم)) مع أن القول لا يكون بغير الأفواه؛ أنه أريد التمهيد لقوله: ((ما ليس لكم به علم)) أي هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه"[(١)].

لقد عاتب الله تعالى المؤمنين عتاباً بالغاً بسبب تفريطهم في مكافحة هذه الإشاعة، ولما برأ الله تعالى أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها من هذه المقولة وسماها إفكاً ـ وهو أشد الكذب ـ أرشد المؤمنين إلى المنهج الصحيح في التعامل مع هذه الشائعات، فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] وهاك هذا الموقف الكريم من الصحابي الجليل الذي تمثل هذا التوجيه الكريم لما سمع تلك المقولة الإفك تسوقها إليه زوجه، روى ابن جرير: (أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله! قال: فعائشة والله خير منك)[(٢)].

(١) التحرير والتنوير(٩/ ٤٤٩).

(٢) جامع البيان(١٩/ ١٢٩).

إنه المنهج الراشد الواعي الذي يجب أن تقتدي به الأسرة المسلمة، ومن ورائها المجتمع كله في التعامل مع الشائعات، حيث ينزل الإنسان نفسه وأهله منزلة من يُقالُ فيه ويُنقلُ عنه، أكان هو أو أهله يفعله أو يقوله، فإذا برأ نفسه وزكاها، فكيف يتهم غيره من المؤمنين.

رابعاً: الفتيان والفتيات.

الشباب زهرة الأيام، والفترة الذهبية في حياة الإنسان، تجتمع فيها كل القوى، وتتكامل فيها مختلف الطاقات؛ ولهذا فهي أشد المراحل تأثيراً على الإنسان، غير أن هذه الطاقات عندما تنطلق من غير قيد أو ضبط؛ تمسي معاول هدم وفساد، ولذا عُني الإسلام بهذه المرحلة عناية خاصة، حتى جعل السؤال عن فترة الشباب، أحد الأسئلة الأربعة التي يُسأل عنها العبد يوم القيامة، ففي الحديث الذي رواه معاذ بن حبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**)[1].

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الفترة الدقيقة من حياة الإنسان، فذكر نماذج لفتيان وفتيات صالحين يعدون قدوة حسنة للشباب، فهم نماذج خير لشباب وفتيات استطاعوا أن يوظفوا طاقاتهم وقدراتهم، في جانب الخير والبناء، فكانوا نماذج مشرقة يقتدي بها الفتيان والفتيات، نشير إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير(٢٠/ ٦٠) وقال في مجمع الزوائد(١١/ ٢٦٧): "رجال الطبراني رجال الصحيح، غير صامت بن معاذ وعدي بن عدي الكندي، وهما ثقتان".

ثلاثة منها:

- **يوسف وأيام المحن.**

من أبرز تلك النماذج؛ يوسف عليه السلام، فحياته كلها تمثل الأنموذج الأكمل، الذي يقتدي به الشباب، في شتى مواقف حياتهم؛ إذ كانت حياته مثالاً يُحتذى، ورمزاً يتطلع له كل من تسمو نفسه إلى العُلا، حتى جعل الله تعالى من خبره وما جرى له مع إخوته آيات بينات للسائلين، يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]

لقد تعرض لشتى المحن وأنواع البلاء، بسبب ما وقع في قلب إخوته من غَيْرة، حملتهم على الكيد له، والسعي لصرفه عن وجه أبيهم يعقوب عليه السلام، فكان ما كان من إلقائه في ظلمة البئر، لتبدأ بعد هذه الجريمة من إخوته رحلة طويلة مع أنواع الفتن والبلاء، تبدأ بهذه الظلمة الموحشة في بئر عميق، وهو غلام صغير، لينتقل بعدها إلى الرِّق وما فيه من ذل العبودية وهوانها، وهو الكريم ابن الكريم، من غير ذنب اجترحه، ولا إثم ارتكبه.

لينتقل بعد هذا إلى بيت عزيز مصر، حيث نشأ فيه ودرج، حتى بدت عليه مخايل النجابة، على ما فيه من الحسن والجمال الظاهر، وفي البيت كانت امرأة العزيز، تطالعه صباح مساء، تنظر إليه فلا يخفى عليها من أمره شيء، ترقب حركاته وسكناته، ولا تلبث أن تؤخذ به، ويأسرها جماله فتعشقه كأشد ما يكون العشق، ويستحكم الأمر حتى لم تعد النظرات اللاهثة تكفي، بل تحولت إلى دعوة صريحة: "هيت لك" وهنا يظهر موقف

الشاب الملتزم بدينه المستعلي على الشهوات: "معاذ الله"!

ألا يحق أن نتساءل لماذا هذا الصد والمنع ؟ مع كونها امرأة جميلة، قد حازت إلى ذلك السلطة، وهي سيدته، وهي الداعية، وهو غريب لا يخشى عاراً ولا شناراً، ثم هو شاب فيه كل ما في الشباب من رغبة؟ لماذا ؟ هل يخاف العزيز ؟ أبداً فهو يعرف العزيز ويعرف حاله؟ هل يخاف الخدم ؟ أبداً فالأعين نائمة والأبواب مغلقة والأماكن خالية، ثم من يجرؤ على دخول مخدع السيدة، وقد هيأته! ثم مع هذا كله يمتنع أشد ما يكره الامتناع، ويأبى كل هذا الإباء! إنه الإيمان والتقوى التي تحجز المؤمن عن الخوض في مستنقع الرذيلة، والتدنس بآثامها، إنها المراقبة الدائمة لله، فإن غَفَلَ العزيز، وسَهَا الحرس، ونام الناس، فالله حيّ لا ينام، يسمع ويرى.

وبعد هذا كله هل تنتهي هذه المحنة ؟ كلا.. لقد كشفت المرأة عن سعار الشهوة، فتهدد بالسجن، وتلوح به، بل وتلجأ إلى الإغراء من جديد، فلا تمانع من مساهمة النساء في محاولة إغراء يوسف، وإقناعه بالخضوع والاستسلام، وهنا يعظم الخطب على الفتى يوسف، وتشتد عليه المحنة، فلا يجد إلا أن يضرع إلى الله تعالى أن يقيه شر ما يجد ويحاذر: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣ – ٣٤] "لقد اختار السجن وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه، وجماله، وكماله، تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال، والمال، والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله

ورجاء ثوابه"[١] ثبت في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺأنه قال: (**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله... ـ وذكر منهم ـ شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**)[٢].

ينتقل الفتى يوسف عليه السلام بعد هذا من رغد عيشٍ قد اعتاده، إلى شظفٍ لم تعتده نفسه، ولم يألفه طبعه، فلا تتحطم نفسه ولا يأسى قلبه، بل يجد فيه ميداناً لنشر العقيدة والدعوة إليها، فلم يبرح غير قليل حتى مالت إليه قلوب السجناء وعواطفهم، لما توسموا فيه من الخير، وحدث أن عرض عليه اثنان منهم رؤيا وطلبا إليه أن يفسرها، وهنا يستشعر يوسف ولاءه لدينه، إن سجنه لا يعفيه من مسئولية هذا الدين، فما كان منه إلا أن جعل حاجتهما إليه مدخلاً لقلوبهما، فيؤكد لهما قدرته على تفسير هذه الرؤيا، ثم يشرع في عرض الدعوة مستغلاً إنصاتهما له ثم يخلص إلى تفسير الرؤيا.

وحدث أن رأى الملك رؤيا أعجزت الملأ عن تأويلها، وهنا يتذكر أحد الغلامين قصته مع يوسف فيذهب إليه ثم يعود إلى الملك بتأويل الرؤيا، وفي تأويل يوسف للرؤيا ما يدل على كمال خُلُقِه، فهو مع كونه قد سجن ظلماً كل هذه السنين، لم يمتنع عن تنبيههم إلى الخطر القادم، بل ويرشدهم إلى طريقة النجاة منه، ويصل التأويل إلى الملك فيعجب ويسأل

(١) تفسير القرآن العظيم(٢/ ٧٣٨).

(٢) أخرجه البخاري[١٣٢ كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة] ومسلم[٢/ ٥٩٠ كتاب الزكاة].

عن صاحبه ويرسل إليه بإطلاق سراحه، وهنا يأبى يوسف إلا أن يقف مرة أخرى موقفاً عجباً، إنه لا يريد الخروج كشخص أُدين ثم عُفي عنه، كلا فهو طاهر الثياب، ويجب أن يظهر للناس حقيقة ذلك، لقد أكبر المصطفى عليه السلام وهو خاتم الأنبياء هذا الموقف من يوسف فقال: (**يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي**)(1).

ويسير يوسف مع تقلب الأيام بين نعمة ومحنة وتسند إليه الوزارة فيصير له أمر مصر ويؤمهُ أهلها، ويأتي إخوته فيستحضر ما قد جرى منهم وما كان بينهم، والآن وقد أصبحوا بين يديه وتحت سلطانه، ألا يحق له الثأر لنفسه وقد ظُلم، وفرقوا بينه وبين أحب الناس إليه؟ ألا يحق له أن يعاقبهم وهم المعتدون ؟ كلا.. إنها النبوة، إنها الرحمة والإحسان، لقد صفح عنهم بل وزاد فوق هذا أن دعا لهم واستغفر.

ثم بعد كل هذه الأحداث المتلاحقة تتحقق رؤيا يوسف التي قصها على أبيه يوم كان فتى صغيراً، واجتمع له أهله وذووه مع عز السلطة والنفوذ، وهنا يتذكر يوسف ما مرّ به وما لاقاه، ويحس بأثر النعمة، فتتوجه نفسه وقلبه إلى ربه يحمده ويشكره، ويسأله أن يتوفاه على الإسلام مع أنه نبي الإسلام والداعي إليه، وهذا من كمال معرفته بالله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه[٦٩١ كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ونبئهم عن ضيف إبراهيم] ومسلم[٤/ ١٤٦٧ كتاب الإيمان] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وبعد.. فإن قصة يوسف عليه السلام نموذج رائع لشباب الإسلام، ومثال رفيع في التعالي على المغريات والشهوات مهما تنوعت، نموذج للشاب المعتز بدينه عن شراك الهوى، لا تزيده الفتن إلا تمسكاً بدينه، وانقطاعاً إلى ربه، لقد تقلب في فتن متعددة متنوعة بعضها كان يكفي لإسقاطه، لكن هي رحمة الله لعبده المؤمن.

إن الشاب الملتزم بدينه المستعلي بعقيدته على هذه الأدناس؛ ليشعر بالفخر والاعتزاز وهو يسير في موكب هذا النبي الكريم، موكب العفة والطهر، فما أجمل أن يكون الشاب طاهر الباطن والظاهر، في الحديث عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة**) [(١)].

- **أصحاب الكهف "فتية آمنوا بربهم".**

فتية ـ أيضاً ـ ضربوا أروع نموذج في الاستمساك بالحق والصبر عليه، والبعد عن الدنيا وزخرفها، والتعلق بما عند الله، حتى أنزل الله تعالى قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، يخلد ذكرهم ويثني عليهم، ليكونوا نموذجاً يقتدي به كل الشباب الذين يضيق عليهم في دينهم، ويفتنون في عقيدتهم.

حينما يكون المجتمع وثنياً في كل صوره وجميع موروثاته، وحينما

---

(١) أخرجه أحمد(٤/ ١٥١) وحسنه في مجمع الزوائد(١١/ ١٧٢) وقال الأرناؤوط في تعليقه على المسند: حسن لغيره.

والصبوة: الميل إلى الهوى. ينظر اللسان، مادة: صبا.

تندرس معالم الشرائع الإلهية، ويخبو نورها، وحينما يكون المؤمنون قلة مستضعفة، لا تملك شيئاً أمام قوة أهل الأوثان المتعصبين لعقيدتهم، المستميتين دفاعاً عنها، حينها لابد من الانفصال عن هذا المجتمع والبعد عنه؛ لأن مجتمعاً ـ كهذا ـ قد طمست معالم الخير فيه، وأصبح وجود فئة قليلة تخالف هذا المجتمع في الأفكار والمعتقدات والتصورات، أصبح وجودها أمراً غير مقبول مطلقاً، لا يجوز السكوت عليه.

وحين يشعر المؤمنون المستضعفون بهذا الواقع يهدد كيانهم، ويعرضهم للفتنة والاضطهاد، فإنه لابد من الخروج عن هذا الواقع محافظة على هذا الكيان وإبقاء لجذوة الإيمان، ترى هذا المعنى بارزاً واضحاً كل الوضوح، حينما تقرأ أوائل سورة الكهف.

يشدك في قصة أصحاب الكهف أن أبطالها فتية، والفتية من طبعهم حب الدنيا ولذاتها، والاسترواح إلى مُتَعِها، غير أن من يواجهنا هنا فتية زهدوا في هذه المُتَعِ، بل رغبوا عن الأهل والمال والوطن، رغبوا عن هذا كله فراراً بعقيدتهم، ونجاة بشعلة الإيمان التي قد توأد في ظل هذا المجتمع الوثني، إنه موقف عجيب رائع استحق أهله أن تجري لهم المعجزات، وأن يُخلد ذكرهم في قرآن يتلى، ليكونوا أسوة لمن يضطهدون من أجل عقيدتهم، وصدق الله القائل: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

- **فتاتا مدين.**

نموذج رائع لفتياتنا يقتدين به، حيث قص الله تعالى خبر فتاتي مدين

مع نبي الله موسى عليه السلام، وما تضمنه خبرهما من معاني العفة والحياء، والصيانة والديانة، فلم تكن حاجتهما وغياب الرقيب عنهما؛ سبباً يحملهما على التهاون في صيانة نفسيهما، وحشمة سلوكهما.

لقد جعل الإسلام مكان عمل المرأة البيت، وجعل وظيفتها الأساس القيام على شؤون الأسرة، وحينما يكون خروجها إلى العمل خارج البيت بسبب الحاجة إلى ذلك؛ فإن الإسلام لا يمنع ذلك وفق شروط ومحترزات، تحفظ عفة المرأة وطهرها، وتبقي على خصائص الأنوثة فيها، بعيداً عن مواطن عمل الرجال، وما يستتبع ذلك من ضرر على المجتمع وأخلاقه.

وقد ضرب القرآن الكريم نموذجاً لمثل هذه الحاجة، وصور كيف تكون المرأة المسلمة مع خروجها عفيفة طاهرة يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٣ – ٢٦] فتاتان خرجتا لتسقيا غنمهما، وقد عدمتا من يقوم بهذه المهمة، وتظهر لك العفة في سلوكهما حيث تجنبتا مخالطة الرجال ومزاحمتهما، فوقفتا هناك.. هناك بعيداً عنهم، حتى إذا قضى القوم استقتا، ويظهر لهما رجل عليه علائم القوة

والطهر، يسألهما وقد رأى من حالهما في حبس غنمها ومنعها من السقي ما أوجب سؤالهما عن ذلك، فتجيبانه بجواب مختصر لا تكسر فيه ولا تميع، ويزاحم القوم ويسقي لهما، ثم يتولى مباشرة إلى الظل، فلا يجعل تلك الخدمة طريقاً إلى التطفل عليهما واستغلالهما، ولعل هذا ما حدا بالفتاة أنه تصفه بقولها "الأمين".

وما يلبث أن تأتي إحدى الفتاتين على استحيا تمشي مشية الحرائر العفيفات، ثم تقول له بعبارة فيها أدب، إذ لم تطلبه مطلقاً لئلا يوهم ريبة: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ عبارة موجزة تؤدي الغرض، ولا تطمع متشوفاً، ولا توهم جاهلاً.

وحينما يقدم هذا الشاب إلى الشيخ يحادثه، تختلي الفتاة بأبيها وتعرض عليه بأدب جم وحياء ظاهر أن يستأجره، وتثني عليه، ويفهم الأب مرادها، إن الفتاة الطاهرة العفيفة لا تخجل من حرصها على إعفاف نفسها في أمر فطري، لكنها في طلبها لم تلجأ إلى الطرق الملتوية، والمسالك المعوجة، بل عرضت الأمر على أبيها، بأدب وحياء جمّ.

إنه نموذج كريم للفتاة الملتزمة بدينها المحافظة على عفتها، التي تصون كرامتها، وتحفظ حيائها، حتى وإن ألجأتها الحاجة إلى الخروج من بيتها نموذج يشرف فتياتنا الاقتداء به والتأسي بصاحبته.

خامساً: المرأة.

شقائق الرجال؛ نصف المجتمع، وأساس الأسرة، وفي القرآن نماذج

رائعة للمرأة الكريمة الطاهرة، التي تنجب الأبناء الكرام، وتربي شُـدَاةَ المستقبل، وفي مقدمتهم المرأة الصالحة مريم بنت عمران، حيث كانت ومنذ نشأتها فتاة متميزة بصلتها بربها، وحفاظها على طهارتها، حتى اختارها الله تعالى أُمّاً لنبيه الكريم المسيح عيسى بن مريم، ولتكون أُمّاً معجزةً لابنٍ معجزٍ، ولهذا جعلها الله وابنها آية باقية للعالمين، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١] إنها نموذج للمرأة الصالحة التي نشأت منذ صغرها على حسن الصلة بالله تعالى، وتمام العبودية له، مع حفظ عفافها وطهر أخلاقها، حتى أثنى الله تعالى عليها بهذين الخُلقين خلق العبودية وخلق العفة فقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢].

وامرأة أخرى هي قدوة في عدم الغرور بفتنة السلطة والمال، نعني بذلك امرأة فرعون، تلك المرأة الصالحة، التي لم تُبْهِرها فتنة الزينة والجمال، كما تُبهِر غالب النساء، ولم تغرها فتنة الجاه والسلطان، كما يُغَرُّ بها جُلُّ النساء، ولهذا وجدناها تؤثر ما عند ربها على مُلك فرعون، وزينة فرعون، ومال فرعون، حتى قالت بقلب مُخْبِتٍ منيب إلى ربها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١] ولهذا كله استحقت أن تكون من النساء القلائل الكُمّلِ، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن**

فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) [1] لقد استحقت هذه المرأة الكريمة أن تكون مثالاً يضربه الله تعالى للمؤمنين، باقياً على مرّ العصور، بقرآن يتلى ما تعاقب الليل والنهار، يقول الله تعالى عنها وعن أختها مريم بنت عمران: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١ – ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري[٧٠١ كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: وضرب الله مثلاً..] ومسلم[٤/ ١٥٠٣ كتاب فضائل الصحابة، باب فضل خديجة].

المطلب الثالث: المجال السياسي.

الجانب السياسي في حياة الناس بالغ الأهمية، إذ معقد الأمر كله عليه، به تنتظم حياتهم، وتستقيم شؤونهم، وتصان حقوقهم، لا يمكن تصور اجتماع جماعة من الناس بغير نظام يسير شؤونهم، يعرف به كل أحد منه حقه الذي له، وواجبه الذي عليه.

وإذا ذُكرت السياسة تبادر إلى الذهن أول شيء الحكم والحكام، فهم رأس النظام السياسي، وعنوانه الدال عليه، وفي كتاب الله تعالى نماذج مشرقة لحكام ساروا في رعيتهم سيرة العدل، لم تطغهم قدرتهم، ولا غرتهم قوتهم، نقف على ثلاثة من تلك النماذج، كل نموذج منها يَشِفُّ عن جانب أساس في الحكم:

أولاً: الرجوع إلى الحق.

قل أن تجد في الناس من ينصف من نفسه، فينقاد للحق حتى لو خالف رأيه، ويرجع إليه حتى لو سلك طريقاً سواه، فكيف إذا كان ذلك من مَلِك قوله نافذ، وحكمه قاطع، وفي كتاب الله تعالى نموذج كريم، لنبي كريم، كان مثال التواضع والرجوع إلى الحق، ذلك ما كان من خبر نبي الله داود عليه السلام، يقول تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩] وفي بيان هذه الآية، والواقعة التي تضمنتها وحكم داود عليه السلام فيها، أخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

(كَرْمٌ قد أَنْبَت عناقيده فأفسدته ـ يعني: الغنم ـ قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان غير هذا يا نبيّ الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكَرْم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكَرْم فيصيب منها، حتى إذا كان الكَرْم كما كان؛ دَفعت الكَرْم إلى صاحبه، ودَفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) [1].

إن الأوبة إلى الحق، والرجوع إلى الصواب، خُلق عالٍ شريف، تضعف عنه أكثر النفوس، وتعجز دونه أكثر الرجال، ويعظم هذا في ظل سطوة السلطة، وقوة الجاه والملك، إذ يكون الرجوع فيها إلى الحق أمراً بالغ الصعوبة قلّ من يستطيعه.

إن هذا الخبر يمثل قدوة حسنة لكل حاكم وقاض، في الرجوع إلى الحق، فالحق أحق أن يُتبع ويُرجع له، ويُصار إليه، فهاهنا داود عليه السلام ـ وهو الملك، وقبل هذا هو النبي المرسل من الله عز وجل ـ يحكم في قضية حكم حق وعدل، لا ظلم فيه، ولا يُعَاب عليه، فقد رأى أن قيمة ما أُتْلِف من زرع أصحاب العنب، يكافئ قيمة الغنم؛ فحكم بالغنم لهم، ومع هذا لم يمنعه ذلك أن يرجع إلى الحق، إلى أولى الأمرين، وأنفع القضائين، لم يجد غضاضة في نفسه أن يأخذ بحكم غيره، لما كان أولى من حكمه، وأنفع للخصمين، لم تحمله عزة الملك والسلطان، وأنفة النفس من الرجوع إلى الحق، في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، وفي ذلك أسوة عظيمة لأهل الحكم

---

(١) جامع البيان(١٨/ ٤٧٥).

والقضاء، أن يكون الحق رائدهم، لا تعميهم السلطة والقوة عنه.

ثانياً: الحاكم المتواضع.

التواضع خلق كريم قل من الرجال من يبلغه، ولا سيما إذا وجدت أسباب القوة التي تطغي الرجال كالجاه والسلطان، وشخصية نبي الله سليمان عليه السلام تُمثل - بحق - نموذج الحاكم المتواضع، الذي أُعطي أسباب القدرة والقوة، حتى سخرت له الريح، وحشرت له الجنود، من الجن والإنس والطير، حتى لم يوجد مَلِك في الأرض، اجتمع له من أسباب القوة مثل ما اجتمع له عليه السلام، وخير مثال على تواضعه ما ورد في سورة النمل من خبره مع ملكة سبأ، فمع ما في هذه القصة من جوانب أخرى للقدوة: كالعدل، والحزم، واليقظة، وحسن سياسة أمور الدولة، وتدبير شؤونها، إلا أن خبر النمل وواديها، وخبر عرش ملكة سبأ يستوقفنا ملياً، لنلحظ فيهما معاني التواضع الكريم في نبي الله سليمان عليه السلام.

أما خبره مع واد النمل فقد قال الله تعالى عنه: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٧ – ١٩] هذا سليمان عليه السلام وسط جيشه، هذا الجيش الغريب الذي يتألف من فرق عجيبة من شتى الأجناس والكائنات من الجن.. والأنس.. والطير، جيش لا كالجيوش يجوب الأرض يقطعها، وقد جمع

أوله مع آخره، على نحو تنتظم به صفوفه، وتتسق فيه خطاه، فلا يضطرب ولا يختلط[1]، وفي طريقهم يمرون على واد النمل، فتصيح نملة في قومها، تحذرهم أن يقفوا في طريق هذا الجيش الجرار، فيحطمهم بأقدامه وهو لا يشعر.

حتى إذا سمع سليمان هذه الكلمات من النملة تبسم لها، تبسم من يرى صغيراً يفر منه يخاف أذاه، وهو لا ينوي به شراً، وتبسم مرة أخرى لهذه النعمة التي وهبها الله له، فجعلته على صلة بهذه الكائنات العجيبة، وهنا يتحرك قلب هذا الملك العظيم الذي أوتي أسباب القدرة والقوة، يتحرك قلبه لا فخراً وكبراً، أو غروراً وعُجباً، ولكن تواضعاً لربه، واعترافاً بفضله، يتحرك قلبه متجهاً إلى صاحب النعمة والفضل، يدعوه ويرجوه أن يلهمه شكر هذه النعمة، والقيام بحقوقها، ويسأله أن يدخله في ركب الصالحين وموكبهم، وسبحان الله! كيف يكون كمال المعرفة بالله تعالى، هذه المعرفة التي تجعل المرء لا يأمن على نفسه أن تزل به القدم، مع أنه النبي المرسل من الله، فلا يزيد على أن يسأل ربه أن يدخله في موكب الصالحين وركبهم، وهذا هو تواضع العارفين بالله تعالى، لا تزيدهم وسائل الدنيا وأسبابها إلا معرفة بالله عز وجل، وتعظيماً له.

---

(١) هذا النظام يشير إليه التعبير بلفظ يوزعون في الآية، قال ابو السعود (٥/ ١٧٧): " أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، أي يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالي، فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر".

ومثل هذا الموقف الكريم الدال على مبلغ التواضع والخشوع لله تعالى؛ موقف آخر له عليه السلام، لا يقل شأناً عن هذا، إنه خبره مع عرش ملكة سبأ، يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ – ٤٠] سبحان الله! أي سلطان وقوة تبلغ هذا المبلغ العظيم! حتى إن عرش مملكة يساق له، على هذا النحو، ليكون بين يديه وتحت تصرفه في لحظات لا تجاوز إرسال الطرف ورده، لا يوجد هنا جيوش جراره ولا دماء تسال ولا حرب وضرب، وإنما طرف يرسل فلا يرتد حتى يكون العرش بين يديه، أي قدرة تبلغ هذا المبلغ، ولولا أن الله تعالى ذكرها في كتابه، ما كان المرء يظن أن في وسع أحد من البشر أن يبلغ هذه القدرة، واللافت هنا موقف سليمان عليه السلام، لم نر هنا زهواً أو فخراً أو عجباً، لم نر شيئاً من هذا، إنما رأينا سليمان يستشعر نعمة الله تعالى كلما تجددت عليه المواقف، فلا تزيده مواقف القوة والقدرة إلا تواضعاً وخضوعاً لربه، حتى لا يجر بخلده ـ وهو يرى العرش أمامه بلمح البصر ـ إلا أن يرى هذه النعمة بلاء وامتحاناً وتكليفاً، وهكذا يكون التواضع في أبلغ صوره، لم يُخدع سليمان عليه السلام بهذا السلطان والقوة، فيظنها من كسبه ليتسلط بها على الناس، بل عرف أنها من الله، وأنها نعمة أو بلاء.

ثالثاً: الحاكم العادل.

حينما تجتمع للمرء أسباب القوة، ووسائل القدرة، من قوة السلطان، وعز الملك، والتمكن من الأسباب، والأمر النافذ، والتقلب في الأرض حيثما شاء، وأنى أراد، حينها يكون العدل عزيزاً بعيد المنال، ولقد قص الله عز وجل في كتابه الكريم خبراً عجباً، وقدوة حسنة من ملك صالح، مَكَّن الله له في الأرض، فمده بأسباب القوة، ووسائل البناء والعمران، فجاب الأرض شرقاً وغرباً، وطوف بين سهولها وجبالها، يقول عز وجل واصفاً هذا التمكين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٣ – ٨٨] إن للنصر نشوة تطغى معها النفوس، وسكرة تذهب بها العقول، وتطيش معها الأحلام، وكم تَجُرّ هذه السكرة على الناس من بلاء، فتحرق نارها المحسن منهم والمسيء، لكن هذا الملك العادل، الناظر بنور الله، لا يحمله انتصاره وغلبته على إعمال سيفه في أعدائه، لم يحمله حربهم له على ظلمهم وقهرهم ـ وقد قدر عليهم ـ بل ميّز بميزان العدل بين الظالمين المعاندين، وبين المؤمنين التائبين، فأحسن إلى المحسن وعاقب المسيء[1].

---

(١) ذكر المفسرون أن ذا القرنين لما فتح إحدى المدن العظيمة قسم المحاربين له إلى قسمين:

أ ـ ظالم وهو الكافر، فهذا له العقاب في الدنيا والأخرى.

=

إن أصحاب القوة والسلطة إن لم تكن صلتهم بالله وثيقة، وتذكرهم لموقفهم بين يدي ربهم حاضراً في ضمائرهم، حياً في قلوبهم؛ لم يمنعهم عن الظلم مانع، ولم يردعهم عن البغي رادع.

= ب - مؤمن فله الإحسان في الدنيا والأخرى.
ينظر: معالم التنزيل(٥/ ١٩٩) تفسير القرآن العظيم(٣/ ١٦٧).

المطلب الرابع: المجال العسكري.

إن القوة هي أداة الحق التي تحمي أركانه، وتصون حدوده، وتزيح العوائق أمام امتداد ضيائه، والحق الذي لا قوة له لا بقاء له، إذ يخبو ضوءه، ويخفت صوته.

وتبقى الأمة مهيبة الجانب، منيعة عن أطماع الطامعين، وتطلعات الطامحين؛ إذا كانت قوتها العسكرية موفورة، واستعدادها للحرب حاضراً، وفي هذا المجال سنذكر بعضاً من النماذج المشرقة التي يقتدي بها ويتأسى بطريقتها:

أولاً: قائد وجيش.

من أبرز نماذج القدوة الواردة في كتاب الله في المجال العسكري، خبر القائد طالوت وجيشه، وقتالهم مع جالوت وجنده، حيث كشفت الآيات الكريمة، عن صفات القائد المحنك، الذي يحسن إدارة المعركة، وتهيئة الجند لها، كما يحسن معرفة أخلاق المحاربين ومعادنهم، كما يكشف ـ أيضاً ـ معادن الجند وأنواعهم، يقول تعالى ذاكراً خبر هذا القائد الفذّ مع جنده: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٧ – ٢٥١] تتحدث الآيات الكريمات عن قصة ملأ من بني إسرائيل، تسلط عليهم بعض الملوك فأخذوا ديارهم وأموالهم، ثم إنه خرج فيهم نبي مرسل من الله، فطلبوا إليه أن يقيم فيهم ملكاً يقاتلون تحت لوائه[١]، فبعث الله لهما قائداً اسمه طالوت، ويهمّنا هنا موقفان أبرزتها الآيات الكريمات موقف قائد وموقف جيش:

أما القائد، فقد أشارت الآيات الكريمات إلى صفات القائد ومؤهلات القيادة فيه، فأشارت إلى صفتين بارزتين: العلم بالسياسة الحربية، والقوة الجسمية والقلبية.

إن القائد محط أنظار جنده، وعليه تتعلق آمالهم، فلابد أن يكون

---

(١) ينظر: جامع البيان(٥/ ٢٩١) ومعالم التنزيل(١/ ٢٩٧) وتفسير القرآن العظيم(١/ ٤٤٥) والجامع لأحكام القرآن(٣/ ٢٤٣).

مؤهلاً لقيادتهم، واستمالة قلوبهم إليه، بحيث يذعنون له، ويسلمون بأهليته لقيادتهم وريادتهم، وملاك هذا كله العلم بفنون الحرب وسياستها، والقوة البدنية والقلبية لتنفيذ ذلك، وفي الآيات الكريمة إشارة إلى بعض المواقف التي تكشف عن هذه الصفات التي تميز بها القائد طالوت:

لقد أظهر القائد (طالوت) حنكة حربية دقيقة، إذ لم تخدعه هتافات الحماس والنشوة، بل قد علم أن الجيش يحوي الغث والسمين، فكان لابد من الامتحان تلو الامتحان، حتى يصفوا الجيش فلا يبقى إلا الخلص منهم، الذين يستطيع أن يرمي بهم العدو حيث كان، فكان من ذلك أن عرضهم على النهر، ومنعهم من الشرب منه إلا أن يغترف الواحد منهم غرفة بيده فقط، ويذكر المفسرون أنه مرّ بهم عليه وقد اشتد بهم العطش(1)، فكان فشل أكثر الجند ذريعاً، ومن لم يطق صبراً على ظمأ الماء، كيف يطيق صبراً على بأس القتال.

وبعد هذا الامتحان يعرضهم على المحك الحقيقي، حينما يبرزون لأعدائهم حتى يرون الأمر على حقيقته، فينخذل كل جبان منهم أمام كثرة العدو، حتى لا يبقى بعد هذا إلا الخلص، بعد أن صفا الجيش من الشوائب والأخلاط الرديئة.

إن هذا الموقف يكشف صفة العلم بالحرب وسياستها، وفي الموقف التالي يظهر لك صفة القوة البدنية والشجاعة القلبية، ذلك أن القائد لما رأى

(١) ينظر: الإحالة السابقة.

الجيش ينسحب أفراده فوجاً إثر فوج، حتى لم يبق معه إلا قليل من الجند أمام قومٍ جبارين، لم تخر عزيمته، ولم يضعف قلبه، بل ثَبتَ هو، وثَبَّت الجيش معه، حتى تم اللقاء وكان النصر، وقتل بيده قائد جيش العدو.

أما المعنى الآخر الذي تشير إليه الآيات الكريمة من خلال هذه القصة ـ بعد أن عرضت صفات القائد ـ فهو طبيعة الجند والعسكر، حيث تشير الآيات إلى أن الجند قسمان:

جندي مخذل خائر، لا يصبر في الشدائد والمضائق، ويظهر فشله أمام الاختبار الفعلي لقدراته، وهذا الجندي الخائر؛ لا يمكن الوثوق به، ولا الاعتماد عليه في أي الظروف، حتى وإن كان العدو بمرأى العين، ويحيط بالجيش، فهذا الجندي مستعد للفرار، وترك باقي الجيش يواجه العدو، ومثل هذا ينبغي إبعاده وإقصاؤه، فوجوده يلحق بالجيش أبلغ الضرر، بما يثيره من بلبلة واضطراب، فضلاً عما قد يحدثه عند القتال من الهرب والتولي وترك الثغرات في الصف.

هذا نوع من الجند.. وقسم آخر من الجند والعسكر، ثابت القلب، رابط الجأش معتمد على الله، متوكل عليه، لا تزيده الامتحانات إلا صلابة، ولا يزيده شدة الموقف إلا إصراراً؛ لأنه يعرف مصدر النصر الحقيقي وميزان القوة الفعلي، وهنا أرع سمعك لما قالته الفئة الثابتة في جيش طالوت، حينما تكاثر المتخلفون والمخذلون، وتراجع أكثر الجيش، أمام قوة الأعداء الجبارين، وتأمل وصف الله لهم بقوله: (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) لم تزد هذه الفئة على أن قالت: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فليست العبرة بالعدد والعُدة، وإنما العبرة كلها تكمن فيما يقوم بقلب المقاتل، فالمقاتل يهزم في قلبه، قبل أن يهزمه عدوه، ولهذا لما برزوا وِجَاه العدو، ما كان منهم إلا أن اتجهوا إلى ربهم، بقلوب مُفعمة بالرجاء والأمل، وصدق التوكل عليه؛ فقالوا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إن هذه القصة نموذج للقائد العارف بسياسة الحروب، الخبير بأحوال الجند، الذي لا تغره الكثرة، ولا تخدعه شجاعة الأقوال، دون أن تُبلى الأفعال، كما أنها نموذج للجندي الذي يوثق به ويعتمد عليه إذا اشتدت الحرب، وعظم الكرب.

ثانياً: الغاية من القتال.

إن الله تعالى قد شرع القتال في سبيله، وجهاد أعدائه؛ لتكون كلمته هي العليا، ولتزاح كل العوائق التي تقف دون سماع الحق والانقياد له، لا ترتبط حقيقة الجهاد في سبيله بأحد من الخلق، وإن جلّ قدره، وعظم شأنه، حتى وإن كان نبياً أو رسولاً، فهؤلاء الكرام من الأنبياء وأتباعهم، مهمتهم حمل راية الحق، وتبليغ دين الله تعالى، وقتال الصادين عن سبيله، يهلك عليها أولهم، فيأخذها عنهم آخرهم، لا ينتهي الجهاد بنهايتهم بل هو ماض ما بقي حق وباطل، وهدى وضلال.

ويوم وقع بعض الصحابة الكرام، في غبشٍ علا تصورهم لهذه الحقيقة من غاية الجهاد، وذلك في غزوة أحد، لما فشا في الناس أن النبي

عليه الصلاة والسلام قد قتل، فضعفت قواهم، وتركوا قتال عدوهم[(١)]؛ لأن من كانوا يقاتلون دونه قد قتل، فلم يعد من باعثٍ على القتال، ولهذا الخلل في تصور حقيقة الجهاد، نزلت آيات من القرآن عظيمة، تتضمن عتاباً بالغاً لهم، وتقرر حقيقة الجهاد في سبيل الله وغايته، يقول تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ – ١٤٨].

لقد تضمن هذا العتاب دعوة المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلى أخذ القدوة والأسوة ممن سبقهم على ذات الطريق، من الأنبياء والربانيين من أتباعهم على مرّ التاريخ، حيث صبروا على ما نالهم من عدوهم من قتل أو أسر؛ فلم تضعف لهم شوكة، ولم تلن لهم قناة، يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ قال ابن جرير: " إنما عاتب بهذه الآية

(١) ينظر تفصيل هذه الحادثة في: جامع البيان (٧/ ٢٥١) ومعالم التنزيل(٢/ ١١٢) وتفسيرالقرآن العظيم(٢/ ١٢٨).

والآيات التي قبلها... الذين انهزموا يوم أحُد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمدًا قد قتل، فعذلهم الله عز وجل على فرارهم، وتركهم القتال، فقال: أفإن مات محمد أو قتل ـ أيها المؤمنون ـ ارتددتم عن دينكم، وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قُتل نبيهم، من المضي على منهاج نبيهم، والقتال على دينه أعداءَ دين الله"[1].

غير أن هذا الخلل في تصور حقيقة الجهاد، وإن وقع من بعض المؤمنين، فقد كان عند آخرين منهم غاية في الوضوح، غاية في البيان، واستمع لما أخرجه ابن جرير عن ابن أبي نجيح عن أبيه: (أنّ رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه[2]، فقال: يا فلان، أشعرت أنّ محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل، فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ ﴾[3].

وتصور هذا المعنى العظيم، هو الذي جعل أنس بن النضر رضي الله عنه يقول لما رأي بعض القاعدين بعد سماعهم خبر مقتل النبي عليه الصلاة

(١) جامع البيان (٧/ ٢٦٥).

(٢) أي: تخبط في دمه واضطرب، ينظر اللسان مادة شحط.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٧/ ٢٥٣) وابن المبارك في الجهاد ص٩٠، والبيهقي في دلائل النبوة(٣/ ٢٤٨) مرسلاً من حديث أبي نجيح يسار المكي.

والسلام: "يا قوم، إن كان محمد قد قُتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل"[١].

ثالثاً: الصبر في القتال.

حينما يكون ميدان الصبر بذل النفس والمُهج؛ فلابد من صبر عظيم، يطغى على الحب الفطري للحياة، والإخلاد إلى الأرض، حتى يحمل المجاهد روحه على راحته، يبذلها برضاً وطمأنينة، مهما تكن الصعاب ومهما تكن الآلام.

وهذا المعنى العظيم استشعره صحابة النبي ﷺ؛ فضربوا نماذج رائعة من الصبر على حمل هذا الدين، والجهاد في سبيل نشره، وفي كتاب الله إشارة إلى نموذج كريم وقدوة حسنة أثنى الله تعالى عليهم، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران/ ١٧٢ - ١٧٣] لقد أثنى الله تعالى على أولئك الذين استجابوا له ولرسوله، ولكن متى كانت تلك الاستجابة؟ وعلى أي حال كانت؟ دعني أوقفك على خبر عجب في هذه الاستجابة، يذكره لنا أحد الذين نزلت فيهم هذه الآيات، فقد أخرج ابن

---

(١) المرجع السابق(٧/ ٢٥٥).

جرير بسنده عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال: "شهدنا أحداً مع الرسول ﷺ أنا وأخي، ورجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ! والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل! فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أيسر جرحًا منه، فكنتُ إذا غُلب حملته عُقبة، ومشى عقبة[1] حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها ثلاثًا: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة" [2].. أرأيت صبراً في الاستجابة لداعي الجهاد كهذا، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

(١) أي: حملته شوطًا، وسار شوطًا. ينظر اللسان، مادة: عقب.

(٢) جامع البيان(٧/ ٤٠٠).

المطلب الخامس: مجال الصبر.

قل أن يوجد في كتاب الله خُلق عظم ثوابه، وفخم جزاءه مثل الصبر، حتى قرنه الله تعالى بأعلى مراتب الدين، وأكمل منازل الإيمان، فقرنه بالتقوى، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقرنه باليقين: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وقرنه بالتوكل فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢] وإنما قرنه تعالى بهذه المراتب العالية ليشير إلى أن هذه المنازل العالية من الدين لا تنال إلا بالصبر.

إن المرء لا ينال في الدنيا غايته مهما تكن، ولا يبلغ فيها أمنيته؛ بغير صبر وعزيمة، إذ هي مطبوعة على المشاق، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] قال قتادة: " خُلِق في مشقة، لا يُلقى ابن آدم إلا مكابد أمر الدنيا والآخرة"[1].

وفي كتاب الله تعالى نماذج متنوعة يقتدي بها المؤمن في صبره على نوائب الدهر وغِيَرِ الزمان، منها:

أولاً: الصبر على البلاء.

إن البلاء والابتلاء في هذه الدنيا سنة جارية، لم يسلم منها أولياء الله

(١) أخرجه في جامع البيان(٢٤/ ٤٣٣).

وأحباؤه، بل لقد جعل الله تعالى البلاء علامة يَعْرِف بها العبد أن الله قد أحبه، ولذا كان الأنبياء أشد الناس بلاءً؛ لعظم منزلتهم عند الله تعالى، ومن لم يعرف هذا الأمر لم يفقه سنة الله تعالى، ولا عرف حقيقة التكليف، ذلك أن لله عِبادةً في الضراء،كما له أن له عبادة في السراء.

وركب الصابرين ركب شريف طويل، يأتي في مقدمهم نبي الله أيوب عليه السلام، الذي صبر على ما أصابه من البلاء العظيم(1)، حتى أصبح مثلاً يضرب على الصبر، حتى لا يذكر الصبر والبلاء إلا ويقرن به اسم أيوب عليه السلام، ولهذا امتدحه ربه عز وجل على صبره مع عظم البلاء، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فكان قدوة ونموذجاً رائعاً يتعزى به كل مبتلى في نفسه أو ولده أو ماله.

وحتى في شكواه ـ عليه السلام ـ من الضر الذي أصابه، كانت شكوى المؤمن بربه، المفوض إليه شأنه، الذي يعلم أن قضاء الله خير له كله، تأمله وهو يدعو ربه كيف كان دعاؤه، كيف كان أدبه مع ربه، كيف فوض الأمر إليه، فلم يسأله أن يكشف الضر عنه، لم يسأله أن يرفع البلاء الذي حل به، وإنما فوض الأمر إلى ربه الذي هو أرحم به من نفسه، يقول تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] قال أبو حيان: "وقد ألطف أيوب في السؤال، حيث ذكر نفسه بما

(١) يذكر المفسرون آثاراً كثيرة تشير إلى أن البلاء سلط على ماله وولده وجسده، على أن في بعض ما ذكروه مبالغة هي محل نظر. ينظر: جامع البيان(٢١/ ٢١١) ومعالم التنزيل(٧/ ٩٦) وتفسير القرآن العظيم(٣/ ٢٥٣).

يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين الضر الذي مسه"[١] ولهذا كانت عاقبة هذا الصبر العظيم، والتفويض إلى الله، فَرَجاً ومخرجاً، فعافاه الله تعالى من كل بلاء، ورد عليه أهله وماله، بل زاده مثلهم فضلاً منه ورحمة وكرامة، ولهذا لما ختم الله حديثه عن صبر أيوب قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣] قال ابن كثير: "وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء أنا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك"[٢].

ثانياً: الصبر على الفتنة في الدين .

ومن نماذج الصبر العظيمة على البلاء والفتنة في دين الله تعالى؛ خبر المؤمنينِ أصحابِ الأخدودِ، الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج يقول تعالى ذاكراً خبرهم مثنياً عليهم معظماً جرم المعتدين عليهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١ – ١٠] لقد ضرب أولئك الصابرون أروع نماذج القدوة، في الصبر على الفتنة في الدين، ذلك النوع من الفتنة الذي لا يبقي على شيء،

---

(١) البحر المحيط(٨/ ١٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٣).

فتنة نالتهم في أموالهم وأهليهم وأنفسهم، جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر خبرهم قوله : ((**فأُتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر! قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدَّت، وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه! اصبري، فإنك على الحق**)) [1]

إنه نموذج فريد من التضحية للدين والصبر على الفتنة فيه، إنه نموذج سامي رفيع من صور الصبر على الحق، وعض النواجذ عليه، مهما يكن الثمن غالياً، إن دين الله تعالى له تبعات ولوازم، قد يكون من تبعاته؛ ذهاب الأموال والأهل، بل وحتى الأنفس، فإذا لم يكن المؤمن على وعّي بهذه الحقيقة، أو شك أن يُفْجأ بعنف المواجهة مع أعداء الدين فيخذله إيمانُه، ويخذل الحق الذي آمن به.

ثالثاً: الصبر زمن الفتن.

في زمن الفتنة تطيش الأحلام، وتذهب العقول، ويعلو صوت الجهل على العقل، وتصير أزمّة الأمور إلى السفهاء بدلاً عن العقلاء، فتستباح الدماء، وتنتهك الأعراض، ويكثر الهرج والمرج، وينفلت زمام الأمور، ويختلط الحق بالباطل، ولا يَتَبَين المحق من المبطل، ولا الظالم من المظلوم، فما يدري الناس عَلامَ يُقاتِلون، وفيما يُقْتلون، وعندئذ لا تكون

---

(١) أخرجه مسلم[٤/ ١٨١٨كتاب الزهد] من حديث صهيب رضي الله عنه.

الشجاعة بالخوض مع الخائضين في الفتنة، ولا يكون الدين بالولوغ فيها، وإنما يكون الدين حقاً، والشجاعة صدقاً؛ بكف اليد عنها، وكبح النفس عن سورتها، وفوران حميتها، التي قد يؤزها بعض الحق الذي معها، وبعض الظلم الذي وقع عليها، وقلّ من يُعْصمُ فلا تتلطخ يده بدم حرام، ولا تمشي رجله إلى حرام، لأن المرء يحتاج ـ في مثل هذه الحال ـ إلى كثيرٍ بل عظيمٍ من الإيمان، وعظيم من الحلم والعقل، حتى يمنع النفس من سورتها، ويكف اليد عن بطشها.

وفي كتاب الله تعالى نموذج لهذه القِّلة من الناس، القادرة على ضبط سلوكها مهما تكن الفتنة شديدة، ومنع سورة الغضب أن تطغى مهما تكن الدوافع عادلة، يقول تعالى مشيراً إلى هذا النموذج الكريم: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٣١] إن هذه الآيات تشير إلى موقف كريم من ابن آدم المقتول، حينما ثارت نفس أخيه حسداً وظلماً، وبغياً وعدواً، بغير حق إلا أن الله تقبل من أخيه ولم يتقبل منه[1] في صورة ناطقة بالظلم، ذلك النوع من

(١) اختلف المفسرون في هذه القصة في أربعة مواضع:

=

الظلم الذي يَتَعَرى فيه صاحبه عن أي شبه حق، صورةٍ ناطقة بمدى الحسد الذي يعمي صاحبه، فيبغي على أخيه ابن أمه وأبيه، لا يتعدى على ماله أو بعض حقه، وإنما يزهق روحه، ويغتال حياته، فقال لأخيه يتهدده ويتوعده صراحة: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وأمام هذا التهديد المنبعث من الحسد، الأعمى عن العواقب، يلفت الأخ نظر أخيه ـ بمنطق العقل ـ إلى أنه لم يكن سبباً في عدم تقبل الله منه، حتى يكون سبباً في بغيه وعدوانه، كما لفت نظره إلى سبب القبول حقيقة، ووعظه وذكره من طرف خفي لعله يتذكر: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ويؤكد له أنه لن ينساق في مواجهة معه، حتى لو بسط يده إليه، وشرع في قتله، في موقف حليم، وكلمات راشدة، كانت كفيلة بوأد الفتنه، وتسكين النفس، وتخفيف ثورتها، قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقد كان في مقدور هذا المقتول ـ إن لم يقتل ـ أن يدافع عن نفسه، ويرد عنها، ولكنه علم أنه مهما يفعل، ومهما يقاوم، فإنه يقابل في ذلك كله أخاه، فإن مشى، مشى إلى أخيه، وإن مدّ يده؛ مدها إلى أخيه، فاختار منع رِجْلِه، وكف يده، وحبس نفسه

= الأول: في تعيين ابني آدم، الذين وقع بينهما القتال، أكانا من صلب آدم أم من بني إسرائيل.
والثاني: في الأمر الذي من أجله قربا القربان.
والثالث: في نوع القربان.
والرابع: في سبب تقبل الله من أحدهما دون الآخر.
والآيات الكريمة أجملت في هذه المواضع الأربعة فلم تفصل، غير أنها تشير إلى حقيقة أن كل منهما قربا قرباناً لله، وأن الله تقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فما كان منه إلا قتل أخيه بغياً وظلماً. ينظر: جامع البيان(١٠/ ٢٠٢) ومعالم التنزيل(٣/ ٤٣) وزاد المسير ص: ٣٧٣.

عن سورة الغضب، اختار أن يلقى الله مظلوماً مقتولاً، عن أن يلقاه الله ظالماً قاتلاً: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ غير أن هذه النفس الباغية، لا تزال بصاحبها حتى طوعت قتل أخيه، وسهلته حتى قتله، ليكون من شؤم هذه الجريمة عليه؛ أن أول عقوبتها؛ ندم مرتكبها، ندمه على ذات فعله، لا على شيء آخر، هذا الفعل الذي خطط ودبر له، وحرص على القيام به، ينقلب عليه، ليكون باعثاً على الندم والحسرة في الدنيا، قبل العقوبة في الأخرى.

إنه موقف عجيب نادر أن يكون في الناس، ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذا الخبر على الناس، حتى يعتبروا به، ويأخذوا العظة منه، ويقتدوا بخير ابني آدم، وهذا ما جاء نصاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخبر الذي رواه سعد رضي الله عنه أنه قال:(**إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني؟ قال: كن كابن آدم)** [1] .

لقد وعى هذا الدرس العظيم ـ مع شدته ومشقة العمل به ـ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا عثمان بن عفَّان رضي الله عنه يكف يده عن ردع الذين خرجوا عليه ظلماً، بل ويأمر من معه بكف أيديهم،

(١) أخرجه الترمذي[٤/ ٨٣ كتاب الفتن، باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها..] وأحمد(١/ ١٨٥) وقال الترمذي: حديث حسن.

ويُحَرِّج عليهم في ذلك، قال أيوب السخْتياني: "إن أولَ مَن أخذ بهذه الآية من هذه الأمَّة لعثمان بن عفَّان رضي الله عنه"[1].

(١) عزاه ابن كثير في تفسيره(٣/ ٦٨) إلى ابن أبي حاتم، ولم أجده في المطبوع منه.
ينظر خبر مقتل عثمان في: تاريخ الأمم والملوك(٢/ ٦٦١) والبداية والنهاية(٤/ ١١٧).

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

في هذا المطلب نعرض لعدد من المجالات المتنوعة التي تتضمن نماذج للقدوة الحسنة، منها:

أولاً: الصدق.

الصدق من أبرز أخلاق المؤمنين، بل هو علامة فارقة بين المؤمن والمنافق، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**)[(١)].

ومن نماذج القدوة في الصدق؛ ما قصه الله تعالى من خبر الثلاثة[(٢)] الذين تخلفوا عن غزة تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يخرجوا للقتال، وقد ذكر الله خبرهم في سورة التوبة، وأثنى عليهم بصدقهم رسول الله في سبب تخلفهم عنه لما خرج مع الصحابة إلى لقاء العدو في غزوة تبوك، جاء في خبرهم ما رواه كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وهو أحد الثلاثة الذي تخلفوا عن الغزو أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع من الغزو يقول: ((**فجئته فلما سلمت عليه، تبسَم تبسُم المُغضب، ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك، ألم تكن قد**

---

(١) أخرجه البخاري[١١ كتاب الإيمان، باب علامة المنافق] ومسلم[١/ ٧٨ كتاب الإيمان].

(٢) ذكرت كتب السير والمغازي أسماءهم، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ينظر: مغازي الواقدي ص: ١٠٧٣، وسيرة ابن هشام(٥/ ٢١٢).

ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى؛ ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني؛ لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)) [(١)] لقد كان موقفاً غاية في الحرج على هؤلاء الثلاثة الكرام، حرج التخلف أولاً عن رسول الله وصحابته بلا عذر، حيث لم يتخلف ـ مع النساء ـ إلا صاحب عذر أو منافق معلوم النفاق، ثم حرج الصدق مع رسول الله وهو يرى الناس يعتذرون بشتى الأعذار، ويتذرعون بمختلف الأسباب، فيقبل الرسول منهم، ويستغفر لهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله، وما كان يعجزهم أن يقولوا ببعض قول أولئك المعتذرين، حتى عاب عليهم قرابتهم ترك الاعتذار ونسبوهم إلى قلة التوفيق، يقول كعب بن مالك يصور هذا الحرج واللوم من الناس له: (فقمت ـ أي بعد خروجه من عند رسول الله ـ وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه البخاري[٩٠٩كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك] ومسلم[٤/ ١٦٩١ كتاب التوبة] من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

قال: فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي)

ولم ينته البلاء بهم عند هذا الحرج الشديد، حتى يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس كل الناس بترك كلامهم والحديث معهم، في هجران مجتمعي كامل لهم هم وحدهم، دون سائر المتخلفين المعتذرين بأوهى سبب، ويزداد الأمر حرجاً فيأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن يعتزلوا نساءهم، وتبلغ الفتنة مداها حين يأتي كتاب من ملك غسان ـ وهو مشرك ـ يعرض على كعب بن مالك أن يلحق به ليواسيه، ويمنيه العزة والمجد والجاه.. إنها الفتنة تبلغ مداها فتضيق بهم الدنيا، وتتنكر لهم الأرض، يقول تعالى يصور هذه الحرج الذي هم فيه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨] .

إنها نفوس كريمة تَقِيَّة تأبى أن تخادع ذاتها حتى لو خدعت الناس، نفوس تأبى إلا قول الصدق مهما تكن التبعات، ومهما تكن العواقب، ولهذا امتدحهم الله وأثنى عليهم، يقول تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ – ١١٩]

لقد كان صدقهم مع الله ورسوله، وشجاعتهم في قول الحق وإن كان عليهم؛ سبب نجاتهم، وقبول توبتهم، بلا وثناء الله عليهم، وهذا ما جعل كعب بن مالك يستشعر عاقبة صدقه، ومرده الحسن، يقول رضي الله عنه: (يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث مذ حدثت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحسن مما ابتلاني، والله ما تعمدت مذ ذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي)[1].

ثانياً: التسليم لأمر الله.

إن حقيقة الإيمان بالله صدقاً، والتسليم له حقاً يظهر كماله وتمامه حينما يكون مراد الله تعالى وأمره يعارض هوى النفس ومشتهياتها، حين يكون أمر الله تعالى يحتاج إلى كثير من التضحية والفداء، إلى كثير من التسليم والرضا، يحتاج إلى أن يخرج المرء عن كل ثمين، ويضحي بكل عزيز، لا يستبقي لنفسه في نفسه شيئاً، بل يخرج عن كل شيء، وتلك منازل المقربين الأخيار، المُجْتَبَيْنَ الأبرار.

في كتاب الله نموذج لهذه الفئة من الخلق، نموذج لمثال بلغ الغاية في التسليم لله تعالى، والرضا عنه في أمره وقضائه، رضاً لم يخالطه حرج، وتسليم لم يَشُبْهُ تردد، في موقف لم تعرف البشرية أكرم منه ولا أزكى، إنه

(١) تقدم تخريجه في أول سياق قصة تخلفهم.

موقف شيخ الحنيفية إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام[1]، حين رأي إبراهيم عليه السلام في المنام ذبح ابنه، يقول تعالى ذاكراً هذا النموذج الكريم من التسليم له والرضا عنه، بادئاً بدعوة إبراهيم يقول تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠ – ١١١] إنه موقف لا ندري فيه أيهما أعظم شأناً، موقف الأب أم الابن، غير أنك لا تشك أنهما بلغا أعلى درجات الرضا عن الله، وأرفع مقامات التسليم له.

أما الأب إبراهيم عليه السلام فيأتيه هذا الأمر لذبح وحيده، وهو المقطوع عن الأهل والقرابة، يأتيه الأمر بذبح وحيده الذي طالما تمنته نفسه، ورغب إلى ربه أن يرزقه إياه، حتى إذا تحققت له أمنيته كأحسن ما تكون، في غلام وصفه ربه بأنه حليم، وتعلقت روحه به، تأتيه رؤيا المنام بذبح ابنه، فماذا كان منه، ما الذي جال بخاطره، ما الذي دار بخلده، لم يصدر من هذا القلب السليم غير التسليم، مع كونها مجرد رؤيا، وليست وحياً صريحاً

(١) اختلف المفسرون من السلف رحمهم الله في الذبيح هنا أهو إسماعيل أم إسحاق عليهما الصلاة والسلام، ينظر: جامع البيان(٢١/ ٧٢) وزاد المسير ص: ١١٩١ وتفسير القرآن العظيم(٧/ ٢٧) والجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٩٩).

مباشراً، فيستجيب لربه دون أن يتردد، أو يسأل، أو يستمهل، يستجيب في غاية الرضا والتسليم، رضاً تنطق به كلماته لابنه، وتسليم يشي به عرضه الأمر عليه كأبلغ ما تكون السكينة والطمأنينة: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ إنه لا يعرض على ابنه أن يرسله إلى موطن القتل وسفك الدماء، ولا يأمره أن يقوم بعمل يخاطر فيه بحياته، بل يعرض عليه أن يذبحه هو.. بيده هو، لم يشأ أن يأخذه على غِرّة حتى ينفذ أمر ربه، بل يعرضه عليه، ويسأله أن يتمهل ويرى رأيه فيه، لينال هو الآخر شرف الرضا عن الله والتسليم له.

ونقف هنا لنلتقط أنفاسنا قبل سماع كلام الغلام الصغير، هذا الغلام الذي وصفه ربه بالحليم وهو صغير، لنرى في جوابه أثر هذا الحلم، تنطق بها جوارحه في سكناتها وحركاتها: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضاً ويقين، ينقاد بغير تردد ولا ارتياب، مع بالغ الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال؛ ولهذا يستعين بربه على ضعفه ويسأله أن يلهمه الصبر والثبات.

حتى إذا نطق الأب وابنه بحقائق الإيمان والتسليم، جاء التطبيق والتنفيذ، لتبلغ الفتنة مداها، وليبلغ البلاء غايته، ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة، وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان، إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً لذبحه، وإن الغلام يمضي معه مستسلماً لا يفر ولا يتردد، وقد وصل الأمر إلى أن يكون

عياناً، لقد أسلما، فهذا هو الإسلام، هذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم، وتنفيذ، وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة، وليس الاندفاع والحماسة، لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقْتل ويُقْتل، ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه ربما لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر، ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة، ولا اندفاع في عجلة تُخْفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون، لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا، كانا قد أسلما، كانا قد حققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه، وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما، كان الابتلاء قد تم، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما وتسليمهما له: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ لقد أراد الله تعالى ألا يَبْقى في نفس إبراهيم وابنه من حظ النفس شيء دون الله تعالى، حتى إذا تم هذا وجادا بكل شيء وأعز شيء، جاء الفرج من الله تعالى بذبح

عظيم: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء، ونجزيهم كذلك باستحقاق عظيم الجزاء!

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، تخلد هذه الحادثة العظيمة التي يقتدي بها أهل الإيمان في معرفة جمال الطاعة، وعظمة التسليم، وأن الله تعالى وهو ربهم لا يريد أن يعذبهم بالابتلاء، ولا أن يؤذيهم بالبلاء، إنما يريد أن يأتونه طائعين ملبين، مستسلمين لا يتقدمون بين يديه عز وجل.

ثالثاً: التسليم للحق والانقياد له.

حينما تتضح معالم الحق، وتستبين أنواره، وتخالط بشاشته القلوب، وتذوق حلاوته الأرواح، حينها لا تقف العوائق أمام ضيائه أن يتسرب للقلوب، ولا تحجب السدُفُ ضوءه، تنقاد إليه القلوب وتهفوا إليه الأرواح، لا تملك من أمرها شيئاً، لا تلفت للظلام وأهله، تنقاد له غير حذرة من العواقب، وإن يكن فيها ذهاب الأموال، وسفك الدماء.

في كتاب الله تعالى نموذج عالٍ في التسليم للحق، والانقياد له، نموذج من طراز فريد في نوعه، فريد في موقفه، حتى استحق أن يُشاد به في كتاب الله، ليس في موضع واحد، بل في أكثر من موضع، ذلك ما كان من خبر سحرة فرعون، لما تحدى فرعونُ موسى عليه السلام، وضُرب موعد لذلك، وتولى فرعون وجمع أمهر السحرة وجاء بهم، يقول تعالى ذاكراً ما جرى بين فرعون وملائه في شأن موسى عليه السلام، وأنجع الوسائل

لمواجهته: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٤ – ٥١] لقد جاء هؤلاء السحرة أول ما جاؤوا، وهم يطمعون في رضا فرعون عنهم، وقربهم منه، ومكافأته لهم: ﴿ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ لقد جاؤوا وهم يريدون إظهار تفوقهم في فنون السحر وطرقه، ظناً منهم أن موسى عليه السلام إنما أراد أن ينازعهم في فنهم، ويظهر تفوقه عليهم: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾[طه: ٦٢ – ٦٤] حتى إذا اجتمع الناس وغص المكان بالمحتشدين، بدؤوا عرض سحرهم، واثقين بنصرهم، معتزين بفرعون وسلطانه، وجاؤوا بسحر وصفه الله تعالى بأنه عظيم، أرهب كل من حضر حتى موسى عليه السلام أوجس خيفة من هول ما رأى، غير أن الله تعالي ثَبَّت رسوله، وربط على

قلبه، وأوحى إليه فألقى عصاه التي بيده: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٧ – ١١٩] نعم لقد وقع الحق وزهق الباطل، وبان دجل السحر والسحرة، ظهر الحق الذي جاء به موسى من الله تعالى، فإذا العصا التي كانت جماداً إذا بها تنقلب بقدرة الله حَيَّةً حقيقة، وإذا بها تتحرك وتسعى، لتأكل الإفك الذي صنعه السحرة، وهنا يؤخذ السحرة من هول المنظر، يؤخذون من عظم ما يرون، تلك العصا التي كانت عوداً صغيراً في يد موسى، تتحول حقيقة وليس تخييلاً، وصدقاً وليس تزييفاً، يرونها تتحول حية حقيقة تسعى وتأكل ما يلقى فيها، يرون ذلك ـ وهم أهل السحر وخبراؤه ـ فيرون الحق الذي لا تزييف فيه ولا خداع، فما يملكون أمام سلطان الحق ـ وقد أخذ عليهم قلوبهم ـ لا يملكون إلا أن يخروا ساجدين لمن أجرى هذه الآية الباهرة، والمعجزة الناطقة، يسجدون له بطريقة تدل على أنهم لم يملكوا غير هذا، لم يملكوا حتى مجرد الكلام ولا التعبير عن انبهارهم، بل يخرون ساجدين لله، ليكون فعلهم أبلغ من كل قول، وأسمع من كل بيان: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ نعم رب موسى وهارون الذي أجرى هذه المعجزة على يدهما.

لقد خَرّ سحرة فرعون لله تعالى كافرين بفرعون، كافرين بسلطانه، غير عابئين بجبروته وعذابه، سجدوا لله تعالى أمام هذه الحشود العظيمة، لا ليعلنوا هزيمتهم فقط، بل إيمانهم برب موسى وهارون، برب هذه الحيَّة

التي أكلت سحرهم وزيفهم.

إنه نموذج كريم في التسليم للحق، والانقياد له عندما ترتفع راياته، وتبين علاماته، نموذج في التسليم للحق، بعد أن تخالط بشاشته القلوب، وتسري روحه في الأرواح، لتحيا به بعد أن كانت ميِّتة لا حراك فيها.

لقد أنكر فرعون على السحرة إيمانهم بالحق، وعَجِبَ من تسليمهم له، قبل أن يأذن لهم، ناسياً أن الحق والهدى، لا يستأذن إذا دخل القلوب، ولا يخرج إذا سكن الأرواح، مهما تكن المغريات كبيرة، ومهما تكن العواقب وخيمة، غير أن الطاغية لا يدرك هذه الحقيقة ولا يشعر بها، وأنى له ذلك، فيُرْعِد ويُزْبِد ويتوعد ويهدد، يقول: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فما يزيدون على قولهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ لا ضير لأنه لا يمكنهم التنازل عن الحق، لا ضير لأن الدنيا ليست عوضاً عن الآخرة، لا ضير لأنهم يعلمون أن المرد والمرجع لله تعالى، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢ – ٧٣] لقد كان كل جريمتهم أنهم انقادوا للحق، وأسلموا له، بعد أن رأوا برهانه: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ – ١٢٦] موقف من الثبات على الحق قلَّ مثيله، وصورة من الشجاعة في مواجهة الباطل قلَّ نظيرها.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كشفت هذه الدراسة عن عدد من النتائج والتوصيات، أعرضها مختصرة في النقاط التالية:

١. دلت هذه الدراسة على أن القدوة والاقتداء، سلوك له ثلاثة أركان:
   أ- المقتدِي ب ـ المقتدى به ج ـ السلوك الذي يقع فيه الاقتداء.
٢. وردت ألفاظ في القرآن الكريم، هي نظائر لكلمة القدوة، حيث تقاربها في المعنى والدلالة، وهي: الأسوة، والإمام، والإتباع، والمثل.
٣. إن سلوك الاقتداء والتأثر بالمحيط؛ سلوك فطري، نابع من أصل تكوين الإنسان، لا يمكن للمرء أن يسلم منه؛ لأنه يصادف رغبة ملحة تدفع البشر جميعاً ـ مهما كانت أعمارهم، أو مستوياتهم العلمية ـ إلى سلوك الاقتداء والتقليد لغيرهم، وإن اختلفت درجات التأثر والاقتداء.
٤. تبين لنا من خلال هذا البحث أهمية القدوة الحسنة، وأثرها البالغ على الأفراد والمجتمعات، ويظهر هذا في أمور، منها:
   أ- نشر القيم.
   ب- إعطاء الدليل العملي.
   ت- إعطاء التطبيق العملي الصحيح للسلوك.
٥. أبانت هذه الدراسة عن أن الاقتداء، يدخل في مجالات الحياة كلها، وميادينها جميعاً، لأن حقيقة سلوك الاقتداء؛ قائم على معنى المتابعة

والتأثر بالمقتدَى به، في سلوكه وأفعاله، والإنسان له في كل حالة سلوكٌ وأفعالٌ، ربما كانت محلاً لتأثرِ الناس واقتدائهم بها.

٦. كشفت هذه الدراسة أن نماذج القدوة الحسنة في القرآن الكريم كثيرة متنوعة، يصعب الإحاطة بها؛ فكل الشخصيات والقصص التي ذكرت في القران الكريم، التي تمثل جانب الخير، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، رجالاً أو نساءً، هي في الحقيقة نماذج للقدوة الحسنة، وهذا يكشف لنا أحد أهم جوانب فوائد قصص القرآن الكريم، لأن الله تعالى إنما ذكرها لأخذ العبرة منها، والاقتداء بالمحسنين من أهلها.

٧. يجب أن يكون سلوك الاقتداء عن وعي وإدراك، وليس مجرد تقليد؛ لأن الله لما أمر بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ قال بعد ذلك: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ والرجاء لا يكون إلا بقصد وإدراك.

٨. جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى أخذ القدوة والأسوة الحسنة بطريقين: الطريق الأول: الدعوة الصريحة لأخذ القدوة: كالأمر بالاقتداء. الطريق الثاني الدعوة غير الصريحة: كالثناء على صفات القدوة وأفعاله.

٩. ترجع أصناف القدوة إلى صنفين؛ الأول: الأنبياء. الثاني: الصالحون من أتباع الأنبياء، فإما الصنف الأول فالأصل أن الاقتداء به مطلق، إلا أن يرد ما يستثني هذا، كما في قصة إبراهيم مع أبيه، وقصة يونس عليهما السلام، وأما من عداهم فإن الاقتداء بهم مشروط بأن يكون في جانب الخير.

على أن الاقتداء قد يخرج عن هذا ليكون ذات الكتاب المنزل من الله تعالى إماماً يقتدي به الناس، وهذا ما يقرره قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾.

كما أن المقتدَى به وإن يكن في الأصل أعياناً مشاهدة، يُقتدى بها ويتابعها الناس على سلوكها؛ فربما يتوسع الأمر حتى يصير السلوك بذاته، ومجموع العادات؛ قدوة للناس، بغض النظر عن أعيان أصحابها، وفي قوله تعال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ إيماء لهذا المعنى، حيث جعل تعالى محل الاقتداء مجموع الهُدى الذي كان عليه الأنبياء.

وهذا المعنى يؤسس قاعدة يمكن تلخيصها بأن يقال: إن كل سابق في الخير؛ هو قدوة لمن جاء بعده، وكل من سار على نهج من سبقه، وجرى على طريقته؛ فهو مقتد به.

١٠. تضمن البحث ذكر عدد من صفات القدوة؛ وهي ترجع إلى معنىً كلي ينتظمها جميعاً، وهو العبودية لله تعالى، ونعني بها العبودية التامة، المتضمنة كمال الخضوع والانقياد، والتجافي عن كل مظاهر الشرك، غير أنه يحسن التنبيه على عدد من النقاط تتعلق بصفات القدوة:

أ- أن تلك الصفات هي في أرفع درجات الصفات وأكملها، ولا يعني أن عداها من صفاتهم الحسنة ليست محلاً للقدوة والتأسي.

ب- أن هذه الصفات التي أشرنا إليها في هـذا البحـث؛ هـي في أعـلى درجـات الكـمال الإنسـاني، وقليـل مـن يـدرك أعلاهـا، ولهـذا فأهلها يتفاوتون فيها، وعندئذ فيكفي أن تكون معياراً لصفات القدوة الحسنة، فبقدر ما في المرء منها؛ يكون التأسي به.

ت- أنه ليس بلازم أن يكون الأسوة الحسنة مُبَرأً من كل عيب، سالماً من كـل نقـص، دل عـلى ذلـك استثناء استغفار إبـراهيم عليـه السلام لأبيه، فلم يجعله الله محلاً للأسوة.

١١. كان التركيز في القرآن الكريم على السلوك الـذي هـو محـل الاقتـداء، دون شخصيات القدوة ذاتها، يؤكد هذا أن آيات القرآن الكـريم وهـي تعرض تلك النماذج لا تشير ـ في غالب الحال ـ إلى اسمها، أو مكانها، أو زمانها، وإنما يكون الاهتمام بمواقفها مجردة عن زمانهـا ومكانهـا، حتـى يكون الاعتبار بالمواقف، بعيداً عن شخوصها زماناً ومكاناً، ما لم يكـن لذكرها أثر.

١٢. وأخيراً فقد ظهر من خـلال البحـث أن القـرآن الكـريم كـما تحـدث عـن جانب القدوة الحسنة؛ فقد تحدث عن الجانب الآخر، وهو القدوة السيئة، وهو جانب جدير بالبحث والدراسة ولهذا فالباحث يـوصي بـأن يـدرس جانب القدوة السيئة في ضوء آيات القرآن الكريم دراسة علمية مستقلة.

هذا وأسأل الله تعالى الكـريم، الـبر الـرحيم، أن يجعـل هـذا العمـل خالصاً له سبحانه، مقرباً مرضـاته، سـبحان ربـك رب العـزة عـما يصـفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- أحكام القرآن أحمد بن علي الجصاص محمد الصادق قمحاوي دار إحياء التراث، بيروت، ط١٤٠٥هـ
- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أحمد بن حزم، مطبعة السعادة، ط١ ـ ١٣٤٥هـ
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت ط: بدون
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، بيروت، ط٢.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤١٧هـ
- البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير، أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الريان، القاهرة، ط١ـ ١٤٠٨هـ
- تاج العروس ، محمد مرتضى الزبيدي، الكويت/ ١٩٦٨م.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ط: بدون
- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور.
- التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي.

- مجموعة من المحققين بإشراف جامعة الإمام، مطابع جامعة الإمام ط١ ١٤٣٠هـ
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض.
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية، مصر
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن محمد السعدي مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، أحمد شاكر، الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض ط١ ـ ١٤١٧هـ
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، محمد الحفناوي، دار الحديث، القاهرة ط١ ـ ١٤١٤هـ
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ط١٤١٤هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١ ـ ١٤٢٣هـ
- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة، الرياض، ط٢ ـ ١٤٠٤هـ
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، صدقي العطار، دار الفكر، بيروت ط١٤١٤هـ
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، صدقي العطار، دار الفكر، بيروت ط:١٤١٤هـ
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، المكتب الإسلامي لتحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت ط٢ ـ ١٤١٢هـ
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، مصطفى السقا وآخرون، دار الخير، بيروت، ط١ ـ ١٤١٢هـ
- شرح صحيح مسلم، يحي بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت ط: بدون
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم محمد فؤاد، دار بن حزم، بيروت ط١ ـ ١٤١٦هـ
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد، دار الريان، القاهرة، ط١ ـ ١٤٠٧هـ

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ط:١٤٠٣هـ
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ـ ١٤٠٧هـ
- كاريزما السلم الوظيفي، عمر أبو عاذرة، دار الخليج للنشر والتوزيع،عمان
- لسان العرب، ابن منظور، أمين محمد عبد الوهاب وآخرون، إحياء التراث، بيروت ط٢ـ ١٤١٧هـ
- مجمع الزائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأشبيلي، عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ـ ١٤١٣
- المحرر في أصول الفقه، محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت
- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر الرازي، طه جابرالعلوان، جامعة الإمام، الرياض، ط١ ـ ١٣٥٧هـ
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن سيده، مصطفى السقا،

مكتبة مصطفى البابي، القاهرة ط١ ـ ١٩٥٨م

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الفكر، بيروت ط٢
- المستصفى في علم أصول الفقه، محمد الغزالي، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ـ ١٤١٣هـ
- المسند، أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت.
- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، خالد عبد الرحمن وآخرون، دار المعرفة، بيروت.
- المعجم الكبير، سليمان الطبراني، حمدي السلفي، ط:١٩٨٠م
- معجم مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الأصفهاني، دار الفكر، بيروت،
- المغازي، محمد بن عمر الواقدي ،مارسون جونسون، ط٣ ـ ١٩٨٤م
- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ـ ١٤١١هـ

من وسائل علاج المشاكل الزوجية

في ضوء الكتاب والسنة

إعـداد

د. إبراهيم بن علي الحسن

د. إبراهيم بن علي الحسن

- عضو هيئة التدريس بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (جمال الدين القاسمي ومنهجه في التفسير).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (تفسير البسيط للواحدي من أول سورة الأنفال إلى آخر سورة يونس) تحقيقاً ودراسة.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد :

فلقد حرص الإسلام على جلب السعادة الدنيوية والأخروية لأفراده، وكان من أعظم وسائله بناء الأسرة المسلمة بناء متيناً، راسي القواعد، محكم البناء، محفوظ الوحدة، محمياً من التهتك والتمزق والشتات.

والأسرة هي اللبنة الأولى للمجتمع، وهي مدرسة الإيمان، وغارسة العقيدة، ومنها تتخرج الأجيال المسلمة، وفيها تتربى الناشئة على التطبيق العملي للإسلام.

ومتى ما حُصنت الأسرة، وحُميت من عوامل الهدم، والاضطراب النفسي، استقام المجتمع، وصلح أمره، واستظل أفراده بظلال وارفة، من هناءة العيش، وطمأنينة البال، والتفرغ لمهام الحياة، وتحقيق الهدف من الوجود.

إن حماية الأسرة من النزاعات، التي تؤدي إلى الشقاق والتصدع، غاية شريفة، ومطلب نبيل، أبدى القرآن وأعاد في سبيل تحقيقه، وتكاثرت النصوص في تحصيله .

بل إن الشريعة جعلت التفريط في حقوق القرابة قطيعة رحم، يستحق فاعلها اللعنة؛كما قال الله تعالى: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ** ﴾[1].

والبصير بأحوال الناس يعلم أن من أعظم مفسدات الأسر، ومنغصات الحياة، المشاكل الأسرية، والخلافات الزوجية، فهي تقلب الفرح ترحاً، والسعادة شقاء، والاتحاد فرقة، والأنس وحشة، والحب بغضاً .

بل إن المشاكل بين الزوجين هي البوابة الكبرى للطلاق، ذلك المعول الهادم للبيوت، والمصادر للسعادة .

إن كثيراً من الأسر المسلمة اليوم قد اهتزت من جذورها، وتفككت أواصر كانت مرعية، وتغيرت ثوابت كانت محمية، وما ذاك إلا أننا نعيش في عالم مفتوح، يعج بالتواصل والتأثر والتأثير، وصار الشباب من الجنسين يطلعون على ثقافات أمم، وسلوك أقوام، قد تحطمت عندهم أواصر القربى، وتهشمت قداسة الأسرة .

وثمت عامل مهم ينبغي أن يتفطن له، وهو أن المرأة المسلمة- وبكيد من غيرها - قد خطت خطوات واسعة، في مجال محاكاة المرأة الغربية، وبقي الرجل - في الجملة - بنفس الفكر والمنهج والتعامل الذي كان عليه الجيل السابق، مما وسع الهوّة بين الجنسين، حتى كأنهما من بيئتين مختلفتين، فحل

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الصراع والنزاع والجفوة، بدل التفاهم والصلح والمحبة، والتعاون على جلب المصالح، ودرء المفاسد .

ومن الواجب المتحتم على أهل العلم، ورجال الإصلاح، والمهتمين بتربية الأجيال، إنارة الطريق لشباب الإسلام، وبيان هدايات دينهم؛ لبناء أسرهم أولاً، ثم حمايتها من المؤثرات والمنغصات ثانياً .

وقد كتبت فيما سبق بحثاً بعنوان: "القواعد الذهبية للعلاقات الزوجية في ضوء القرآن"[(١)] بينت فيه ما ينبغي مراعاته عند بناء الأسرة، وعوامل استمرارها، كدوحة غناء، يستظل بها الزوجان والناشئة، ثم المجتمع والأمة.

ثم رأيت أن من تمام ذلك تتبع الهدايات القرآنية، والعلاجات النبوية، للخلافات الزوجية، فجمعت ما تيسر منها، وجعلت لها عنواناً هو:" من وسائل علاج المشاكل الزوجية في ضوء الكتاب والسنة ".

خطة البحث :

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة .

المقدمة: وهي ما بين أيدينا، وفيها بيان أهمية الأسرة، وخطورة الخلافات الزوجية، وخطة البحث .

التمهيد: أسباب الخلافات الزوجية .

المبحث الأول: العلاج النفسي لمشاعر البغض .

(١) نشر في مجلة الدراسات القرآنية، العدد (٧) ١٤٣١هـ.

المبحث الثاني: التخيير وأثره في الوئام بين الزوجين .

المبحث الثالث: علاج نشوز الزوجين .

المبحث الرابع: الإيلاء وتجربة الفرقة .

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج .

ثبت المراجع .

فهرس الموضوعات.

منهجي في البحث :

يمكن تلخيص المنهج الذي سرت عليه بأنه استقرائي وصفي، وفق النقاط التالية:-

١-حرصت أن يكون البحث معتمداً على ما ورد في الكتاب والسنة، وما خرج عنهما فهو شرح وتوضيح، وبيان للمقصود .

٢- اعتمدت على الأحاديث الصحيحة والحسنة، ولم أذكر حديثاً ضعيفاً إلا مع الإشارة إلى ذلك، وقد خرجت الأحاديث، مقتصراً على ما يحقق المقصود، وهو بيان درجة الحديث، فإن كان في الصحيحين، أوفي أحدهما اقتصرت على ذلك، وإلا ذكرت بعض من خرّجه، مفضلاً من نص على صحته .

٣-التزمت بترقيم الآيات وعزوها إلى سورها .

٤-سلكت منهج التفسير الموضوعي في بحث كل جزئية، ولم أقصد استيفاء كل ما ورد في ذلك؛ بل اقتصرت على ما يحقق الغرض والاستشهاد .

٥-اعتمدت في مجمل البحث على مصادر أصيلة، وأمهات كتب معتبرة عند العلماء، ويستثنى من ذلك ما تقتضيه طبيعة البحث، في قضايا معاصرة أو نحوها .

٦-قد أطنب في بعض المباحث؛ لاعتقادي أن حاجة الناس تقتضي ذلك؛ وأن تمام البيان يستلزم الاستطراد والتفصيل .

٧-لم أترجم للأعلام؛ لأن أكثرهم مشاهير، لا يجهلهم القارئ المثقف، والقلة القليلة من المعاصرين مجاهيل بالنسبة لي، وليس بين يدي ترجمة لكثير منهم .

٨-حرصت أن يكون هذا البحث مرتبطاً بالواقع، وعلاجًا لقضايا معاصرة، وخطابا لكافة القراء، وليس للنخبة المثقفة، وأسأل الله أن أكون حققت بعض ما حرصت عليه .

هذا وأسأل الله العظيم أن ينفع بهذا الجهد، وأن يحقق المقصود منه، من تنبيه شباب الأمة لما قد يعترض حياتهم الزوجية، ولفت انتباههم لطرق حل الخلافات، وعدم التعجل بالطلاق، فهو الكي الذي يكون آخر العلاج، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه .

تمهيد

أسباب الخلافات الزوجية

الأسرة تجمع إنساني، يجمع بين ذكر وأنثى، ثم تنمو بوجود الذرية فتتشابك المصالح، وتتوزع الوظائف، وتختلف الميول والاهتمامات والطموحات، والنظرة للحياة، مما قد يؤدي إلى تصادم بعض المصالح، واختلاف وجهات النظر، وعدم القدرة - أحياناً - على التمييز بين ما للفرد وما عليه، وقد يتعمد البعض الإخلال بذلك؛ لحب التسلط، أو الرغبة في التملك، أو الظن أن ذلك نوع تأديب، وهكذا تتولد المشاكل، ثم تتراكم وتتعقد وتتشابك، ثم تنتج قلقاً ونزقاً وغضباً، وقد تتطور إلى حقد مكبوت، وحزن دائم، مما يقطع خط الرجعة إلى الصلح والمسامحة .

إن الحياة الزوجية لن تخلو من مشاكل وقتية، وخلافات في أمور طارئة، مهما كانت الثقافة، أو التدين، أو تقارب الطباع، فالحياة الزوجية لن تكون أبد الدهر حباً وهياماً وتغزلاً، بل لابد من منغصات هي كالملح للطعام، إذ يعقبها اعتذار وإرضاء، وإشعار بقيمة الطرف الآخر، وتأسف مما حدث، مما يقوي العلاقة الزوجية، ويزيد من اكتشاف أغوار الشخص، وماذا يحب وماذا يكره، بل إن بعض الباحثين الاجتماعيين، يرى أن الحياة الزوجية التي لا تحدث فيها خلافات قط، تستوجب الدراسة والبحث؛ إذ قد يؤول الأمر إلى عدم جدية أحد الطرفين، أو عدم أمانته وصدقه(١).

---

(١) انظر: تحفة العروس، ص ٤٠٥.

والخطورة تكمن في المشاكل المستديمة، أو ما تفضي إلى تضرر أحد الطرفين، أو حزنه الدائم، أو شعوره بعدم التوفيق في هذه الزيجة، أو تستدعي مساعدة خارجية، أو تؤدي إلى هجر، أو طلاق .

وعند السبر والتتبع نجد أن أبرز أسباب المشاكل الزوجية هي :

١ - سوء الاختيار:

فالزواج شراكة عمرية، وارتباط مصيري؛ ولذا ينبغي الجد في حسن الاختيار، والتريث في الارتباط، حتى يترجح تحقق الضرورات من الصفات، من وجهة نظر كل طرف.

ويؤكد أهمية حسن الاختيار قوله تعالى:﴿ فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[(١)]،كما يدل عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- :" إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض "[(٢)]، فمن دعائم الزواج الناجح شعور كل طرف بطيب الآخر، ورضاه عن دينه وخلقه، والمرء لا يهنأ إلا بمعاشرة من يشاكله، ويمكن الاستئناس بقوله تعالى:﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾[(٣)]، فالمراد بهم الرجال والنساء على

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) رواه الترمذي،كتاب النكاح، ح(١٠٨٥)(٣/ ٣٨٦) وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير،ح (٢٧٠)(١/ ١١٢).

(٣) سورة النور، الآية : ٢٦.

أحد القولين في تفسير الآية [١].

وقد استرسلت في التأكيد على حسن الاختيار، وما ينبغي مراعاته من الصفات في القاعدة الأولى من بحثي السابق " القواعد الذهبية في العلاقات الزوجية " .

٢- اختلاف الميول :

فقد تكون الفتاة- مثلاً - ذات ميول معينة، وثقافة خاصة، وترغب أن تعيش نمطاً معيناً من الحياة، ثم تفاجأ بأن بعلها عكس التيار الذي اختارته لنفسها، وحينئذ إما أن تعيش على مضض، مع كثرة الخلافات والمشاكل، أو تطلب الطلاق، وقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أثر المشاكلة والمشابهة في الائتلاف والاختلاف فقال :" الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف "[٢]، قال الحافظ ابن حجر:(قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخيِّر من الناس يحنُّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت... وقال القرطبي: الأرواح وإن اتفقت في كونها أرواحاً؛ لكنها تتمايز بأمور مختلفة تتنوع بها، فتتشاكل أشخاص النوع الواحد وتتناسب، بسبب ما اجتمعت فيه من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢٨٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، ح(١٠٢)(١/ ٩٩).

المعنى الخاص لذلك النوع) [1] .

ولذا ينبغي للزوجين أن يكونا واضحين قبل العقد، وأن يكشفا ما يحبان، وما يكرهان، ونمط الحياة التي يرغبان في سلوكها، وأن لا يكون الفارق بينهما عظيماً في التدين، والانفتاح على الثقافات الوافدة .

كما أن لأسرتي الزوجين دوراً مهماً في ذلك، فهم أعرف الناس برغبات أولادهم وميولهم، وما هو الأصلح لهم، وليتذكر الجميع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-:" من غش فليس مني"[2] .

٣- الجهل بالمسؤولية تجاه الزواج :

فقد يتزوج الشاب طمعاً في متعة أو أولاد، أو تحقيقاً لرغبة والد، أو مجاراة زميل، ويجهل ما يترتب على الزواج من مسؤوليات وتضحيات، وكدح وتعاون، وما يستوجبه من معاملة حكيمة، وإدارة سليمة، ونفقات باهظة، والتزام بحدود الله فيما له وما عليه، وتخلٍّ عن عادات، وارتباطٍ بقيود والتزامات .

وقد أرشد الله تعالى العاجز عن النكاح إلى عدم خوض غماره، فقال تعالى:﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾[3]،**وفي الحديث: "يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة**

---

(١) فتح الباري(٦/ ٣٦٩) .

(٢) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة(٤/٢٦٨)ومسلم،كتاب البر، ح (٢٦٣٨) (٤/ ٢٠٣١).

(٣) سورة النور: الآية: ٣٣.

فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء"[١].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:(وفي الحديث إرشاد العاجز عن مؤن النكاح إلى الصوم)[٢]، وذكر ابن دقيق العيد عن بعض العلماء تحريم النكاح في حق من يخل بالزوجة في الوطء أو الإنفاق[٣] .

٤- عدم النضج العقلي والعاطفي :

فالبعض يتقدم في السن، ولكن عقله وعاطفته دون سنه وهيئته، مما يترتب على ذلك سوء تصرفه، وعدم ضبط عواطفه[٤].

ومن أكبر أسباب التفاوت بين العمر الزمني والعمر العقلي والعاطفي، انفصال الصغار عن الكبار، وعدم الالتقاء إلا لماماً، فالولد منعزل عن الكبار بسبب الدراسة والألعاب، والشبكة العنكبوتية، ثم الاستراحات، وتكوين مجموعات شبابية، تعمق البعد عن الكبار، ومن ثم يقدم الشاب على الزواج ورصيده من تجارب الحياة، ومن العقل المكتسب، والقدرة على تحمل المسؤولية، والدربة على حل المشاكل، يكاد يكون معدوماً، وقد أشار الله سبحانه إلى المؤهل للزواج، والجدير بإنشاء أسرة بقوله: ﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟**

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(٣) (٧/ ٣) ومسلم كتاب النكاح، ح(١٤٠٠) (٢/ ١٠١٨).

(٢) فتح الباري (٩/ ١١١).

(٦) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: أصول علم النفس، ص ١٤٠، ٤٠٩.

مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [1]، فقد أشارت هذه الآية إلى ثلاث خلال ينبغي أن يتحلى بها الزوج :

أ - قوله تعالى: **" ٱلرِّجَال "** ومن معاني الرجولة في لغة العرب: الكمال، والاتصاف بصفات تخرجه عن الصغر والسفه والتخنث، ففي لسان العرب:(الرجل صفة يُعنى بذلك الشدة والكمال، قال: وعلى ذلك أجاز سيبويه الجر في قولهم مررت برجل رجل أبوه، والأكثر الرفع، وقال **في موضع آخر: إذا قلت هذا الرجل، فقد يجوز أن تعني كماله** ...وفي معنىً تقول: هذا رجل: كامل، وهذا رجل: أي فوق الغلام)[2]، وبهذا نعرف سر التعبير بقوله تعالى: **﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾** ولم يقل: الذكور قوامون على الإناث، ففي هذا التعبير إثارة لمكامن الرجولة فيهم تجاه هذه المسؤولية العظيمة، إذ لا يقوم بهذه القوامة حقاً، إلا من كانوا رجالاً حقاً[3].

ب - قوله:**بِمَا ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾** أي بما خصهم به من خصائص تميزهم عن النساء، فليس أهلاً للتزويج من تشبه بالنساء،وتخلى عن صفات الرجولة .

ج- قوله:**﴿ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾** فالنفقة من ضرورات الحياة

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) لسان العرب (رجل) (١١/ ٢٦٦) باختصار.

(٣) انظر: تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، د: اللاحم (١/ ٦٠٠).

الزوجية، وقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة بنت قيس -رضي الله عنها- عن التزوج بصعلوك لا مال له [١]، والفقير الترب يؤمر بالاستعفاف، وحفظ الفرج والصوم، دون الزواج، قال تعالى: **﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾**[٢].

٥- الأمية النفسية :

والمراد بذلك نقص النضج الانفعالي، والخوف على الذات، وعدم الثقة بالنفس، واستخدام وسائل بدائية للدفاع عن الشخصية[٣]، واعتقاد أن التنازلات والتضحيات لشريك الحياة، وغض الطرف عن الهنات، تنازل مهين، وبخس لحق النفس، بينما يرى الناضج نفسياً الطرف الآخر كعضو من أعضائه، فليس ثمت غالب أو مغلوب، بل هناك أعضاء لجسد واحد، قال الله تعالى: **﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾**[٤]، وفي الحديث:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[٥]، فإذا كان هذا مع الأبعدين، فكيف بمن جعل الله بينهما من القرب مالا يكون بين الوالد وولده .

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، ح(١٤٨٠) (٢/ ١١١٤).

(٢) سورة النور: الآية: ٣٣.

(٣) يستحسن الاطلاع على مبحث: النضج الانفعالي في أصول علم النفس،ص:١٤٠.

(٤) سورة الروم، الآية : ٢١.

(٥) رواه مسلم، كتاب البر، ح(٢٥٨٩) (٤/ ٢٠٠١).

٦- تولد المشاكل:

عند سبر أحوال المختلفين من الأزواج، نجد أن البدايات يسيرة سهلة، ثم بالجهل، أو العناد، أو المكابرة، تكبر المشكلة، ثم تولد مشاكل لا نهاية لها، إن لم يقض عليها ابتداء، وقديماً قيل :

ومعظم النار من مستصغر الشرر[١]

ولكي تتضح حقيقة المراد بتولد المشاكل، إليك هذه القصة المتكررة في واقعنا:

أسرة سعيدة مكونة من زوجين عاقلين متحابين، وعدد من الأولاد، وذات ليلة عاد الزوج متأخراً من اجتماع له مع أصحابه، وكان في ذلك الاجتماع شيء من الإثارة، فراود امرأته فوجد منها صدوداً، عتباً على تأخره، فبات مغضباً، وفي الصباح استأذنت المرأة في زيارة أمها القريبة من سكنها، فقال بلهجة المغضب: لا زيارة اليوم!..

وانطلق إلى عمله، ولما عاد ظهراً لم يجد الغداء، فذهب إلى أقرب مطعم فأكل، ثم عاد دون أن يُحضر لأسرته طعاما، فاشتد غضب المرأة، وانطلقت إلى أهلها، فتأزمت الأمور، وتعقدت المشاكل، وامتلأت الأنفس غيضا وغضبا، وطال الهجر..!

ولم يعد الاستقرار إلى هذه الأسرة إلا بعد تدخل عقلاء، وظهور مستور

---

(١) عجز بيت لابن أبي حجلة، انظر: ديوان الصبابة له، ص:٢٥، وصدره: كل الحوادث مبداها من النظر.

مخبوء، ما كان ينبغي أن يظهر، ولو قضى أحد الزوجين على المشكلة في مهدها، لما وصلت إلى ما وصلت إليه .

ولقد حذرنا الله تعالى من نزغ الشيطان فقال سبحانه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[2] .

٧- عدم تنظيم الدخل المادي :

إن عدم الوضوح في دخل الزوج، وعدم وضع ميزانية للأسرة، وإبعاد المرأة عن إعدادها، يجعلها تطالب بأمور قد تفوق طاقة الزوج مادياً أو معنوياً، مما يجعله متوتراً قلقاً، وقد تتهمه بالبخل، وتبدأ في إثارة مشاكل لا تنتهي .

والإسلام يربي أتباعه على الاعتدال في الإنفاق، فلا إسراف يصل إلي حد التبذير، ولا إمساك يصل إلى حد البخل والتقتير، والقاعدة في هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[4] مع قوله تعالى:﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية :٥٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية :٦٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية :٢٧.

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1] .

ومما يؤسف له أن كثيراً من الشباب، يخلّون بهذه التعاليم الربانية، فيقعون في أحد طرفي الذم، فتسوء العشرة الزوجية، إما بسبب التقتير، أو بسبب الفقر، وتراكم الديون، نتيجة الإسراف والتبذير .

٨ – سوء الخلق :

إن سوء خلق أحد الزوجين، وبذاءة لسانه، وعصبيته، وسرعة غضبه، من أعظم مثيرات المشاكل، وتعظم المشكلة إذا ظن الطرف الآخر أن سوء الخلق ناشئ عن عدم الاحترام، ومعرفة القدر !.

إن احترام المرء هو طريق حبه، بل هو المنزل الذي يأوي إليه، والملاذ الذي يلجأ إليه، والقلب لا يستطيع حب من لا يبادله الاحترام والتقدير والتوقير، وقد أرشدنا الله تعالى إلى كليات الاحترام المتبادل في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] .

٩ – اتكالية أحد الزوجين :

إن إهمال أحد الزوجين المنزل والأطفال، وجعل العبء كله على الطرف الآخر، يشعره بالظلم فتسوء نفسيته، ويقل عطاؤه، فتتولد المشاكل، ومن توجيهات القرآن لأفراد الأمة قول الله تعالى :﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ

(١) سورة الحشر، الآية : ٩.

(٢) سورة الحجرات: ١١.

وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[١]، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:" خيركم خيركم لأهله "(٢) ويقول - صلى الله عليه وسلم -:" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٣].

١٠ – إثارة الغيرة[٤]:

تكمل السعادة الزوجية عند ابتعاد شبح الشك، فلا تنبعث الغيرة التي فطر الله عليها الزوجين، ويكون هذا بالبعد عن مواطن الريبة، كالمواقع الإباحية، والسفر إلى الأماكن المشبوهة، وخروج المرأة في وقت غير مناسب، أو عملها في مكان لا يرضى عنه الزوج، أو يتوجس منه ريبة، والمؤمن مطالب بنفي التهمة عن نفسه، كما فعل النبي- صلى الله عليه وسلم – بقوله للرجلين الذين مرا به ومعه زوجته :" على رسلكما ! إنما هي صفية بنت حيي" ثم فال:" إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا "[٥]، والعاقل لا يفتح على نفسه ثغرة، يدخل منها الشيطان، فيفسد عليه حياته، ويقضي على سعادته .

ومما يثير غيرة المرأة وصف محاسن أخرى، أو الحديث عن التعدد بلا

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١١٨)(٧/ ٤٧) ومسلم، كتاب الإمارة ح (١٨٢٩) (٣/ ١٤٥٩) .

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان ح(١٢)(١/ ١٧) .

(٤) للتوسع انظر : أسرار الحياة الزوجية: ص ١٤٣.

(٥) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف،ح(١٣٩)(٣/ ١٠٦)

مبرر، وهذا من الأذية التي نهى الله عنها في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

١١- عدم التجديد في حياة الزوجين :

إن نمط الحياة الواحد ممل، والفراغ قاتل، والتكرار سبب للسأم، ويخفف هذا تجديد الحياة والأوضاع، الذي ينبغي أن يتناسب مع القدرات، فهو كما يكون في الطعام واللباس، فإنه يكون أيضاً بإضافة عمل إلى الأسرة، كاشتراك في مسابقة، أو قراءة كتاب، أو صيام تطوع، أو زيارة أقارب، أو خروج لنزهة، أو استغلال العطل لتغيير المكان، أو منح الزوجة إجازة مطولة لزيارة أهلها...

ومما يعين على تجديد الحياة اللهو مع الزوجة، واللعب، والمداعبة، فهذه الأمور تدخل السرور على قلبها، وتقضي على النمط الواحد للحياة، والتكرار الممل للأعمال، والرتابة التي تدعو إلى السآمة، وقد قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- " كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق "[2] ولما أخبر جابر- رضي الله عنه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه تزوج ثيباً قال له: " هلا جارية تلاعبها وتلاعبك "[3].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢) رواه الترمذي،كتاب فضائل الجهاد،ح(١٦٣٧)(٤/ ١٧٤)وصححه الألباني، انظر:صحيح الجامع الصغير، ح(٤٥٣٤)(٢/ ٨٣٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(١٧) (٧/ ٨).

إن الحياة جميلة إذا كان الزوج مصدر إسعاد، وعامل أنس، ومكمن عطاء، ومنبع فيض، وفي الحديث: " أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطعمه خبزاً"[1]، والقاعدة الشرعية التي أكد عليها ديننا، وينبغي أن يراعيها كل مسلم هي: " ابدأ بمن تعول"[2].

١٢- وسائل الإعلام :

لبعض وسائل الإعلام دور في إثارة المشاكل الزوجية، فهي تغرس صورة غير حقيقية للحياة الزوجية، وتضخم دور ما يسمى بالحب، ويعنون به نزوة الشهوة الجنسية، كما أن للإعلام دوراً في إفساد ما بين الزوجين، بتضخيم الظلم الذي تتعرض له المرأة، ومطالبتها باستيفاء حقوقها، والتنمّر على بعلها، والتذمر من ثوابت دينها، وأعراف مجتمعها، فتبدأ سلسلة من المشاكل التي قد تؤدي إلى الطلاق[3].

ويتجلى خطر الإعلام بمعرفة من يوجهه في الجملة، وهم أهل الكتاب، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج،ح(١١٢) ص: ٩٥، و البيهقي في شعب الإيمان، ح(٧٦٧٨)(٦/ ١٢٣)بنحوه، وهو حديث حسن، انظر:صحيح الجامع الصغير، ح(١٠٩٦) (١/ ٢٤٧)، وقال العجلوني في كشف الخفاء ح(٤٥١)(١/ ١٥٢) :ضعفه المنذري، لكنه حسن لشواهده.

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، ح(٣٠) (٢ / ٢٢٨).

(٣) انظر: الإسلام وبناء المجتمع، ص ٦٥، ونحو أسرة سعيدة ص١٦٧.

﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[2].

١٣- العلاقة الجنسية[3]:

لقد قرر بعض المتخصصين بأن وراء كل اضطراب جنسي بين الزوجين مشاكل زوجية، والواقع يشهد أن لهذا القول نصيبا من الصحة، فالعلاقة الجنسية السليمة أمر ضروري في كل زواج سعيد؛ لأن السكن، والمودة، والرحمة بين الزوجين، تضعف إذا ساءت هذه العلاقة، ولأن عدم إرواء هذه الغريزة لفترة طويلة، يسبب توتراً وقلقاً وارتياباً، بل وفي بعض الأحيان نفوراً بين الزوجين .

وقد لا يتفطن بعض الأزواج إلى أن هذا هو السبب الحقيقي للتغير المفاجئ في أخلاق امرأته، وإثارتها للمشاكل، ولأتفه الأمور .

ومن الجدير بالتحذير الدخول في حلقة مفرغة مظلمة، إذ إن المشاكل الزوجية تولد حزنا وقلقا وهمًّا وغما، فتضعف القدرة الجنسية، وضعفها يزيد المشاكل، فيستمر الضعف الجنسي، فتفتر العلاقة بين الزوجين، ويصبح بينهما سياجاً من الوهم، إذ يتوهمان مرضا أو عينا أو سحرا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٠٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية : ١١٨.

(٣) انظر: اللقاء بين الزوجين : ص ١٢٠، وأسرار الحياة الزوجية ص١٨٩، والزوج والزوجة ص ٨٢.

وأخيراً أهمس في أذن كل زوج أن لا يُسمع امرأته كلمة: لا أحبك، أو أفكر في طلاقك، مهما ساءت العلاقة بينهما؛ لأن الحب عند المرأة يعني الحياة، فإذا فقدته فكأنما فقدت الحياة، وإذا انكسر قلب المرأة بسماع تلك النغمة النشاز صعب ترميمه .

إن على الزوج أن يتذكر قول الله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾[(١)]، ومن أعظم المعروف إشعارها بالدفء، والحنان، والأمان، مهما كتم القلب من بغض أو غضب .

هذه أبرز الأسباب المسببة للمشاكل الزوجية، ولعل في الورقات التالية علاجاً جذرياً لهذه المشاكل، مبنيًّا على كتاب الله، وسنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ولعلي بذلك أستطيع تقريب شيء من هدايات القرآن للأجيال الناشئة، التي تبحث عن حلولٍ لمعاناتها، في مصادر غير أمينة، وهي على أقل تقدير حلول لأقوام في بيئات مختلفة عن بيئتنا، وأُسست على واقع غير واقعنا، فما يناسبهم قد لا يناسبنا، وما يكون دواء هناك، قد يكون داء هنا، والله الموفق .

(١) سورة النساء، الآية ١٩.

المبحث الأول
العلاج النفسي لمشاعر الكره والبغض

ينظر الإسلام إلى عقد النكاح نظرة إكبار وإجلال، فهو ميثاق غليظ بنص قول الله تعالى﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[(1)] وهو عقدة النكاح في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[(2)] وفي لسان العرب: (العقدة: حجم العقد، والجمع عُقد... يقال: عقدت الحبل فهو معقود، وكذلك العهد، ومنه عقدة النكاح... والعقد: العهد، والجمع عقود، وهي أوكد العهود)[(3)].

وأخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن المرأة تنكح بكلمة الله، وتؤخذ إلى بيت زوجها بأمان الله، حيث قال:"... فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله "[(4)].

وقد حرص الإسلام على حفظ الأسرة من التهدم، وأبعد عنها أسباب التصدع، وعالج ما قد يطرأ عليها من عوامل الانحلال، ويظهر هذا جلياً فيما يمكن أن نسميه " العلاج النفسي للنفور الزوجي" فقد ينفر الرجل من امرأته، ويشعر بكرهها، ولا يجد لها من المحبة والمودة ما يحمله على إبقائها في عصمته، ويعالج القرآن هذه الحالة في قول الله تعالى:

---

(١) سورة النساء، الآية : ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية : ٢٣٧.

(٣) لسان العرب " عقد " (٣/ ٢٩٦-٢٩٨) باختصار.

(٤) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ح(١٢٨) (٢/ ٨٨٦).

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[١].

ولعل في الوقفات التالية ما يجلي هذا العلاج، ويمنع شانئ امرأته من تعجيل الفراق، أو التفوه بالطلاق :

أولاً- في قوله تعالى:﴿ **فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ إرشاد للمسلم إلى تحمل المكروه المبغض من المرأة، وعدم التعجل بفراقها، وأن لا يكون الكره سبباً للفراق، فثمت جوانب خير، قد يكون الكره حجبها، وهذا ما أرشد إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: "لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر" أو قال:" غيره "[٢].

وهذا شأن العاقل في تعامله مع سائر بني آدم، من أب أو ابن أو صديق أو رئيس أو مرؤوس...الخ، فلا يكاد يوجد من يسلم من عيب أو نقص :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه[٣]

وإذا كان الأمر كذلك لم يبق إلا التحمل، وغض الطرف عن بواعث الكره، والانشغال بالمحاسن الموجودة في المرأة، وبهذا ينقلب البغض حباً، والكره مودة، كما هو مشاهد .

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) رواه مسلم،كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء،ح(١٤٦٩) (٢/ ١٠٩١).

(٣) البيت ليزيد بن خالد المهلبي، انظر : خزانة الأدب (١/ ٤٥٦) .

ثانياً- قد يكون سبب الكره أمراً طارئاً من خصومه أو نزاع، أو اختلاف وجهات نظر، وعلاج هذا بالتأني، وعدم التعجل، ومما يحمل على ذلك التفطن إلى أن في العجلة فوات خير كثير، أو حصول مكروه يفوق المكروه الذي هرب منه، وهذا يندرج في قوله تعالى:﴿ **فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا** ﴾.

ثالثاً- من لطيف تعبير القرآن تنكير لفظ " خير" وإبهامه؛ لتذهب النفس مذاهب شتى، ومعلوم أن مطامح الرجال تختلف باختلاف حاجاتهم، وميولهم وآمالهم، وقد ذكر بعض المفسرين أمثلة لهذا الخير، كالولد الصالح، وعطفه عليها بعد الكره [(١)]، والحق أن لفظة "خير" تعم كل ما تحتمله الكلمة في السياق من معنى، فقد يكون في المرأة المكروهة دين تؤثر به على زوجها، أو تكون به سبباً لصلاح ذريته، وقد يكون عندها من حسن الرأي ما تعظم به منزلة زوجها، أو يكثر ماله، أو تستقيم صحته، بخلاف ما قد يكون عند غيرها من ضعف دين، أو سوء رأي، أو تبذير مال، مما يشتت شمل الرجلِ، أو يفقره، أو يفقده عزه، وصدق الله القائل: ﴿ **وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ** ﴾ [(٢)].

قال أبو السعود:("**فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ**" وسئمتم صحبتهن بمقتضى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٢٢) طبعة شاكر، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٤٧٧).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الطبيعة، من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك، من الأمور المذكورة، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس، واصبروا على معاشرتهن﴿ **فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ علة للجزاء، أقيمت مقامه، للإيذان بقوة استلزامها إياه، كأنه قيل: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه .

و"عسى" تامة رافعة لما بعدها، مستغنية عن تقدير الخبر، أي: فقد قرَّبت كراهتكم شيئاً جعل الله فيه خيراً كثيراً، فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين، وأحمد عاقبة، وأدنى إلى الخير، وتحب ما هو بخلافه، فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح، دون ما تهوى أنفسكم .

وذِكْر الفعل الأول مع الاستغناء عنه، وانحصار العِلّية في الثاني، للتوسل إلى تعميم مفعوله؛ ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله ليس مخصوصاً بمكروه دون مكروه، بل هو سنة إلهية، جارية على الإطلاق، حسب اقتضاء الحكمة، وأن ما نحن فيه (يعني كره الزوجة) مادة من موادها، وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة، وتعميم الإرشاد مالا يخفى)[١].

وقال ابن عاشور بعد أن فسر قوله تعالى: ﴿ **وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾:(وهذه حكمة عظيمة، إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير، فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي، وبعضه

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٥٨).

قد علم الله أن فيه خيراً، لكنه لم يظهر للناس... والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر، وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة، ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر، من سوء خفايا الباطن)[1].

رابعاً- يفهم مما سبق أن الأسرة المسلمة لا تبنى على الحب وحده، فالحب عمل قلبي، والقلب قُلّب، وما تحبه اليوم قد تكرهه غداً، والعكس بالعكس، ولذا لا ينبغي أن تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الريح، وعرضه لنزوة العاطفة، وحماقة الهوى.

لقد همّ رجل أن يطلق امرأته لأنه لا يحبها، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-" ويحك! وهل لم تبن البيوت إلا على الحب؟! فأين الرعاية والتذمم؟!"[2] .

إن كثيراً من بيوت المسلمين اليوم تتصدع، بل تتهدم بسبب الغزو الإعلامي المؤثر، الذي يصور الزوجين بصورة العاشقين الهائمين، يكتنفهما حب واله، وغرام مسعور، مع تضخيم ما يسمونه الحب، وهم يعنون به النزوة العاطفية، والميل الجنسي المحدود .

وقد اكتسح الإعلام مساحة كبيرة، من عقول الفتيان والفتيات، وصاروا يطمعون إلى تحويل ما يرونه من تمثيل عبر الشاشة، إلى واقع

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٧).

(٢) منهج السنة في الزواج، ص:٤٢٦.

ملموس، يحياه الزوجان طول العمر!!.

وهيهات هيهات!! فالحياة الزوجية الواقعية يعتريها شد وجذب، وحلو ومر، وصفو وعكر، وحب وبغض، ورضا وسخط، وهذا واقع كل متعاشرين، ولو لفترة يسيرة، فكيف بزوجين قررا الارتباط مدى العمر، وما أصدق قول كُثيِّر[١] :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عائب

ومن يتتبع جاهداً كل عثـرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقال بشار بن برد[٢] :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقال زهير بن أبي سلمى[٣] :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

إن توجيهات القرآن الكريم ترفع الاهتمامات، وتملأ فراغ النفس، وتصور واقع الحياة كما هو، من غير شطط ولا شطح، فإذا أراد الزوجان أن يعيشا حياة السعادة، والأمن، والسلام، فليتدبرا كتاب الله، وليمتثلا أمره، وليصبر كل واحد منهما على ما يسوؤه من الآخر، وليتذكر قول الله تعالى:

(١) البيتان لكثير عزة، انظر ديوانه: ١٥٤.

(٢) انظر: ديوانه: ١/ ٣٠٩.

(٣) انظر: شرح ديوانه : ص ٢٩.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1].

وثمت أمر نهمس به في أذن العروسين، فقد يشنأ أحدهما الآخر في بداية الأمر، ولكن ليعلما أن هذا في الغالب سببه شيء من المفاجأة، واكتشاف الآخر على حقيقته، وبروز شيء من النقص أو العيب لم يكن في الحسبان .

وعلاج هذا بالصبر والتلطف، فسرعان ما يألف أحدهما الآخر، ويرضى به، فينمو الحب بينهما، وتتقوى روابط الألفة والمودة، ويغتبط أحدهما بالآخر، حتى إنه ينكر على نفسه تلك الحالة النفسية التي مر بها في مقتبل الحياة الزوجية .

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

المبحث الثاني
التخيير وأثره في الوئام بين الزوجين

قد يكون الزوجان عاقلين راشدين، راغبين في بقاء عقدة النكاح، كارهين للانفصال، ولكن يقع بينهما نزغ شيطان، أو هوى، أو مصلحة معينة، أو اختلاف في وجهات النظر، ومن ثم ينظر أحدهما أو كلاهما من منظار ضيق، ومن خلال تلك القضية المتنازع عليها وحسب، وبهذا تتكدر الحياة الزوجية، ويدخلان في نفق مظلم لا نهاية له، وحينئذ لابد من الحسم، وفض النزاع، ووضع حد لتلك المشكلة، وقد عالج القرآن مثل تلك القضية بما يعرف بتخيير المرأة، فتختار أحد أمرين: إما قطع مادة النزاع، والإعراض كلية عن مثير الإشكال، وإما الطلاق؛ لكي تتهيأ لها فرصة اختيار الطريق الذي يناسبها، والحياة التي تصبو إليها .

وفي الفقرات التالية بيان ذلك :

أولاً- قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

وقد جاء في السنة ما يكشف ملابسات نزول هاتين الآيتين، فقد اختار النبي - صلى الله عليه وسلم - لنفسه ولنسائه معيشة الكفاف، والرضا بأدنى القوت، وقد كان يمضي الشهر والشهران لا يوقد في بيوته

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٨،٢٩.

نار، اكتفاء بالتمر والماء[1]، وكان نساؤه راضيات صابرات، حتى رأين المال يفيض بين يديه - صلى الله عليه وسلم - فتحركت في أنفسهن - رضي الله عنهن - الرغبة في تغيير الحال، وطمعن في زيادة النفقة، قال أبو حيان: (لما نصر الله نبيه، وفرّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير[2] ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود، وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله ! بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، والإماء والخول، ونحن على ما نراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم)[3].

ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يصغ إلى تلك المطالبة، ولم

---

(١) أنظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر ح(٤٦) (٨/ ١٥٧)، ومسلم، كتاب الزهد ح(٢٩٧٢) (٤/ ٢٢٨٣).

(٢) هذا وهم من أبي حيان -رحمه الله- سببه ذكر آية التخيير بعد ذكر بني قريظة،والراجح أن حادثة التخيير إنما كانت في السنة التاسعة، ويدل على ذلك أمور:

أ- قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٣٨): (وآية التخيير نزلت سنة تسع اتفاقا) وقال في موضع آخر (٩/ ١٩٧) بعد أن نقل ذلك عن الحافظ الدمياطي: (وهو المعتمد).

ب- قول عمر في قصة التخيير: " وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا " رواه البخاري، كتاب النكاح باب موعظة الرجل ابنته، ح(١٢١) (٧/ ٥٠) ووجه الاستشهاد أن الاحتكاك بغسان إنما كان في أواخر حياة النبي - صلى الله عليه وسلم-.

ج- قول المفسرين-وفيهم أبو حيان في الموضع السابق-إن أزواج النبي آنذاك تسع، وهذا لم يكن حين غزوة قريظة سنة ٥هـ، إذ إن زينب وأم حبيبة وصفية وميمونة إنما تزوج بهن سنة سبع .

(٣) البحر المحيط (٨/ ٤٧١) ولم أجد ما ذكره أبو حيان في كتب السنة المسندة .

يلتفت إلى متاع الحياة الدنيا، وأبى إلا أن يظل على الحالة الأولى التي اختارها لنفسه، استعلاءً على رغبات النفس، وحرصاً على الكمال البشري المنشود، وتفرغاً للمهمات الكبرى، ولمّا بالغت أزواجه في المطالبة، نزلت آيتا التخيير. فعن جابر- رضي الله عنه- قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله- صلى الله عليه وسلم - فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي - صلى الله عليه وسلم- جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال فقال : لأقولن شيئاً أُضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة - يعني امرأته - سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها[١]، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال:" هن حولي كما ترى يسألنني النفقة " فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها،كلاهما يقول: تسألن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ قال: فبدأ بعائشة فقال:" يا عائشة! إن أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك".

قالت: قلت وما هو؟ يا رسول الله!.

---

(١) الوجء: اللكز، ووجأه بيده: ضربه، انظر: لسان العرب (وجأ) (١/ ١٩٠).

فتلا عليها الرسول -صلى الله عليه وسلم- الآية، قلت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟! بل أختارُ اللهَ ورسولَه والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً""[1].

وقد جاء في رواية عمر للقصة ما يصور شيئاً من معيشة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعذر أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - في مطالبتهن بزيادة النفقة، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما- قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي -صلى الله عليه وسلم – نساءه... دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى[2] ويقولون: طلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم - نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، قال عمر فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر قد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟! فقالت: مالي ومالك يا ابن الخطاب؟! عليك بعيبتك[3]، قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها: أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله- صلى الله عليه

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته... ح(١٤٧٨)(٢/ ١١٠٤) وبعضه في صحيح البخاري، كتاب التفسير باب قوله: " يا أيها النبي قل لأزواجك... " ح (٢٩٧) (٦/ ٢١١).

(٢) أي: يضربون الأرض بالحصى، وهو فعل المفكر المهموم. أنظر النهاية في غريب الحديث (نكت) (٥/ ١١٣).

(٣) أبي: اشتغل بأهلك ودعني، وتعني حفصة، وعيبة الرجل أهله. أنظر المصدر السابق (عيب)، (٣/ ٣٢٧).

وسلم -؟! والله لقد علمت أن رسول الله - صلى الله وعليه وسلم - لا يحبك ولولا أنا لطلقك رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ؟ قالت: هو في خزانته...فدخلت على رسول الله- صلى الله عليه وسلم - وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قَرَظاً[1] في ناحية الغرفة، وإذا أفيق[2] معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال ما يبكيك يا ابن الخطاب؟! قلت يا نبي الله ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله-صلى الله عليه وسلم – وصفوته، وهذه خزانتك! فقال:" يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟! " قلت: بلى"[3].

إن الصورة الواضحة التي صورها عمر -رضي الله عنه- لخزانة النبي - صلى الله عليه وسلم- تكشف حالة المعيشة التي رضيها لنفسه ولأزواجه، وتبين عذر أمهات المؤمنين في المطالبة بزيادة النفقة، ولهذا يستبعد ما ذكره أبو حيان - رحمه الله - بأنهن طالبنه -صلى الله عليه وسلم-

---

(١) القرظ: شجر يدبغ به الجلد، أنظر لسان العرب (قرظ)، (٧/ ٤٥٤).

(٢) الأفيق: بفتح الهمزة وكسر الفاء، الجلد الذي لم يتم دباغه، وقيل الجلد الذي دبغ بغير قرظ، أنظر المصدر السابق (أفيق) (١٠/ ٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطلاق، ح (١٤٧٩)، (٢/ ١١٠٥).

أن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم[1]، بل واقع الحال يبين أنهن يطالبن بأن يساوين بسائر أهل المدينة، ولكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رضي لنفسه أدنى حد الكفاف، يشبع يوماً، ويجوع يوماً، ويدخل على أهله سائلاً: أعندكم شيء؟ فإن قالوا: لا، قال: فإني صائم"[2].

ثانياً- يعلم مما سبق أن علاج الخلافات الزوجية بالتخيير لا يكون إلا في القضايا الكبرى، وهو ينفع فيما إذا كان الزوجان في تمام رشدهما، ومعرفتهما بنتائج تصرفهما، فالرجل يخيّر امرأته بين الفراق، أو الكف عن مثير الإشكال، والإعراض عن سبب النكد، وهو بهذا يعلن بصراحة لا مواربة فيها أنه لن يتنازل عما اختاره لنفسه، ولو أدى الأمر إلى الانفصال والطلاق .

وعلى المرأة أن تتريث، وتحسب حساب المستقبل، وهل هناك ضمان بكونه خيراً من الحاضر، أو أن الأمر لا يعدو أن يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولاسيما إن كان بينهما مودة أو ذرية .

وعليها أن تتذكر أن المشكلة الحاضرة تجعل على العينين قتامة تحجب رؤية المحاسن، فإذا وقعت كارثة الطلاق، وأزيح الستار عن نتائجه الوخيمة، وآثاره النفسية والاجتماعية والمالية، ندمت ولات ساعة مندم، وفي قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعائشة:" إني ذاكر لك أمراً ما

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٤٧١).ويؤكد عدم صحة هذا القول أني لم أجده في دواوين الإسلام المسندة .

(٢) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة .. ح(١١٥٤) (٢/ ٨٠٨).

أحب أن تعجلي فيه..." خير دليل على أن هذه القضية الكبرى، التي يترتب عليها تهدم أسرة، وتشتت أطفال، تحتاج إلى تروٍ ومشاورة .

ثالثاً- نلتمس حكمة الله في اختيار نزول هذه الآية بسبب مطالبة نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- زيادة النفقة، والرغبة في شيء من متاع الحياة الدنيا وزينتها، إذ إن هذه القضية مثار إشكال في كثير من الأسر، وعلى مدار الدهر، فالمعروف أن لكلٍ من الزوجين زاوية نظر، فالمرأة تركز على الحاضر، وترغب في التفوق على قريناتها، أو مجاراتهن على أقل الأحوال، بينما يركز الرجل على المستقبل، ويُعدُّ العدة لتحسينه، ويكون هذا - غالباً - على حساب الحاضر، ومن ثم يحتدم النزاع بين الطرفين، وتكون هذه القضية - إن لم تحسم - مصدر إزعاج مستمر، فلا المرأة راضية عن واقعها، ولا الرجل مستعد بالمجازفة بثروته، في سبيل إرضاء زوجته، أو تكليف نفسه ما لا تطيق، إن كان قليل ذات اليد، فجاء القرآن الكريم بالعلاج الحاسم، وطبق الرسول - صلى الله عليه وسلم - تعاليم القرآن، ليكون قدوة للمسلمين، عبر الأجيال المتكررة، والقرون المتعاقبة .

رابعاً- في قضية التخيير نشهد لوناً من ألوان تكريم الإسلام للمرأة، وذلك بتخييرها في مصيرها، فكما أن الخيار لها عند عقد النكاح، بالرضا بالزوج أو عدمه، فكذلك في بعض الأحوال تعطى الخيار، بأن تبقى في عصمة الزوج وفق إمكاناته، وما اختاره لنفسه، من أسلوب حياة، أو تختار البعد عن هذا الزوج، والبحث عن حياة ترضاها، وتستريح لها .

فإن قيل: إن هذا الخيار مرتبط بإرادة الزوج !.

فالجواب: نعم؛ لأنه بتخييره امرأته لا يجوز له أن يطالبها بالمهر، فهو الغارم الخاسر، فإن أرادت أن تتحمل عنه الغرم والخسارة، فلها ذلك في أي وقت تشاء، وهو ما يعرف بالخلع[1].

فأين ما يشيع أعداء الإسلام، من أن الإسلام يظلم المرأة، ويلزمها بالعيش في كنف رجل لا تحبه، ولا ترغب في البقاء معه.

(١) انظر: المغنى (١٠/ ٢٦٧).

المبحث الثالث

علاج نشوز الزوجين

تصعب قيادة الإنسان، وتتعسر إدارته، ويستحيل إرضاؤه في كل حال، إذ يتنازعه دين وعقل وفطرة ومصلحة وعادة من جهة، وهوى وشهوة وطمع وطموح من جهة أخرى، ثم إن للشيطان لمّة وللملَك لمّة[1]، كما أن هناك هرمونات تتحكم بانفعالات الإنسان وتوتره، وكذلك للظروف الاجتماعية، والضغوط النفسية، والمشاكل المحيطة بالمرء أثر في مزاجه وتصرفه .

بل إن من أبرز وجوه ضعف الإنسان - إذا لم يدِّرب نفسه،ويهذب خلقة، وبقي على حالة الطفولة- أن الكلمة ترضيه، وتسخطه الأخرى، وتفرحه ابتسامة أو موقف، وتترحه مثلها، فرحاً وترحاً قد يؤثر في حاضره ومستقبله .

والحياة الزوجية ليست بمنأى عن هذا الواقع البشري،وهي عرضة لتقلبات القلوب، وانفعالات الأنفس؛ ولهذا لن تعدم سماع أنين زوجين، وآهات قرينين، وكل منهما يندب حظه، وينعى قدره، ويشكو خله .

بل قد يتطور الأمر إلى هجر ومصارمة، وترفع ومناكدة، وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم " النشوز ".

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي، كتاب التفسير، ح(٢٩٨٨)(٥/ ٢١٩) وقال: حسن غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم وطريقته في علاج هذا النشوز، تبين لنا أنه ثلاثة أنواع:

النوع الأول- نشوز الزوجة :

قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** ﴾[1].

وحول هذه الآية عدة مسائل :

الأولى- قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ** ﴾ الخوف في لغة العرب يأتي بمعنى العلم، ففي لسان العرب:(... والخوف: العلم، وبه فسر اللحياني قوله تعالى:﴿ **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** ﴾)[2].

ولذلك ذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى﴿ **وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ** ﴾: تعلمونه [3]، قال ابن جرير: (ووجه صرف "الخوف" في هذا الموضع إلى "العلم" في قول هؤلاء نظير صرف "الظن" إلى "العلم" لتقارب معنييهما، إذ كان "الظن" شكاً، وكان "الخوف" مقروناً برجاء، وكانا جميعاً من فعل المرء بقلبه، كما قال الشاعر[4] :

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤ .

(٢) سورة النساء، الآية : ١٢٨، لسان العرب (خوف) (٩/ ١٠٠) .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٨/ ٢٩٨) والبغوي (٢/ ٢٠٨) والمحرر الوجيز (٢/ ٤٨) .

(٤) هو أبو محجن الثقفي، انظر ديوانه : ص٢٣ .

ولا تدفنني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها)[١]

وقال الفريق الآخر: "الخوف" في هذا الموضوع على بابه، وهو توقع المكروه، وذلك بظهور أمارات النشوز وعلاماته[٢]، والقول الأول أرجح لما يأتي :

١ - ثبوت هذا المعنى في اللغة[٣].

٢ - دلالة قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً** ﴾ فهو تفسير للنشوز، وأنه عدم الطاعة، لا الخوف من عدم الطاعة .

٣- أنه ترتب على ذلك هجر، وضرب، ومثل هذا لا يكفي فيه مجرد توقع النشوز، والخوف منه .

٤ - أن كثيراً مما ذكره المفسرون من علامات النشوز،كالتأفف، والتكاسل، والتغاضي عن بعض الأمور، وإظهار كراهية أمر يتعلق بالزوج، ونحو ذلك لا تكاد تخلو منها أسرة، فهل يبيح ذلك للزوج الهجر والضرب ؟! .

والنشوز في اللغة: الارتفاع، يقال: نشز الشيء، إذا ارتفع، وتل ناشز، وأنشزت الشيء: إذا رفعته عن مكانه[٤].

ونشوز المرأة : ترفعها على بعلها، ومعصيتها له، وعدم طاعته،

(١) تفسير ابن جرير (٨/ ٢٩٨) (ط شاكر) .

(٢) انظر: المصدر السابق، وأحكام القرآن للجصاص(٢/ ١٨٩)ومعالم التنزيل(٢/٢٠٨) وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥٠٣) .

(٣) انظر: القاموس المحيط (خاف) (٣/ ١٣٩) .

(٤) انظر : تهذيب اللغة (نشز) (١١/ ٣٠٥) .

والتقصير في حقه الواجب، أو القيام بذلك على وجه التكره والتبرم[(١)]، أو تعمد الأذى المادي أو المعنوي، مما يعد شذوذا في العرف والعادة، ومما لا تستقيم معه عشرة، ولا تصفو به حياة .

الثانية- معنى قوله تعالى: " **فَعِظُوهُنَّ** " قال أهل اللغة: الوعظ والعِظَة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، وبما يلين قلب الإنسان من ثواب وعقاب[(٢)].

وقال المفسرون: هذه هي المرحلة الأولى من مراحل علاج نشوز الزوجة، بأن توعظ بذكر تحريم النشوز، وأنه إثم عظيم؛ لما يترتب عليه من إضاعة واجب، وهو ترك حق الزوج .

والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر على امرأته[(٣)] ومن ذلك :

١- تذكيرها بما يلين قلبها، مما أعد الله للزوجة المطيعة،كقول النبيﷺ: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت"[(٤)] .

٢- تذكيرها بالوعيد الشديد، للزوجة العاصية لزوجها، كقول النبي-صلى الله عليه

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٠٠) ومعالم التنزيل (٢/ ٢٠٨) .

(٢) انظر: لسان العرب (وعظ) (٧/ ٤٦٦) .

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢٩٩) وتفسير القرطبي(٥/ ١٧١) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣) وتفسير المنار (٥/ ٧٢) .

(٤) رواه ابن حبان (ترتيب ابن بلبان) ح (٤١٦٣) (٩/ ٤٧١) وصححه المحقق شعيب الأرناؤوط، والألباني، انظر : صحيح الجامع الصغير، ح (٦٦٠) (١/ ١٧٤) .

وسلم- :"إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح"[(١)].

٣- تذكيرها بعظم حق زوجها، وأنه جنتها أو نارها،كما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: " لوكنت آمراً أحدا أن يسجد لأحد غير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله، حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه "[(٢)].

وعن الحصين بن محصن أن عمة له أتت النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال لها:" أذات زوج أنت ؟" قالت: نعم ! قال: " كيف أنت له ؟"، قالت: لاآلوه إلا ما عجزت، قال:" فانظري أين أنت منه فإنما هو جنتك ونارك"[(٣)].

٤- تذكيرها بما يؤول إليه نشوزها من منع نفقة، وطلاق، وتشتت أسرة، وضياع ذرية، وما آلت إليه حالة كثير من المطلقات، من عزوف الرجال عنهن .

ومما يُذكَّر الرجل به في هذا السياق، حثه على التفتيش عن سبب نشوز امرأته، فإن كان بخلاً أنفق، وإن كان إعراضاً أو سهراً أو سفراً، أو سوء منظر، أو رائحة، أصلح من شأنه، وأتم حق امرأته .

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق،ح (٤٧) (٤/ ٢٣٨) ومسلم، كتاب النكاح،ح (١٤٣٦) (م/ ١٠٥٩) .

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٨١) وحسنه الألباني، في صحيح الجامع الصغير، ح (٥٢٩٥) (٢/ ٩٣٧) .

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٤١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح (١٥٠٩) (١/ ٣١٦) .

الثالثة- قوله تعالى: " **وَٱهۡجُرُوهُن** " الهجر: ضد الوصل، يقال: هجره يهجُره هجراً وهِجراناً: صرمه، ويقال: هجرت الشيء هجراً: إذا تركته وأغفلته[(١)].

والمضاجع: جمع المضجع، واضطجع: نام، وقيل استلقى، ووضع جنبه بالأرض[(٢)].

قال الأزهري: " يقال: ضاجع الرجل امرأته مضاجعة: إذا نام معها في شعار واحد، وهو ضجيعها، وهي ضجيعته "[(٣)].

وقد تعددت عبارات المفسرين في بيان المراد بالهجر في المضاجع، ومن أبرزها[(٤)]:

١- قيل: هو ترك جماعها .

٢- وقيل: هو ترك كلامها في المضجع، بأن يرقد عندها، ويوليها ظهره،ولا يكلمها.

٣- وقيل: هو هجر المضجع، وعدم قرب فراشها .

وأرى أن اختلاف السلف في المراد بالهجر في المضاجع إنما هو اختلاف تنوع، قُصد به التمثيل لا الحصر[(٥)]، وعلى هذا، فالزوج أعلم بنفسية

---

(١) انظر : لسان العرب (هجر) (٥/ ٢٥٠) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ضجع) (٨/ ٢١٩) .

(٣) تهذيب اللغة (ضجع) (١/ ٣٣٤) .

(٤) انظر : تفسير الطبري (٨/ ٣٠٢-٣٠٦) والدر المنثور (٤/ ٤٠١-٤٠٣) .

(٥) يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن غالب ما صح عن السلف من الخلاف في التفسير يرجع إلى اختلاف تنوع، لا تضاد، وذلك صنفان : أحدهما- أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة =

زوجته، وما الهجر الذي يؤثر عليها، ويجعلها تفكر في عاقبة نشوزها .

الرابعة- قوله تعالى:" **وَٱضْرِبُوهُنَّ** " هذه المرحلة الثالثة في علاج النشوز، حيث لم تنفع الموعظة، ولم يؤثر الهجر، وأظهر أقوال المفسرين أن هذه العقوبات مرتبة، ولا يجمع بينها منذ الوهلة الأولى، بل الضرب كالكي، وهو آخر العلاج، فلا يُلجأ إليه لتقويم الاعوجاج، وعلاج النشوز، إلا حين لا تجدي الوسائل الأخرى، وثمت حول هذا العلاج وقفات :

١- لا يجوز الضرب إذا صلحت حال الزوجة بدونه، لأنه نوع اعتداء، أبيح للضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، وقد جاء في الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " لا تضربوا إماء الله " فجاء عمر إلى رسول الله فقال: ذئرن[١] النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-:" لقد طاف بآل محمد نساء كثير، يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم "[٢].

وعن معاوية القشبري قال: أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت:

= غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى .

الثاني- أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبيه المستمع على النوع،لا على سبيل الحد . انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٣٣-٣٣٧)

(١) أي : نشزن واجترأن . انظر : النهاية في غريب الحديث (ذأر) (١/ ١٥١) .

(٢) رواه أبو داود كتاب النكاح،ح (٢١٤٦) (٢/ ٢٤٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح (٧٣٦٠) (٢/ ١٢٢٨) .

ما تقول في نسائنا؟ قال: " أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تكتسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن" وفي رواية:" ائت امرأتك أنى شئت، وأطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب "[1].

إن خيار الرجال، والعالمين بفن قيادة النساء، لا يحتاجون إلى الضرب، تقول عائشة- رضي الله عنها-:" ما ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله "[2].

٢- جاء في السنة بيان صفة الضرب، وذلك في قول رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:" ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح "[3]، ومعنى "غير مبرح" أي غير شاق، ولا مؤثر، ولا شائن[4] بل جاء عن عطاء، قال:قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح ؟ قال:"السواك وشبهه، يضربها به"[5]، وقال القاسمي: (... ومنهم من قال: ينبغي أن يكون الضرب بمنديل ملفوف، أو بيده، لا بسوط ولا عصا، قال عطاء: "ضرب بالسواك")[6].

وقال الرازي: (... فالتخفيف مراعى في هذا الباب على أبلغ الوجوه

(١) رواه أبو داود كتاب النكاح، ح (٢١٤٣) وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير ح (١٧) (١/ ٦٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، ح (٢٣٢٨) (٤/ ١٨١٤) .

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، ح (١٢١٨) (٢/ ٨٩٠) .

(٤) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣١٤) والنهاية في غريب الحديث(برح)(١/ ١١٣) ..

(٥) تفسير الطبري (٨/ ٣١٤).

(٦) محاسن التأويل (٥/ ١٢٢٢) وانظر قول عطاء في تفسير الطبري (٨/ ٣١٥) .

... يدل عليه أنه تعالى ابتدأ بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب،وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح، في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق)[١].

وبهذا يعلم أن المقصود من هذا الضرب إرسال رسالة إلى الزوجة، يعبر بها الزوج عن شدة غضبه، وعظيم انفعاله، بما لم تستطع العبارة إيصالها إليها لبلادتها، أو عدم مبالاتها .

٣- يعترض بعض علماء التربية الحديثة على الضرب، ويرون أنه وسيلة غير مجدية في التربية، بل قد يؤدي إلى عكس المقصود، وهذا القول بإطلاقه فيه نظر، فإن تجارب الأمم تثبت نفع الضرب، إذا كان في موضعه، وبيان ذلك فيما يلي :

أ – تختلف طبائع النساء، فمنهن من تردعها عن الخطأ الإشارة، ومنهن من تفهم بالعبارة، وصنف ثالث يحتاج إلى شيء من القسوة، وقديماً قيل :

العبد يقرع بالعصا   والحر يكفيه الوعيد [٢]

وقال بشار بن برد :

الحر يلحى والعصا للعبد   وليس للملحف مثل الرد [٣]

ب- من خلال ترتيب القرآن لعلاج النشوز، وعلى ضوء السنة، يتبين لنا

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٥/ ٩٣) .

(٢) البيت لمالك بن الريب، انظر الشعر والشعراء ص: ١٢٢ .

(٣) انظر: المصدر السابق: الموضع نفسه.

أن الإسلام لا يحث على ضرب النساء، بل يبيحه عند الضرورة، وعلى قدر الحاجة، وخيار المسلمين لا يلجؤون إليه، وبناء على ذلك نقول: إن المقصود من الضرب علاج حالة طارئة، وإذا علم أن هذا العلاج قاتل فمقتضى العقل يردع عنه، وكثير من النساء ينفرن من الضرب، ولا يجدي معهن شيئاً، ومثل هذا الصنف لا يعالج بهذا العلاج .

ج- يقال للمعترض على الضرب: هذه المرأة التي تبلد إحساسها، أو ساءت تربيتها، أو نشأت في بيئة لا تأنف نساؤها من ضربهن، أيهما أنفع لها أن تطلق؛ لعجز الزوج عن ردعها عن غيها، أو تضرب ضرباً غير مبرح، فتستقيم العشرة معها، وتبقى في بيت زوجها، ومع ذريتها ؟!.

إن من يعرف آثار الطلاق على المرأة والأولاد والمجتمع، يعرف الجواب الصواب .

الخامسة- ختم الله تعالى الآية بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ وهذا مناسب تمام المناسبة لمضمون الآية، إذ فيه تهديد للأزواج على ظلم النساء من غير سبب، وتنبيه على أنهم وإن كانوا أعلى يداً، وأكبر درجة منهن، فإن الله سبحانه هو العلي القاهر، والكبير القادر، فلا يليق بمن يؤمن به أن يظلمهن، أو يبغي عليهن، فإن الله مع المظلوم، ولم يجعل بينه وبين دعوته حجابا، فليحذر العاقل من ظلم البعداء، فضلاً عن الأقرباء، ممن ينتظر رفده، ويطمع في نصره .

النوع الثاني- نشوز الزوج :

قال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ

أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۞ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾[1].

هذه الآيات تعالج نشوز الرجل، وتَرَفُّعه على امرأته، وتعاليه عليها، أو إعراضه عنها لسبب من الأسباب، ولا يخفى أن العلاقات البشرية، ومنها العلاقة بين الزوجين، يكتنفها شيء من الفتور والصدود والإعراض، وقد سبق بيان العلاج إذا كان ذلك من قبل المرأة، أما إن كان ذلك من قبل الزوج فإن هذه الآيات القرآنية قد عالجت هذه الحالة، وبيان ذلك في الوقفات التالية :

أولاً- سبق بيان " الخوف " وأنه العلم واليقين بحدوث المكروه، أو الظن الغالب، لوجود أمارات تدل عليه .

أما الفرق بين"النشوز" و" الإعراض" في قوله تعالى: **﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾** فإن النشوز: التجافي عن المرأة، ومنعها حقها من نفسه، أو نفقته، أو أذيته، بسب، أو ضرب، أما الإعراض فهو أخف من النشوز، كأن يقلل من محادثتها ومؤانستها، أو يظهر بعض الصدود

---

(١) سورة النساء، الآيات : ١٢٨-١٣٠.

والتأفف[١] .

ثانياً - الوفاق خير من الفراق:

ويظهر هذا في قوله تعالى:﴿ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ والمعنى: لا إثم على الزوجين فيما تصالحا عليه، حتى تبقى المرأة في عصمة الرجل، مع زوال النشوز عليها، والإعراض عنها، قال القرطبي: (ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته، في مال، أو وطء، أو غير ذلك) [٢]

ومن صور هذا الصلح تنازل المرأة عن حقها أو بعضه، في القسم أو النفقة، أو هبة ليلتها لضرتها، أو تقول له: لا تطلقني وأنت حل من شأني[٣].

وسبب نزول هذه الآيات يزيد الآية وضوحاً، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: " قالت سودة بنت زمعة حين أسنّت، وفرِقَت أن يفارقها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله، يومي هو لعائشة، فقبل ذلك منها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت عائشة رضي الله عنها: في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها: ﴿ **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا** ﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٦٨) والبحر المحيط (٤/ ٦).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٤٠٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٦٨) وتفسير البغوي: (٢/ ٢٩٤).

(٤) رواه أبو داود ح(٢١٣٥)(٢/ ٢٤٢) والحاكم كتاب النكاح (٢/ ١٨٦)واللفظ له وصححه ووافقه الذهبي.

وفي رواية عنها: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا ﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر، منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك"[١] .

وعن رافع بن خديج-رضي الله عنه- أنه كان تحته امرأة قد خلا من سنها، فتزوج عليها شابة، فآثر البكر عليها، فأبت امرأته الأولى أن تقر على ذلك، فطلقها تطليقة، حتى إذا بقي من أجلها يسير قال: إن شئت راجعتك، وصبرت على الأثرة، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك، قالت: بل راجعني، أصبر على الأثرة...قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله قد أنزل فيه:﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾[٢].

وقوله تعالى"**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ**" يرشد إلى أن الصلح بين الزوجين، والعفو عن بعض الحقوق، وحمل النفس على ما تكره، كالتنازل عن المرغوب، خير من الطلاق، وبعض الشيء خير من لاشيء، والمرأة العاقلة تفكر في عواقب الأمور، من تأمين سكن، ونفقة، وقرب من ذرية، وإعانة على غض البصر، وحفظ الفرج، وغير ذلك من مصالح الزواج، فلا تشتط في طلب الفراق، ورفض الصلح .

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، ح(٢٣)(٣/ ٢٦٠) ومسلم كتاب التفسير، ح (٣٠٢١) (٤/٢٣١٦) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير (٢/ ٣٠٨) وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

كما أن في هذه الجملة "**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ**" ما يرشد إلى أن الوفاق أحب إلى الله من الفراق، بل إن الطلاق بغيض إلى الله، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق"[(1)].

ثالثاً- الحذر من الشح ومعوقات الصلح :

قوله تعالى:" **وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ** " تذكير بطبائع النفوس، فكل من الزوجين يشح بنصيبه من الآخر[(2)]، والشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة[(3)].

قال القرطبي: (قال ابن جبير:" هو شح المرأة بالنفقة من زوجها، وبقسمه لها أيامها "، وقال ابن زيد: " الشح هنا منه ومنها "، قال ابن عطية: وهذا أحسن، فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة)[(4)].

وقوله سبحانه :" **وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ** " تذكير بأن المصالحة لا تتم -غالباً- إلا بمسايرة النفس، ومسايسة الطبع، فالرجل شحيح بنفسه وماله، ويحتاج إلى استمالة، وهذا يحمل المرأة على استمالته ببذل بعض حقوقها، والمرأة شحيحة بحقوقها، وعلى الرجل أن يقتنع باليسير مما تبذله، ولا يكلفها بذل

---

(١) رواه الحاكم، كتاب الطلاق، (٢/ ١٩٦)وصححه، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وضعفه الألباني، انظر ضعيف الجامع الصغير، ح (٤٩٨٨) (٥/ ٧٩) وهو الصواب لإرساله.

(٢) انظر : تفسير البغوي (٢/ ٢٩٥).

(٣) انظر: المفردات (شح) ص: ٢٥٦.

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٤٠٦).

الكثير .

رابعاً- عدم التكليف بالعدل المطلق :

قد يتحرج بعض الأتقياء من موقفه من امرأته إذا كبرت أو مرضت، أو ضعفت العلاقة بينه وبينها لسبب من الأسباب، ويخاف من ظلمها، أو عدم القدرة على العدل معها إن كان لها ضرة، وقد وسع الله على هذا وأمثاله، وحمى الأسرة من الانهيار، بسبب تلك الأفكار، وذلك من ناحيتين:

١- تشريع الصلح بين الزوجين، وقد سبق بيانه .

٢- بيان أن العدل المطلق بين النساء لا يمكن، والله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ .

قال المفسرون: المراد بذلك: عدم القدرة على العدل بين النساء في الحب، وميل القلب، والجماع، ونحو ذلك[١].

وقال ابن كثير في معنى هذه الآية:(أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة، فلابد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس وعبيدة السلماني ومجاهد...)[٢].

ويوضح هذا ما روته عائشة - رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله-صلى

---

(١) انظر : تفسير الطبري (٩/ ٢٨٥) والبغوي (٢/ ٢٩٥) والقرطبي (٥/ ٤٠٧) وابن عطية (٢/ ١٢١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٧).

الله عليه وسلم -يقسم فيعدل، ويقول:"اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" [(١)] .

وهذا الحديث وإن اختلف في اتصاله وإرساله إلا أن معناه صحيح، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(٢)]، كما يشهد له قوله تعالى في سياق الآية: ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

قال ابن كثير:(أي: وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض)[(٣)].

وإذا علم أن العدل المطلق بين النساء غير مستطاع، فالواجب الحذر من إتباع ما تهوى الأنفس، وترك العدل الممكن، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي لا يبالغ أحدكم بالميل إلى من يحب، فيترك العدل الممكن، حتى يسوء الأخرى، بحيث تكون كالمعلقة[(٤)].

والمعلقة: هي المرأة التي يهجرها بعلها هجراً طويلاً، فلا هي مطلقة

---

(١) رواه أبو داود،كتاب النكاح،ح(٢١٣٤) والترمذي،كتاب النكاح،ح(١١٤٠) وصحح إرساله، والحاكم (٢/ ١٨٧) وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير ح(٤٥٩٣٦) (٤/ ٢٢٨).

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٧).

(٤) انظر : تفسير الطبري (٩/ ٢٨٤) والبغوي (١/ ٢٩٥).

تنظر في شأنها، ولا هي زوجة تُعاشَر كسائر الزوجات .

قال الأزهري:(قال الله -عز وجل- في صفة المرأة التي لا ينصفها زوجها، ولا يحسن إليها، ولا يخلي سبيلها **"فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ"** وامرأة معلقة: إذا لم ينفق عليها زوجها ولم يطلقها، فهي لا أيم، ولا ذات بعل)[(١)]. وفي حديث أم زرع: " إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق " [(٢)] أي أُترك كالمعلقة، لا ممسكة ولا مطلقة .

وبناء على ما سبق فإن الرجل المعدد يطالب بأمرين، وينهي عن شيء واحد، ويعذر في شيء واحد، فيطالب بالآتي :

١ -أن يعدل بين نسائه فيما هو في مقدوره، من القسم والنفقة والكلام عند الاجتماع وأن لا يخص إحداهن بسفر إلا بعد إذن أو قرعة، وأن يحرص على الابتعاد عما يثير غيرة الأخرى، إذ إن ذلك من الأذية من غير ضرورة، والله تعالى يقول:﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا** ﴾[(٣)].

٢- أن يبقي شيئاً من الحب والحنو والرحمة لمن لا يميل إليها طبعه، فإن من الحب حظاً اختيارياً، وهو أن يروض نفسه على الإحسان لامرأته، وتحمل ما لا يلائمه من أخلاقها، والبحث عن محاسنها، والهدية والتحبب والتقرب، وبذلك يحصل من الإلف بها، والحنو عليها، ما يقوم مقام الميل

---

(١) تهذيب اللغة (علق) (١/ ٢٤٦).

(٢) انظر:صحيح البخاري، كتاب النكاح، ح (١١٩)(٧/ ٤٧).

(٣) سورة الأحزاب، الآية : ٥٨.

الطبيعي، والحب من الوهلة الأولى .

أما ما ينهى عنه الزوج المعدد فهو الميل كل الميل مع من يهوى ويحب، حتى ينصرف انصرافاً تاماً عن الأخرى .

وأما ما يعذر فيه فهو الميل الذي لا يملكه، من حب واستحسان وجماع .

خامساً: الفراق خير من الشقاق :

لقد اعتنى القرآن الكريم بقضية الصلح بين الزوجين، وخاصة عند اقتحام الرجل ميدان التعدد، إذ إن ذلك مثير زوابع لا حصر لها، ومحرك أشجان لا نهاية لها، مما يجعل الأسرة تهتز من قواعدها، فالرجل قد يكون وجد البديل المناسب، بل المحبوب الذي جذب شغاف القلب، والمرأة تعميها الغيرة، وترفض الرضا بالواقع، وتعجز عن رؤية عيوبها، أو معرفة سبب إعراض زوجها أو نشوزه .

ومتى ما أبى الرجل أن يكون عادلاً فيما هو في مقدوره، ورفضت الزوجة الصلح، والتنازل عن بعض ما فرط فيه الزوج أو كله؛ إبقاءً على عقدة النكاح، وحفاظاً على أسرة قد تكون ظلالاً لأولاد وأحفاد، فحينئذ يكون الفراق خيراً من الشقاق، والطلاق هو البديل إذا تعسر الوفاق، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا** ﴾[1].

وثمت وقفات حول هذه الآية :

(١) سورة النساء، الآية : ١٣٠ .

١- معنى قوله تعالى :﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أي يغني كلاً من الزوجين عن الآخر، بأن يسلو عنه، ويكتفي بدونه، وليس هذا وعداً بالزواج كما قد يفهم من عبارة بعض المفسرين، فإن الواقع يخالفه، ويشهد بأن كثيراً من المطلقات لم يتيسر لهن الزواج، ولو كان وعداً بذلك لما أخلف الله وعده، ولذلك قال ابن جرير:(﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ يقول: يغن الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله، أما هذه فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول، أو برزق أوسع وعصمة، وأما هذا فبرزق واسع، وزوجة هي أصلح له من المطلقة، أو عفة)[1].

وقال أبو السعود:(﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ ﴾ منهما، أي يجعله مستغنياً عن الآخر، ويكفه مهماته)[2].

وقال ابن عاشور:(ومعنى إغناء الله كلاً : إغناؤه عن الآخر)[3] ونحو ذلك قال القاسمي[4].

وممن اقتصر على ذكر الوعد بالزواج البغوي حيث قال:(﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ من رزقه، يعني: المرأة بزوج آخر، والزوج بامرأة أخرى)[5] وهذا

---

(١) تفسير الطبري(٩/ ٢٩٤)وانظر النكت والعيون(١/ ٥٤٤) فقد ذكر الماوردي أن الوعد الحق له عدة احتمالات.

(٢) تفسير أبي السعود (٢/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير(٣/ ٢١٩).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ١٦٠٠).

(٥) تفسير البغوي (٢/ ٢٩٦).

ما يفهم من عبارة ابن كثير حيث قال:(وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها، ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه) [1].

وكذلك اكتفى أبو بكر الجزائري بهذا المعنى فقال:(... فالمرأة يرزقها زوجاً خيراً من زوجها الذي فارقته، والرجل يرزقه كذلك امرأة خيراً ممن فارقها)[2].

ولعل هؤلاء المفسرين أرادوا التمثيل لإغناء الله كلاً من فضله، لا أن الآية وعد بالزواج، بدلالة شهادة الواقع، وعلى المرأة قبل أن تَلَجّ في الخصومة، وتُلحّ في طلب الفرقة، أن تتبصر في مستقبلها، وأن تتوقع أن لا زواج حتى الممات .

٢- ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الوعد بالإغناء عن الطرف الآخر، والسلوان عنه، إنما هو خاص بمن عجز عن الوفاق بعد محاولة الصلح، قال ابن عاشور:(وفي الآية إشارة إلى أن إغناء الله كلاً إنما يكون عن الفراق المسبوق بالسعي في الصلح)[3].

وقال أبو بكر الجزائري:(هناك إشارة إلى أن هذا الوعد الإلهي مشروط بمحاولة الصلح أولاً، فإن لم يتم، وتفرقا على طاعة الله تعالى، أنجز الله تعالى لهما ما وعد)[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٧).

(٢) أيسر التفاسير (١/ ٥٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٩).

(٤) نهر الخير، بهامش أيسر التفاسير (١/ ٥٥١)، حاشية رقم : ٤.

وقال المراغي:(ولن يكون كل منهما جديراً بعناية الله، وإغنائه عن الآخر، إلا إذا التزما حدود الله، بأن اجتهدا في الوفاق والصلح، وظهر لهما بعد التفكير والتروي في الأسباب أنه غير مستطاع، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد، ونهش العرضِ، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما، لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة، وعدم التلاحي والتنابز، واختلاق الأكاذيب)[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿ **يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ** ﴾ ترغيب وترهيب، أما الترغيب فهو فيما تحمله الآية من تسلية لهما بعد الطلاق، ومرارة الفراق، وأما الترهيب فهو فيما تتضمنه الآية من زجر لهما عن المفارقة بقصد المراغمة للصاحب، والمضارة له، على الرغم من حرصه على الصلح، ورغبته في الوفاق، فليعلم الطرف المعاند المعارض، أن فضل الله واسع، وأن صاحبه سيستغني عنه، ولن يصله من إضراره شيء .

النوع الثالث- نشوز الزوجين معاً :

سبق بيان نوعين للنشوز، هما نشوز الزوجة وحدها، ونشوز الزوج وحده، وفيهما يكون أحد الطرفين راغباً في الإصلاح، كارهاً للنشوز، وثمت نوع ثالث، وهو كون الزوجين معاً متنافرين متناكدين، وهو ما وصفه القرآن بالشقاق بينهما، وهذه الحالة أعسر من الحالتين السابقتين؛ إذ إن الطرفين يتباعدان، والقلبين يتنافران، وكل طرف يزعم أن الآخر هو

(١) تفسير المراغي (٦/ ١٧٤).

المسيء، وعليه أن يصلح ما أفسد، أو يعتذر، فامتلأ صدراهما غضباً أو بغضاً، وخُيّل إليهما أن لا تقارب ولا تداني؛ إذ كل طرف غير مستعد لبداية الخطوة الأولى، وغير متهيئ لسماع الآخر، لثقته بصواب نفسه، أو رغبته في الانفصال، لكن بعد الإضرار والتنكيد .

وقد تصدت آية في سورة النساء لعلاج مثل هذه الحالة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[(١)].

والوقفات التالية تكشف بعض جوانب العلاج :

أولاً- وصف الحالة :

سبق بيان معنى" الخوف" وأنه العلم بما حدث بين الزوجين، أو غلبة الظن وتوقع المكروه، بحيث يبادر العلاج عند ظهور أمارات الشقاق، وقبل تأزم الموقف .

والأول أظهر؛ إذ لا تخلو البيوت من شقاق عارض، ولا يليق التطفل على الزوجين عند شقاق طائف، وخلاف مؤقت، حتى يطفح الإناء، ويحتاجان إلى عون خارجي، ويدل على ذلك أن الله تعالى قدم قبل هذه الآية وسائل ثلاث لعلاج النشوز، وهي الموعظة، والهجر في المضاجع، والضرب غير المبرح، وهذه كلها علاجات داخلية، والتدخل الخارجي إنما يكون بعد ذلك .

(١) سورة النساء، الآية : ٣٥.

والشقاق : غلبة العداوة والخلاف، يقال: شاقه مشاقة وشقاقاً: خالفه[١].

وأصل الشقاق مشتق من الشِّق - بكسر الشين - وهو الناحية، كأن كل واحد قصد شِقًّا وناحية غير شِقِّ صاحبه وناحيته[٢].

وقيل إن الشقاق مشتق من المشاقة والمضارة، يقال شاقَّ فلان فلاناً: إذا أتى ما يشق على صاحبه من الأمور[٣].

وهناك احتمال ثالث، وهو أنه مشتق من الشَّق - بفتح الشين- وهو الصدع، فكأن بين الزوجين صدع وشق يحول دون التقائهما.

قال الأزهري: (قال الليث: يقال انشقت عصاهم بعد التآمها: إذا تفرق أمرهم)[٤]. ومعنى الآية إن علمتم مخالفة مفرِّقة بينهما، واشتبه عليكم أنه من جهته أو من جهتها، ولا يفعل الزوج الصلح، ولا الصفح، ولا الفرقة، ولا تؤدي المرأة حق زوجها، ولا تفتدي، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها[٥].

والظاهر أن الأمر للحاكم وولي الأمر، أو من ينيبه، وهذا قول الجمهور[٦]، ولو كان الأمر للزوجين لقال: فليبعثا[٧].

---

(١) لسان العرب (شقق) (١٠/ ١٨٣).

(٢) المصدر السابق، نفس الموضع.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣١٨).

(٤) تهذيب اللغة (شق) (٨/ ٢٤٨).

(٥) انظر: الأم للشافعي (٥/ ١٦٨)ومحاسن التأويل(٥/ ١٢٢٣)

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٥).

(٧) انظر: البحر المحيط (٣/ ٦٢٩).

قال علي بن أبي طلحة عن عباس -رضي الله عنهما-:" فهذا الرجل والمرأة إذا تفاسد الذي بينهما فأمر الله -سبحانه- أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ومثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسيء ..فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز" [(١)].

ثانياً- معنى الحَكَم :

الحَكَم - بفتح الكاف - الحاكم[(٢)]، وحُكِّم فلان في كذا: جُعل أمره إليه[(٣)].

والحَكَم: من يصلح للحكومة بين الناس، وللإصلاح[(٤)]، وكذلك من له ولاية الحُكْم والإلزام، وهو أبلغ من الحاكم؛ لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل، يدل على الثبوت، ولا خلاف بين أهل اللغة في ذلك[(٥)].

ثالثاً- ماذا يملك الحَكَمان ؟:

اختلف العلماء هل الحَكَمان حاكمان، يستطيعان الجمع والتفريق والتأديب، أم هما وكيلان عن الزوجين، ينظران في مصلحتها، وينقلان وجهة نظرهما، في المسألة قولان مشهوران :

١ - إنهما حاكمان، عليهما أن يجتهدا في الإصلاح بين الزوجين، ولهما أن

---

(١) رواه ابن جرير (٨/ ٣٢٥).

(٢) الصحاح للجوهري (حكم)(٥/ ١٩٠٢).

(٣) معجم مقاييس اللغة (حكم) (٢/ ٩١).

(٤) انظر: البحر المحيط (٣/ ٦٢٩).

(٥) انظر: زاد المعاد (٥/ ١٩٠).

يفعلا ما يريان من جمع أو تفريق، بعوض أو بغير عوض، ولا يحتاجان إلى توكيل الزوجين، ولا رضاهما، وما اتفق عليه الحَكَمان فهو حُكْمٌ نافذ، وأمر ملزم[1]، وهذا القول ثابت عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومعاوية[2] - رضي الله عنهم- ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة[3]. وهذا مذهب الإمام مالك وقول للشافعي وأحمد[4].

٢- إنهما وكيلان عن الزوجين، فلا يجوز بعثهما إلا برضاهما، ولا يملكان الإلزام بشيء التفريق، أو إلا بإذنهما[5].

وهذا مذهب أبي حنيفة[6]، والجديد من مذهب الشافعي[7]، والرواية الأخرى عن الإمام أحمد[8]، ولأصحاب هذا القول حجتان:

أ) قوله تعالى:" إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ" فذكر الله تعالى التوفيق دون التفريق.

وهذه الحجة فيها نظر؛ لأن الله تعالى إنما ذكر أن إرادة الإصلاح سبب

(١) انظر: تفسير الطبري(٨/ ٣٢٥) والبغوي (٢/ ٢٠٩) والمغني (١٠/ ٢٦٤).

(٢) انظر آثارهم في المصنف لعبد الرزاق (٦/ ٥١١) وسنن سعيد بن منصور (٤/ ١٢٤٣)والسنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٤٩٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (٥/ ١٩٠-١٩١).

(٤) انظر: تفسير الطبري(٨/ ٣٢٥) المغني (١٠/ ٢٦٤) وروضة الطالبين (٧/ ٣٧١).

(٥) انظر: المغني (١٠/ ٢٦٤).

(٦) انظر: الأم (٥/ ١٦٨).

(٧) انظر: الكافي لابن قدامه (٤/ ٤٠٣).

(٨) انظر: المغني (١٠/ ٢٦٤).

للتوفيق، فلا ينبغي أن يحمل ذلك على سلب حق الحَكَمين في التفريق، كما يمكن أن يقال: إن الاقتصار على ذكر الإصلاح والتوفيق لبيان أنه المقصد الأول، فلا يصار إلى التفريق إلا بعد العجز عن الإصلاح .

ب) أن البضع حقه، والطلاق بيده، كما أن المال الذي تفتدي به حقها، وهما رشيدان، فلا يجوز لغيرهما التصرف في حقهما إلا بوكالة منهما، أو ولاية عليهما .

وهذه الحجة فيها نظر أيضاَ؛ لأن التطليق قد يكون بيد غير الزوج، فإن ولي الأمر، أو من ينوب عنه من القضاة، يطلق عند وجود السبب المقتضي لذلك، وله أن يعاقب بالمال فيما أذن فيه الشرع، كإلزام المرأة بالمخالعة إذ تبين ظلمها[1].

وبناءً على ذلك فإن الراجح، بل الصحيح هو القول الأول، قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر القولين:(والأول أصح؛ لأن الوكيل ليس بحَكَم، ولا يحتاج فيه إلى أمر الأئمة، ولا يشترط أن يكون من الأهل، ولا يختص بحال الشقاق، ولا يحتاج في ذلك إلى نص خاص، لكن إذا وقع الشقاق فلابد من ولي لهما... فيفعلان ما هو الأصلح من جمع بينهما أو تفريق، بعوض أو بغيره، وهنا يملك الحَكَم الواحد مع الآخر الطلاق بدون إذن الزوج، ويملك الحَكَم الآخر مع الأول بذل العوض من مالها بدون إذنها، لكونهما صارا وليِّين لهما)[2].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/ ٣٨٦).

(٢) المصدر السابق (٣٢/ ٢٥).

وقال ابن القيم:(والعجب كل العجب ممن يقول هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حَكَمين، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين... وأيضاً فلو كانا وكيلين لم يختصا بأن يكونا من الأهل، وأيضاً فإنه جعل الحُكْم إليهما فقال:"إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ كك "والوكيلان لا إرادة لهما... وأيضاً فإن الوكيل لا يسمى حَكَماً في لغة القرآن، ولا في لسان الشارع، ولا في العرف العام ولا الخاص، وأيضاً فالحَكَم من له ولاية الحُكْم والإلزام، وليس للوكيل شيء من ذلك، وأيضاً فإن الحَكَم أبلغ من حاكم ...)[1].

رابعاً- الحَكَم من الأهل :

اتفقت كلمة العلماء على أنه ينبغي كون الحَكَمين من أهل الزوجين؛ لنص القرآن الكريم على ذلك، ولأنهما أعلم بسرائرهما، وما خفي من أمرهما، وأبصر في شأن ما يرجى من حالهما، وأكثر نصحاً لهما، وشفقة عليهما، وأدعى أن يفضيا إليهما بما لا يفضيان إلى الأجنبي .

لكن هل اختيار الحَكَمين من الأهل على سبيل الاستحباب، أم على سبيل الوجوب، ولا يصار إلى أجنبي إلا عند التعذر ؟.

ذهب الجمهور إلى استحباب كونهما من الأهل، ويجوز كونهما أجنبيين، قال الموفق ابن قدامه:(لأنهما إما وكيلان أو حَكَمان، وأي ذلك كان فلا يشترط له القرابة) [2].

---

(١) زاد المعاد (٥/ ١٩٠).

(٢) الكافي(٤/ ٤٠٢).

وذهب بعض العلماء إلى وجوب كونهما من الأهل، قال ابن العربي:(الأصل في الحكمين أن يكونا من الأهل، والحكمة في ذلك أن الأهل أعرف بأحوال الزوجين ... فإن لم يكن لهما أهل، أوكان ولم يكن فيهم من يصلح لذلك؛ لعدم العدالة، أوغير ذلك من المعاني، فإن الحاكم يختار حَكَمين عدلين من المسلمين...ويستحب أن يكونا جارين) [1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:(ووجوب كونهما من أهلهما هو مقتضى قول الخرقي، فإنه اشترطه كما اشترط الأمانة، وهذا أصح فإنه نص القرآن، ولأن الأقارب أخبر بالعلل الباطنة، وأقرب إلى الأمانة، والنظر في الجمع والتفريق، وهو أولى من ولاية عقد النكاح)[2].

خامساً- توجيه... وبشارة :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في قوله تعالى:"إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا "يعود إلى الحَكَمين، والضمير في قوله تعالى:"يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ" يعود إلى الزوجين[3].

قال القاسمي:("إِن يُرِيدَآ" أي الحَكَمان " يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ" أي يوقع بينهما الموافقة، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق، حتى يحصل الغرض، ويتم المراد، أو الضمير الأول للحَكَمين، والثاني

(١) أحكام القرآن (١/ ٤٢٦).

(٢) الفتاوى الكبرى (٥/ ٤٨٤).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٠٩) والقرطبي (٥/ ١٥٧) والزمخشري (١/ ٥٢٥).

للـزوجين، أي إن قصـدا إصـلاح ذات البـين، وكانـت نيـتهما صـحيحة، وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما، وأوقـع الله بحسـن سـعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة) [١].

وبناء على القول الثاني في مرجع الضميرين، فإن في الآية توجيها للحَكَمين بأن يصلحا نيتهما، ويجتهدا في طلب الصلح بين الزوجين، وليعلما أن الله قدر الصلح والتوفيق حسب صدقهما في ذلك .

وكذلك في الآية بشارة للزوجين المتناكدين بأن التوفيق بينهما ممكـن، مهما بدت الأمور غاية في العسر والتعذر .

وبهذا نعلم سنةً في الحياة الزوجية، قضاها الله سبباً، وحكم بها شرعـاً، وهي أن الحَكَمين العاقلين الناصحين يستطيعان بإذن الله إزالة الغشاوة عن أعين الزوجين، وإذابة الثلوج التي حالت بينهما، وإعادة الألفة والمحبة إلى قلبين أضناهما الشقاق، وعزما على الفراق .

ومما يعين الحَكَمين على تحقيق الإصلاح بين الزوجين ما يأتي :

١) طمأنة الزوجين بأن القضية ستحاط بالسرية التامة .

٢) التعرف على جميع ملابسات القضية .

٣) السماع من طرفي القضية مباشرة .

٤) ترك الزوجين يفضيان بكل ما لديهما، وعدم مقاطعتهما إذ إن ذلـك جزء من العلاج، وتخفيف لحدة التوتر .

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ١٢٢٣).

٥) عدم جمع الزوجين في مكان واحد عند سماع القضية، إذ قد يسمع أحدهما من الآخر ما يسوؤه، ويكون ذلك معوقاً للإصلاح .

٦) العدل المطلق مع الطرفين، والصدق في نصرة المظلوم، والأخذ على يد الظالم، بغض النظر عن القرابة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ ﴾[1]، ولقول النبي – صلى الله عليه وسلم-:" انصر أخاك ظالما أو مظلوما" فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟! قال:" تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره "[2].

(١) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(٢) رواه البخاري،كتاب الإكراه، ح (١٢)(٩/ ٤٠).

المبحث الرابع
الإيلاء وتجربة الفرقة

الحياة الزوجية لا تخلو من ظروف قاهرة، وضغوط آسرة، ومشاكل ومشاكسة، وشد أعصاب.. ومن ثم قد يتحفز الزوج فيحلف على أن لا يعاشر امرأته، وهذا هو الإيلاء .

والإيلاء وإن كان نوع بعد عن المرأة المشاكسة، وفيه إرجاء لمواجهة المشكلة، لكن من يعرف طبائع النفوس يعلم أن البعد عن المواجهة يكون أحياناً هو العلاج الناجع، والبلسم النافع، ثم إنه نوع تأديب للمرأة في سلاحها الذي تعتد به، وبه تصول وتجول وتتطاول، وهو سلاح فتنتها للرجل، وعدم صموده أمام إغرائها وجاذبيتها .

وفي الوقفات التالية ما يكشف اللثام عن هذا العلاج القرآني :

أولاً- تعريف الإيلاء :

الإيلاء مصدر، يقال : آلى يؤلي إيلاءً، وتألى يتألى تألياً، وأْتلى يأتلي ائْتلاءً: أي: حلف[1] ومنه قوله تعالى:﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ** ﴾[2] أي:لا يحلف [3]، ومنه قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: " أين المتألي على الله لا يفعل المعروف"[4] لما سمع حالفاً يحلف أن لا يضع من دين

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (ألوى) (١/ ١٢٧) ولسان العرب (ألا) (٤١/ ٤٠).

(٢) سورة النور، الآية ٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصلح، ح (١٤) (٤/ ٢٥).

دين خصمه شيئاً .

وظاهر كلام أهل اللغة أن كل حلف يسمى إيلاء، ولكن الراغب الأصفهاني قال:(وحقيقة الإيلاء والإليّة: الحلف المقتضي لتقصير في الأمر الذي يحلف عليه)[1]، وبناء على قول الراغب فإن الإيلاء إنما يكون في الحلف على الترك والتقصير، وهذا هو مورد الاستعمال في القرآن الكريم. والإيلاء في كتاب الله: حلف الزوج المانع من جماع امرأته[2] .

وجمهور الفقهاء يخصون الإيلاء بأن يحلف على أكثر من أربعة أشهر [3]، قال ابن عبدالبر: (كل يمين لا يقدر صاحبها على جماع امرأته من أجلها إلا بأن يحنث فهو مولٍ، إذا كانت يمينه على أكثر من أربعة أشهر، فكل من حلف بالله أو بصفه من صفاته، أو قال: أقسم بالله، أو أشهد الله، أو عليّ عهد الله، وكفالته، وميثاقه، وذمته، فإنه يلزمه الإيلاء)[4].

وقد بين الإمام الشافعي -رحمه الله- مراد الفقهاء بالإيلاء فقال: (كل حالف مولٍ، وإنما معنى قولي: ليس بمولٍ، ليس يلزمه حكم الإيلاء، من فيئة أو طلاق)[5].

---

(١) المفردات: (إلى) ص ٢٢.

(٢) انظر: تفسير البغوي(١/ ٢٦٤).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٥/ ٣٨٦) وفتح الباري(١/ ٤٨٨) والمغني(١١/ ٥) وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٤).

(٤) تفسير القرطبي(٣/ ١٠٣).

(٥) الأم(٥/ ٣٨٦) .

وبهذا نجمع بين قول الفقهاء إن الإيلاء حرام[١]، وبين إعطاء القرآن المولي مهلة أربعة أشهر، مما يؤذن بإباحته، وكذلك ثبوت إيلاء النبي – صلى الله عليه وسلم– من نسائه شهراً [٢]، إذ مراد الفقهاء ما زاد على ما حده الله تعالى من الأربعة أشهر، إذ هو تعدٍ لحدود الله، وإضرار بالمرأة [٣]، روى البخاري عن نافع، أن ابن عمر كان يقول في الإيلاء الذي سمى الله تعالى: " لا يحل لأحد بعد الأجل إلا أن يمسك بالمعروف، أو يعزم بالطلاق، كما أمر الله عز وجل "[٤].

ثانياً– الإيلاء في كتاب الله :

قال تعالى:﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٥].

والمعنى: إن الذين يحلفون ألا يقربوا نساءهم من غير تحديد مدة، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، يمهلون أربعة أشهر كحد أقصى، لما في الزيادة على ذلك من إضرار بالمرأة، وإهانة لها، وإهدار لحقوقها " **فَإِن فَآءُوا** ": أي رجعوا إلى ما كانوا عليه قبل الحلف، وهو كناية عن الجماع، قال ابن المنذر: (أجمعوا على أن الفيء الجماع إذا لم يكن له عذر)[٦] " **فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** "

(١) انظر: منتهى الإرادات مع حاشية المنتهى (٤/ ٣٤١).

(٢) سيأتي تخريج الحديث.

(٣) انظر: روضة الطالبين (٨/ ٢٤٦).

(٤) صحيح البخاري كتاب الطلاق، ح (٣٥) (٧/ ٨٨).

(٥) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦) الإجماع لابن المنذر (١/ ٢٦).

لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين، ولا يعني ذلك سقوط كفارة اليمين على القول الصحيح "**وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ**" أي :عزموا على تحقيقه، ولم يفيئوا إلى نسائهم؛ فليتقوا الله، وليفارقوا بإحسان، ولا يمسكوهن ضراراً ليعتدوا، "**فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ** " لأقوالهم "**عَلِيمٌ**" بأفعالهم ونياتهم، فليراقبوه، وليحذروا مخالفته[1].

أما إن آلى مدة تقل عن أربعة أشهر، فهو بالخيار، إما أن يبرَّ يمينه، فيعتزل امرأته حتى تنقضي المدة، كما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين آلى من نسائه شهراً، فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر، وإما أن يحنث في يمينه، ويطأ امرأته، وحينئذ تلزمه الكفارة، وكان ممتثلاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: " من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها، وليكفر عن يمينه"[2].

ثالثاً- الإيلاء في السنة:

عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال:"أصبحنا يوماً ونساء النبي-صلى الله عليه وسلم- يبكين، عند كل امرأة منهن أهلها، فخرجت إلى المسجد، فإذا هو ملآن من الناس، فجاء عمر بن الخطاب فصعد إلى النبي- صلى عليه وسلم- وهو في غرفة ل فسلم فلم يجبه أحد، ثم سلم فلم يجبه أحد، فناداه فدخل على النبي- صلى الله عليه وسلم - فقال: أطلقت نساءك؟! فقال النبي:"

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٦٥)، والبغوي(١/ ٢٦٥) وابن كثير (١/ ٢٧٥).

(٢) رواه مسلم،كتاب الإيمان، ح(١٦٥٠) (٣/ ١٢٧١).

لا، ولكن آليت منهن شهراً "[١] .

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: " ... فدخلت فسلمت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا هو متكئ على رمل حصير، قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟!، فرفع رأسه وقال: لا، فقلت: الله أكبر! لو رأيتنا يا رسول الله ! وكنا - معشر قريش - قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا إلى المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضَّبْتُ على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت تنكر أن أراجعك؟! فوالله إن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ليراجعنه، وتهجره إحداهن إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله - صلى الله عليه وسلم- فإذا هي قد هلكت؟! فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله! قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن جارتك هي أوسم منك، وأحب إلى رسول الله منك، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم-... وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله"[٢] .

وقد تعددت الروايات المبينة لسبب اعتزال النبي -عليه السلام- نساءه، ومن تلك الروايات:

---

(١) رواه البخاري، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نساءه، ح (١٣٣) (٧/ ٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(١٢١) (٧/ ٥٠) ومسلم كتاب الطلاق، ح(١٤٧٩) (٢/ ١١١٢) واللفظ له.

١) حديث جابر-رضي الله عنه- وفيه: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: " هن حولي كما ترى، يسألنني النفقة...ثم اعتزلهن شهراً "[١]، وهذا يفيد أن الاعتزال كان بسبب المطالبة بزيادة النفقة.

٢) حديث عمر المتقدم، وفيه:" وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله "، وهذا يفيد أن الاعتزال إنما كان بسبب معاتبة الله له في تحريم ماأحل الله له، من أمته ماريه،أو غيرها[٢] .

٣) وفي حديث عمر المتقدم سبب آخر، حيث قال عمر:" فاعتزل النبي-صلى الله عليه وسلم- نساءه من أجل ذلك الحديث، حين أفشته حفصة إلى عائشة "، وهذا من الأسباب، ولو كان هو السبب الوحيد لاعتزل الزوجتين فقط، ولذلك قال الحافظ ابن حجر:(ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سبباً لاعتزالهن، وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه-صلى الله عليه وسلم- وسعة صدره، وكثرة صفحه، وأن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهن -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهن) [٣] .

رابعاً- الفرقة بسبب الإيلاء :

إذا حلف الرجل أن لا يقرب امرأته مدة تزيد على أربعة أشهر، فإنه يخير بعد انقضاء الأربعة أشهر، إما أن يفيء بجماع امرأته، وإما أن يطلق، فإن

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، ح (١٤٧٨) (٢/ ١١٠٤).

(٢) انظر: فتح الباري(٩/ ٢٨٩).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٩٠).

أبى طلق الحاكم عليه، إذا طلبت المرأة ذلك، ورفعت أمره إلى الحاكم .

وهـذا مـذهب الجمهـور، ومـنهم الأئمـة الثلاثـة، مالـك والشـافعي وأحمد[١]،قال البخاري:(عن عمر بن عبدالعزيز... إذا مضت أربعة أشـهر يوقف حتى يطلق، ولا يقـع عليـه الطـلاق حتـى يطلـق، ويـذكر ذلـك عـن عثمان وعلي وأبي الدرداء واثني عشر رجـلاً مـن أصـحاب النبـي -صلى الله عليه وسلم-)[٢].

وذهب فريق من العلماء إلى أن الطلاق يقع بمجـرد مضي الأربعـة أشـهر، ولا يحتاج إلى تطليق الزوج، وهذا مذهب الأحناف[٣].

والقول الأول أظهر؛ لأن الله تعالى أعطى المولي أربعة أشـهر، فـلا سـبيل عليه حتى تنقضي، ثم خيَّره بين الفيئة أو الطلاق، مما يدل على أن الطلاق لا يقع إلا بإيقاعه، ثم إن الله أحال على عزيمته فقال تعالى:" **وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ** "وقد نقل ابن المنذر عن بعض الأئمة، قال:(لم أجد في شيء مـن الأدلـة أن العزيمة على الطلاق تكون طلاقاً، ولو جاز لكان العزم عـلى الفـيء يكـون فيئاً، ولا قائل به)[٤].

خامساً- الحكمة من تحديد مدة الإيلاء :

---

(١) انظر: المغني (١١/ ٣١)وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٥)وتفسير ابن كثير(١/ ٢٧٥) وفتح الباري(٩/ ٤٢٩).

(٢) صحيح البخاري كتاب الطلاق، ح(٣٥)(٠٧/ ٨٨).

(٣) انظر : المغني (١١/ ٣١)وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٥) وتفسير ابن كثير(١/ ٢٧٥) وفتح الباري (٩/ ٤٢٩).

(٤) فتح الباري (٩/ ٤٢٩). وانظر ترجيح مذهب الجمهور في تفسير ابن جرير(٤/ ٤٩٨).

كان أهل الجاهلية يؤلون من نسائهم، فيحلف أحدهم أن لا يقربها أبداً، فيتركها لا أَيِّماً ولا ذات بعل، وكانوا على ذلك في ابتداء الإسلام[1]، ثم ضرب الله للإيلاء أجلاً، وحدد له مدة، لا تزيد عن أربعة أشهر .

وهذه المدة كافية في تأديب المرأة، وإزالة ما علق في قلب الرجل، واتخاذ القرار المناسب بالعشرة الحسنة، أو الانفصال والفراق .

ويستأنس كثير من المفسرين في بيان الحكمة من هذه المدة بما روي عن عمر -رضي الله عنه - أنه خرج ذات ليلة، يطوف بالمدينة، فسمع امرأة مغلقة بابها تقول:

تطاول هذا الليل وأزور جانبه وأرّقني أن لا ضجيع ألاعبه

فو الله لولا الله لاشيء غيره لنقض من هذا السرير جوانبه

ولكنني أخشى رقيباً موكلاً بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

مخافة ربي والحياء يصدني وإكرام بعلي أن تنال مراكبه

فسأل عمر عن زوجها، فقالت: خرج في بعث العراق، فسأل ابنته حفصة -رضي الله عنها- كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر، أو أربعة، فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك"[2].

سادساً - الإيلاء وعلاج الخلافات الزوجية:

الإيلاء علاج لبعض الخلافات الزوجية، وليس لها جميعاً، فقد يكون سبب الخلاف بين الزوجين ابتعاد الزوج، وإعراضه عن امرأته، وانشغاله

(١) انظر: تفسير البغوي(١/ ٢٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ١٠٨) وابن كثير (١/ ٢٧٧) باختصار.

عنها، وفي هذه الحالة لا يكون الإيلاء هو العلاج المناسب، وعلى الزوج أن يكون حكيماً، وأن يختار لكل حالة ما يناسبها من علاج، وعلى أي حال فثمار الإيلاء كثيرة منها:

١- الإيلاء فرقة مؤقتة، وتجربة لبعد الزوجين، وهو فرصة لاختبار الرجل نفسه ومشاعره وقدرته على فراق امرأته، فإما أن يفيء ويستأنف حياة زوجية كريمة، فيها إمساك بالمعروف، وإما أن يفارق بإحسان، ويدع المرأة تختار طريقاً جديداً، وحياة أخرى .

٢- الإيلاء فرصة للمرأة الذكية لتدارك ما فرط منها، وتصحيح أخطائها، إن شعرت بحاجتها إلى بعلها .

٣- يعظم نفع الإيلاء في حالة المرأة المتكبرة على زوجها، المعتدة بجمالها، المختالة بقدرتها على إذلال الرجل أمام فتنتها، فإذا صمد الرجل أمام هذه الفتنة، وأمام سلاحها البتار مدة قد تصل إلى أربعة أشهر، عادت المرأة إلى رشدها، وتطامنت في نفسها.

٤- الإيلاء فرصة لتنفيس الغضب الثائر، مما يحمي الحياة الزوجية من تفوه الرجل بكلمات الطلاق، فيهدم أسرته، ويندم ولات ساعة مندم .

٥- الإيلاء فترة نقاهة، وفرصة لتجديد الحياة الزوجية، بعد سأم وملل، من طول المشاكل وكثرتها .

ولا يعني هذا الترغيب في الإيلاء، إذ هو علاج، ولا يصار إلى العلاج إلا في حالات مرضيّة معينة، أما في الحالات العارضة اليسيرة فبإمكان الزوج البعد عن زوجته بغير إيلاء وحلف، كالتعبد في مكة، والاعتكاف،

وسفر النـزهة، أو الدعوة إلى الله، وإعطاء المرأة فرصة لزيارة أهلها فترة طويلة .

وقد يجد الرجل وسيلة للبعد عن مشكلة ما بغير افتراق، كالانخراط في دورة علمية أو ثقافية، أو المشاركة في مسابقة، أو عمل تطوعي يملأ فراغه، ويصرفه عن التفكير في مشكلته .

الخاتمة

الحمد لله الذي تمت بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على من عمت ببعثته البركات، أما بعد :

فلقد تجسدت في ثنايا هذا البحث خطورة المشاكل الزوجية، وأنها البوابة الكبرى لنكد الحياة، والمَعْبر الواسع للطلاق، والفراق بين الزوجين، وتهدم الأسرة، وشتات الذرية، مع ما يكتنف ذلك من حزن دائم، وانشغال عن مهام الدنيا والآخرة، وفي خاتمة هذا البحث أذكر أهم ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات :

١ - أهمية الدراسة الموضوعية لقضايا الأسرة في الكتاب والسنة، وينبغي إبرازها للأجيال المسلمة، حتى تستفيد منها في مواجهة تحديات العصر.

إن على علماء الأمة، ورجال الإصلاح إيجاد الوسائل التي توصل طريقة القرآن في إسعاد الإنسان، وربط الأجيال الناشئة بدينها، الذي ابتعدت أو أبعدت عنه، فنالها من الشقاء ما نالها .

٢- وجوب تأهيل المقدمين على الزواج من الجنسين تأهيلاً علمياً ونفسياً ودينياً؛ حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ومعرفة بما يتطلب الزواج من مسؤوليات، وتحلٍ بأخلاقيات، وتخلٍ عن حريات، وتوقعٍ لخلافات، ودربة على حلها، أو التكيف معها .

٣- ينبغي مراعاة التكافؤ بين الزوجين، مادياً وعلمياً، حتى تقل فرص احتقار أحد الطرفين للآخر، كما يتعين مراعاة التقارب بينهما من

ناحية التدين، والانفتاح على الثقافات الوافدة، وموقفهما من عادات المجتمع؛ إذ إن التباين الكبير في هذا الشأن مدعاة لشقاء وشقاق، وخلاف وطلاق .

٤- من رحمة الله بعباده المؤمنين أن أحسن إليهم بإنزال هذا الكتاب المبارك، المشتمل على الشفاء لكل داء ديني أو اجتماعي أو سلوكي، ومن قلة البصيرة عدم استفادة المسلم من توجيه الله تعالى لحل مشاكله، مع خطورة الداء وتيسر الدواء.

ولا يخفى على مستفيد من نصوص الوحيين حيوية هذه النصوص، وتفوقها في إصلاح ذات البين، ومسايرتها لمشاكل الإنسان، مهما تغير الزمان أو المكان أو البيئة.

٥- يتبين من اهتمام الإسلام بمشاكل الزوجين، وكثرة طرق العلاج، وحرصه على الصلح، وأمره بإمساك المرأة، حتى مع البغض والنفور- أن الطلاق مبغض لله، وإنما أباحه لأن مساوئ تحريمه تفوق مساوئ إباحته، وعلى المسلم أن لا يتساهل فيما يكرهه ربه، ويفرح به شيطانه.

٦- بما أن كثيراً من الشباب يعيشون أمية فكرية، وانفصالاً عن الكبار، فرحمة بهم، ودرءاً لجهلهم، وحماية لهم من الاصطدام بالواقع، والمفاجأة بالعبء الثقيل، الذي يترتب على الزواج، فإني اقترح أمرين:

أ - إلزام المقدمين على الزواج من الجنسين بدورات تأهيليه، تشرح حقيقة الزواج ومشاكله، وكيفية التغلب عليها.

وما المانع أن تكون هذه الدورات جزءاً من المناهج الدراسية، فهي

أجدى على الفرد والأمة من بعض المقررات التي يتطلبها سوق العمل .

ب - أن يصاحب عقد النكاح كُتيِّباً على هيئة وثيقة رسمية ملزمة، يوضح فيها حقوق وواجبات كل فرد، فيما يخص الحياة الزوجية، ولا يتم عقد النكاح إلا إذا أيقن المأذون بإلمام الطرفين بهذه الوثيقة .

وفي الختام أقول: لا سعادة للزوجين المسلمين، ولا نهاية لمشاكلهما، إلا بالعودة الصادقة إلى كتاب الله، وسنة ورسوله- صلى الله عليه وسلم- وجعل الآخرة في الحسبان، واليقين بأن الزواج، وما يترتب عليه من إنفاق وبذل، وما ينتج عنه من ذرية، وما يقتضيه من صبر، وحسن خلق، وإيثار- كل ذلك عبادة لله وقربة، يجده المرء في ميزان حسناته أحوج ما يكون إليه .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المراجع

١- أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، تحقيق : على البجاوي،طبعة عام ١٣٩٤هـ الناشر : دار الفكر / بيروت .

٢- أحكام القرآن لعماد الدين علي بن محمد الطبري،المعروف بالكيا الهراسي،ط٢ ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية / بيروت.

٣- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٥هـ، الناشر : المكتب الإسلامي / بيروت .

٤- أسباب النزول للواحدي، تحقيق : عصام الحميدان، ط٢، ١٤١٢هـ . الناشر : دار الإصلاح / الدمام .

٥- الإسلام وبناء المجتمع، تأليف : أ.د. حسن أبو غدة وآخرين، ط١، ١٤٢٦هـ، مكتب الرشد / الرياض .

٦- الإسلام وبناء المجتمع، تأليف : د.أحمد محمد العسال، ط٩، ١٤١٥هـ، دار القلم/ الكويت .

٧- أصول علم النفس،تأليف : د.أحمد عزت راجح، ط٩، ١٩٧٣م، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر/ القاهرة .

٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،تأليف : محمد الأمين الشنفيطي، طبعة عام ١٤٠٣هـ، توزيع صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز.

٩- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، إشراف : صدقي محمد جميل، طبعة عام ١٤١٢هـ، الناشر : دار الفكر / بيروت .

١٠- التحرير والتنوير (تفسير التحرير والتنوير) تأليف: محمد الطاهر ابن عاشور، الناشر : الدار التونسية للنشر

١١- تحفة العروس، تأليف : محمد مهدي الاستانبولي، ط٤، ١٤٠١هـ، الناشر : المكتب الإسلامي / بيروت .

١٢- تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، تأليف : د . إبراهيم اللاحم، ط١، ١٤٢٤هـ، الناشر : دار العاصمة / بيروت .

١٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط١، ١٤٠٦هـ، الناشر : دار المعرفة / بيروت.

١٤- التفسير المنير، تأليف : د. وهبة الزحيلي، ط١، ١٤١١هـ، الناشر : دار الفكر المعاصر / بيروت .

١٥- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر، تحقيق:عبد الوهاب عبد اللطيف ط٢،١٣٩٥ هـ، الناشر : دار المعرفة / بيروت.

١٦- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط١، ١٣٨٤هـ، الناشر : دار المعرفة / بيروت .

١٧- تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر،تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط١، ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية / بيروت.

١٨- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق : عبد السلام محمد هارون وآخرين، طبعة عام ١٣٨٤هـ، الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .

١٩- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، تأليف :

عبـدالرحمن السـعدي، تحقيـق : عبـدالرحمن اللويحـق، ط١، ١٤٢١ هـ،مؤسسة الرسالة / بيروت.

٢٠- جـامع البيـان عـن تأويـل آي القـرآن (تفسـير الطـبري) لابـن جريـر الطبري، تحقيق : محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، ط ٢، الناشر : دار المعارف بمصر. وط ٣، ١٣٨٨ هـ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.

٢١- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، ١٣٧٢هـ، الناشر : دار إحياء التراث العـربي/ بيروت .

٢٢- حاشية الروض المربع، جمع عبد الرحمن بـن محمـد العاصـمي، ط٣، ١٤٠٥هـ، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحـوث العلميـة والإفتـاء والدعوة والإرشاد .

٢٣- حقوق المرأة المسلمة في القـرآن والسـنة، تـأليف : محمـد فريحـة، ط١، ١٤١٦هـ، المكتب الإسلامي .

٢٤- دور المرأة في المجتمـع الإسـلامي، تـأليف : توفيـق عـلي وهبـة، ط٣، ١٤٠١هـ، دار اللواء / الرياض.

٢٥- رسائل في أبواب متفرقة، تأليف :د/ محمد بـن إبـراهيم الحمـد، ط١، ١٤٢٧هـ، دار ابن خزيمة / الرياض .

٢٦- رسـائل في التربيـة والأخـلاق والسـلوك، تـأليف :د/ محمـد إبـراهيم الحمد، ط٢، ١٤٢٤هـ، دار ابن خزيمة / الرياض .

٢٧- روضة الطالبين وعمدة المتقين، للإمام النووي، ط٣، ١٤١٢هـ . المكتب الإسلامي .
٢٨- الزوج والزوجة ما لهما وما عليهما، تأليف : عبدالعزيز بن ناصر العبد الله، ط٢، ١٤٢٦هـ، مطبعة النرجس التجارية / الرياض.
٢٩- سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق : أحمد محمد شاكر،ط١، الناشر : المكتبة التجارية / مكة المكرمة .
٣٠- سنن أبي داود، للإمام أبي داود السجستاني، مراجعة وضبط : محمد محي الدين عبدالحميد،ط١، دار الفكر / بيروت .
٣١- السنن الكبرى للإمام البيهقي، تحقيق : محمد عبدالقادر عطا، ط١، ١٤١٤هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
٣٢- سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي،ط ١، ١٣٧٣ هـ دار الكتب العلمية/ بيروت .
٣٣- سنن النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، دار الكتاب العربي / بيروت .
٣٤- شعب الإيمان للإمام البيهقي،تحقيق:محمد السعيد بن بسيوني،ط٢، ١٤٢٩هـ،دار الكتب العلمية / بيروت.
٣٥- صحيح البخاري، ط٥، ١٤٠٦هـ عالم الكتب / بيروت .
٣٦- صحيح الجامع الصغير وزياداته ((الفتح الكبير))، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٦هـ المكتب الإسلامي .
٣٧- صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي،ط٢،١٩٧٢م،دار

إحياء التراث العربي / بيروت

٣٨- صحيح مسلم بشرح النووي،ط١، ١٣٤٩هـ، المكتبة المنصورية / القاهرة.

٣٩- ضعيف الجامع الصغير وزياداته ((الفتح الكبير))، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٣٩٩هـ، المكتبة الإسلامي .

٤٠- فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق : عبدا لعزيز بن عبد الله بن باز، الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض .

٤١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم الزمخشري، طبعة عام ١٣٩٢هـ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.

٤٢- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور، تصحيح : نخبة من علماء اللغة،ط٢، الناشر : دار صادر / بيروت .

٤٣- اللقاء بين الزوجين في ضوء الكتاب والسنة، تأليف : عبد القادر أحمد عطاء، طبعة عام ١٤٠٠هـ، الناشر : دار التراث العربي / القاهرة.

٤٤- محاسن التأويل، تأليف : محمد جمال الدين القاسمي، ط١، ١٣٧٦هـ، تصحيح : محمد فؤاد عبدا لباقي، الناشر : دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة .

٤٥- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب : عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، طبعة عام ١٤٠٤هـ، الناشر : الرئاسة

العامة لشؤون الحرمين الشريفين .
٤٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية / بيروت .
٤٧- المرأة في ميزان الطب والدين، للدكتور السيد الجميلي، ط١، ١٤٠٣هـ، دار التراث العربي / القاهرة .
٤٨- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي،ط١، ١٤٠٦ هـ إشراف د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة / بيروت.
٤٩- المسند للإمام أحمد بن حنبل، ط٥، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي.
٥٠- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، ١٤٠٣هـ المكتب الإسلامي .
٥١- معالم التنزيل للإمام البغوي، تحقيق : محمد عبد الله النمر وآخرين، ط١، ١٤٠٩هـ، دار طيبة / الرياض .
٥٢- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية / قم .
٥٣- المغني لموفق الدين ابن قدامة، تحقيق : عبد الله التركي، وعبد الفتاح الحلو، ط٣، ١٤١٧هـ، توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية .
٥٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد

كيلاني، دار المعرفة / بيروت .

٥٥- منهج السنة في الزواج، تأليف :د/ محمد الأحمدي أبو النور، ط٤، ١٤١٣هـ، دار السلام للطباعة والنشر / القاهرة .

٥٦- النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلامي، تأليف : د. محمد أحمد حسن، ود. أحمد فؤاد محمود، ط١، ١٤٢٤هـ، دار النشر الدولي/ الرياض.

٥٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام أبي السعادات ابن الأثير، تحقيق : طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ط١، ١٣٨٣هـ .

مباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم

تعريفها، أهميتها، مجالاتها، التأليف فيها

إعداد

د. عبد السلام بن صالح الجار الله

د. عبدالسلام بن صالح بن سليمان الجارالله

- عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (فضل القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (نقد الصحابة والتابعين للتفسير، دراسة نظرية تطبيقية).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن مباحث علوم القرآن الكريم كثيرة الأنواع متعددة الفروع، ومنها ما هو مشترك مع العلوم الأخرى، كمعرفة الفروق في المسائل والمصطلحات، وقد كثرت مؤلفات العلماء في الفروق على اختلاف فنونهم، فكتب أهل كل علم في الفروق المختصة بهم: كعلم العقائد، وعلم التصوف، وعلم الحديث، وعلم العربية، وعلم الفقه وأصوله، وعلم الطب، والآداب والسلوك، إضافة إلى علوم القرآن الكريم[1]، والفروق في بعض العلوم أسعد بالبحث من بعض، ويرجع اهتمام العلماء بها لما لها من أثر ظاهر في ضبط العلوم وتحريرها، وللدراسات القرآنية قصب السبق في هذا الفن، بل لا يبعد القول بأن الدراسات القرآنية هي أكثر العلوم بحثاً لمسائل

---

(١) انظر طرفاً من هذه المؤلفات في: الفهرست (ص ٧٠، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩٢، ١١٠، ١١٥، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ٢٩٤)، وكشف الظنون (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٨)، وإيضاح المكنون (٢/ ١٨٧-١٨٨)، والفروق الفقهية والأصولية د. يعقوب الباحسين (ص٥)، والفروق في مباحث الكتاب والسنة (ص٣٣) وما بعدها.

الفروق، ولا تعجب إذا علمت أن أول جملة تستفتح بها كتاب الله تعالى فيها مبحث من مباحث الفروق، فالرحمن الرحيم في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى يشتركان في الدلالة على صفة الرحمة، لكن بينهما فروق ؛ منها: عموم اسم الرحمن للخلق كلهم، واختصاص اسم الرحيم بالمؤمنين(١).

والمجالات التي بحث العلماء فيها الفروق في التفسير وعلوم القرآن عديدة، وقد أحببت المشاركة في دراسة هذا الموضوع.

وتعود فكرة البحث يوم أن كنت بصدد اختيار موضوع لرسالة الدكتوراه، فقد جمعت فروقاً كثيرة في التفسير وعلوم القرآن الكريم، ثم عرض لي ما صرفني عنه، فعاودت النظر فيه، وخطر لي أن أكتب فيه مقدمة أبين فيها أهميته، ومجالاته وأنواعه، وجهود العلماء في التأليف فيه.

وقد دعاني لدراسة الفروق في التفسير وعلوم القرآن أسباب، من أهمها:

أولاً: أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن، وسيأتي تفصيل ذلك.

ثانياً: أن أحداً لم يقم بدراسة موضوع الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم مع كثرة حديث العلماء عن مباحث الفروق بمجالاتها

(١) انظر تفصيل الفروق بينهما في: معالم التنزيل (١/ ٥١)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ٩١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٥)، والدر المصون (١/ ٣٢).

المختلفة، والكتب المفردة في الفروق في الدراسات القرآنية قصرت الحديث على بيان الفروق في جزئية محددة ؛ مثل من ألف في الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، أو الفرق بين التفسير والتأويل، أو من كتب في الفرق بين الضاد والظاء.

أما هذه الدراسة فهي دراسة وصفية لمباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن بعامة، دون الاقتصار على ذكر الفروق في جزئية محددة أو نطاق ضيق.

ثالثاً: الحاجة إلى دراسة هذا الموضوع دراسة تحدد معالمه وتضبط أصوله وتبين مجالاته، وتبرز معالمه، وأردت بهذه الدراسة أن أسهم في ذلك ولو بشيء يسير، أسوة بما كتبه العلماء في الفروق في الفنون الأخرى، وبخاصة الفروق في الفقه وأصوله، فقد عني أهل هذا الفن بالفروق سواء في بيانها وجمعها، أو في تأصيلها ودراستها[1].

---

(١) هناك بحوث جامعية عديدة في الفروق الفقهية والأصولية وهي في أغلبها جمع لمسائل الفروق في الأبواب المختلفة، مثل: الفروق في مسائل الحكم عند الأصوليين، دراسة نظرية تطبيقية، رسالة دكتوراه أعدها الباحث راشد بن علي الحاي، والفروق في دلالة غير المنظوم عند الأصوليين جمعاً وتوثيقاً ودراسة، ماجستير أعدها الباحث محمد بن سليمان العريني، والفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، إعداد: هشام بن محمد السعيد، والفروق الأصولية في الإجماع والقياس جمعاً وتوثيقاً ودراسة، ماجستير أعدتها الباحثة نوف بنت ماجد الفرم، وهناك دراسة نظرية تأصيلية للفروق الفقهية والأصولية، اسمها: الفروق الفقهية والأصولية، من تأليف أ. د. يعقوب الباحسين.

هدف البحث

يهدف البحث إلى لفت أنظار الباحثين إلى معرفة الفروق القرآنية المتفرقة في كتب التفسير وعلوم القرآن الكريم، وجمع النظير إلى نظيره، ثم دراسته وتحقيقه، ولا نبعد إذا اعتبرنا معرفة الفروق في القرآن وعلومه نوعاً مستقلاً من أنواع علوم القرآن التي لم يذكرها العلماء عند عدهم لأنواع علوم القرآن الكريم[1].

خطة البحث

يشتمل البحث على: مقدمة وستة مباحث وخاتمة وفهارس:

المقدمة، وفيها أسباب اختيار الموضوع وخطة البحث.

المبحث الأول: تعريف علم الفروق.

المبحث الثاني: دواعي ذكر الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

المبحث الثالث: مجالات الفروق في التفسير وعلوم القرآن.

المبحث الرابع: أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

المبحث الخامس: التأليف في فروق التفسير وعلوم القرآن.

المبحث السادس: أثر إهمال الفروق في التفسير وعلوم القرآن.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

---

(١) وقد ذكر السيوطي رحمه الله في تدريب الراوي ثلاثة وتسعين نوعاً من أنواع علوم الحديث، فاستدرك عليه الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله أنواعاً لم يذكرها، فعد منها: معرفة الفروق الحديثية، انظر التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل (ص١٦٨-١٦٩).

منهج البحث

البحث كما يبدو من خطته بحث نظري وصفي للفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم، وسوف أتبع في البحث ما يأتي:

- عزو الآيات إلى مكانها بذكر اسم السورة ورقم الآية.
- دعم البحث بالأمثلة التطبيقية التي تجلي مقاصده وتبرز أهدافه.
- في الأمثلة التي أذكر فيها تفصيل الفرق وبيان وجهه، أكتفي بمثال أو مثالين فقط.
- أما عند ذكر أمثلة الفروق إجمالاً، فقد أستطرد في سردها، فأذكر أمثلة كثيرة، كما فعلت في الفروق الاصطلاحية ؛ نظراً لأهميتها، ودفعاً لتوهم قلتها.
- ولبيان أن الأمثلة التي أذكرها من مباحث التفسير وعلوم القرآن الكريم سأحرص – قدر الإمكان – على عزوها إلى الكتب المصنفة في التفسير وعلوم القرآن الكريم.
- لا يعني ذكر أمثلة الفروق في هذه الدراسة التسليم بوجود الفرق في المسائل التي أذكرها، وإنما المراد بيان أنها من مباحث الفروق وحسب، فالعلماء قد يختلفون في الفرق بين مسألتين إثباتاً أو نفياً، ولكلٍ أدلته، وقد ينتهي الأمر عند النظر في أدلة الفريقين، والتحقيق في اختلافهم إلى عدم وجود الفرق، وهدف هذه الدراسة إبراز علم الفروق القرآنية، وجهود العلماء في بحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

- لم أترجم للأعلام الذين يرد ذكرهم ؛ رغبة في الاختصار، واكتفيت من ذلك بذكر تاريخ وفاة العلَم.

والله أسأل أن يوفقني وقارئ هذا البحث للعلم النافع والعمل الصالح ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول
تعريف علم الفروق

أولاً: تعريف الفروق لغة.

الفروق جمع فرق، والفرق في اللغة يدور في أكثر تصاريفه حول معنى الفصل بين شيئين، وذكر ابن فارس (ت٣٩٥) أن الفاء والراء والقاف أصيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين[١].

والتفريق بين المتشابهات يعني بيان أوجه الخلاف بينها[٢].

وفي مفردات ألفاظ القرآن: " فرقت بين الشيئين: فصلت بينهما سواءً كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾"[٣].

ومن شواهد هذا المعنى في القرآن الكريم:

قول الله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾[٤]، أي: يفصل من غيره ويخلص[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (ص٨١٤).

(٢) المعجم الوسيط (٦٨٥).

(٣) سورة المائدة من الآية (٢٥)، وانظر مفردات ألفاظ القرآن (ص٦٣٣).

(٤) سورة الدخان آية (٤).

(٥) المحرر الوجيز (٧/ ٥٧٠)، والتسهيل لابن جزي (٢/ ٣١٢)، وفتح القدير (٤/ ٥٧٠)، والتحرير والتنوير (٢٥/ ٢٧٩).

ومن هذا المعنى سُمي القرآن الكريم بالفرقان، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[1].

وسُمي يوم بدر بيوم الفرقان، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

ويبدو بوضوح العلاقة بين المعنى اللغوي للفروق والمعنى الاصطلاحي، واجتماعهما في الفصل والتمييز بين شيئين بينهما اشتراك واشتباه في شيءٍ ما.

ثانياً: تعريف الفروق اصطلاحاً.

تطرق العلماء في كل فن إلى تعريف الفروق المختصة بهم، فاللغويون والنحويون عرفوا الفروق اللغوية والنحوية، والفقهاء والأصوليون عرفوا الفروق الأصولية والفقهية.

ومن هنا نجد تعريفات متعددة لعلم الفروق، وعند تأملها نجدها تقرب علم الفروق في العلم الذي تتحدث عنه:

ومن تلك التعريفات: تعريف اللغويين للفروق اللغوية بأنها: الألفاظ التي تقاربت في معانيها وأشكل الفرق بينها، والوقوف على حقائق معانيها وأغراضها[3].

فاللغويون ينظرون إلى الألفاظ المتقاربة في معناها، واستخراج أوجه

(١) سورة الفرقان آية (١).

(٢) سورة الأنفال من الآية (٤١).

(٣) انظر الفروق اللغوية للعسكري (ص٢١).

الاختلاف بينها.

أما تعريف الفروق في الفقه وأصوله، فقد عني الأصوليون والفقهاء بالفروق عناية خاصة قديماً وحديثاً، وهم أوسع من بحث في الفروق وصنف فيها، ولا يكاد يخلو مذهب من المذاهب الأربعة المتبوعة من عدة مصنفات مفردة في الفروق[1].

وقد تناول الأصوليون الفروق في مجالات مختلفة من علم أصول الفقه، وتبعاً لهذا الاهتمام فقد كثرت تعريفاتهم للفروق، فعرفوا الفروق في باب القياس، وبالأخص في قوادح العلة التي من أجلها أعطي الفرع حكم الأصل، فوجود الفرق بين الأصل والفرع يمنع من اتحاد حكميهما عند

---

(١) وتمتاز مصنفاتهم بأن كثيراً منها يبحث الفروق بشكل شمولي، ولا يختص ببحث الفرق في قضية محددة، ومن المصنفات في الفروق الفقهية: الفروق لأبي الفضل محمد بن صالح الكرابيسي الحنفي (ت٣٢٢)، وتلقيح العقول في فروق النقول لأحمد بن عبيد الله المحبوبي الحنفي (ت٦٣٠)، والنكت والفروق لعبد الحق بن محمد القرشي الصقلي المالكي (ت٤٦٦)، وعدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق لأبي العباس الونشريسي المالكي (ت٩١٤)، والفروق لأبي العباس أحمد بن عمر بن سريج الشافعي (ت٣٠٦)، والجمع والفرق لأبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي (ت٤٣٨)، والفروق لأبي عبد الله محمد السامري الحنبلي (ت٦١٦)، وإيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل لعبد الرحيم الزريراني الحنبلي (ت٧٤١).
وفي الفروق الأصولية: كتاب أنوار البروق في أنواء الفروق لأبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي المالكي المشهور بالقرافي (ت٦٨٤)، وإدرار الشروق على أنواء الفروق لسراج الدين قاسم بن عبد الله الأنصاري (ت٧٢٣)، وتقدم في المقدمة ذكر بعض الرسائل الجامعية المؤلفة في هذا الموضوع.
انظر: الفروق الفقهية والأصولية (ص٨٥-١٢٨،١٦٠-١٧٤)، وإيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل (ص٢٦) مقدمة المحقق، والفروق في مباحث الكتاب والسنة (ص٣٩).

المعترض، وقد أفاض الأصوليون الكلام عن الفروق عند هذه المسألة.

ومن تعريفاتهم للفروق هنا تعريف الجويني (ت٤٧٨) بأن " حقيقة الفرق هي الفصل بين المجتمعين في موجب الحكم بما يخالف بين حكميهما"[(١)].

ويعرف القرافي (ت٦٨٤) الفرق بأنه " إبداء معنى مناسب للحكم في إحدى الصورتين مفقود في الأخرى "[(٢)].

وفي كشاف اصطلاحات الفنون: " الفرق بالفتح وسكون الراء عند الأصوليين وأهل النظر هو أن يفرّق المعترض بين الأصل و الفرع بإبداء ما يختصّ بأحدهما لئلّا يصح القياس، و يقابله الجمع، وبالجملة فالفرق: أن يبين المعترض في الأصل وصفاً له مدخل في العلّية"[(٣)].

ومن أمثلة الفرق عندهم لو قال شخص: يقاد المسلم بالذمي قياساً على غير المسلم بجامع القتل العمد العدوان، فيقول المعترض: إن بينهما فرقاً، فكون القاتل مسلماً يمنع من وجوب القصاص عليه لشرفه[(٤)].

ويبحث الأصوليون الفروق بإسهاب عند التفريق بين القواعد والمصطلحات المتشابهة في بعض الوجوه ببيان أوجه الاختلاف بينها[(٥)].

ومن أمثلته: الفرق بين الحكم التكليفي والحكم الوضعي[(٦)]، والفرق

---

(١) الكافية في الجدل (ص٢٩٨).

(٢) شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول (ص٣١٣)، وانظر شرح الكوكب المنير (٤/ ٣٢٠).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١٢٦٩).

(٤) شرح الكوكب المنير (٤/ ٣٢٣)، والفروق الفقهية والأصولية (ص١٩).

(٥) الفروق الفقهية والأصولية (ص١٣١).

(٦) انظر: الفروق للقرافي (١/ ١٦٣)، وشرح الكوكب المنير (١/ ٣٤٢).

بين الواجب الموسع والواجب المضيق[1]، والفرق بين فرض العين وفرض الكفاية[2].

وقد تشترك بعض مباحث الفروق في أصول الفقه مع مباحث علوم القرآن الكريم، مثل: الفرق بين النسخ والتخصيص، والنسخ والبداء والنسخ والتقييد ونحوها.

أما الفقهاء فيبحثون الفروق الفقهية في المسائل التي يشبه بعضها بعضاً في الصورة وتختلف في الحكم، ولذا يعرفون الفرق الفقهي بأنه الفن "الذي يذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويراً ومعنى، المختلفة حكماً وعلة"[3].

أو هو المسائل المشتبهة صورة المختلفة حكماً ودليلاً وعلة[4].

ومن أمثلته قول الفقهاء: من أكل شاكاً في طلوع الفجر وبقي على شكه، فلا قضاء عليه، وإن أكل شاكاً في غروب الشمس، وبقي على شكه فعليه القضاء، **والفرق بينهما**: أن الأصل في المسألة الأولى بقاء الليل، فلا يزيله الشك، والأصل في المسألة الثانية بقاء النهار، فلا يزيله الشك[5].

ومما سبق في تعريف الفروق الفقهية يتبين اهتمام الفقهاء ببيان الفروق في الأحكام وأدلتها وعللها.

---

(١) شرح مختصر الروضة للطوفي (١/ ٣١٢).

(٢) انظر: الفروق للقرافي (١/ ١١٦)، وشرح الكوكب المنير (١/ ٣٧٤).

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي (ص٧).

(٤) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص٢٣١)، والفروق للسامري (١/ ١١٥).

(٥) الفروق للسامري (١/ ٢٦٠)، وإيضاح الدلائل (ص١٩٦).

وبه – أيضاً – يتضح الفرق بين الفروق الأصولية والفروق الفقهية، فالفروق الفقهية بيان أوجه الاختلاف بين الفروع المتشابهة في الصورة المختلفة في الحكم، أما الفروق الأصولية فهي تبحث في الفروق بين القواعد والأصول والمصطلحات[1].

وأما الفروق المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه فهي أعم وأشمل، إذ تشمل الفروق اللغوية، والفروق بين معاني الآيات والأساليب القرآنية، بل إن هناك فروقاً متعلقة بنطق الآيات والكلمات ومخارج الحروف القرآنية، وهذه الفروق وغيرها مما سيأتي تفصيله كلها أمور أصيلة في مباحث الفروق القرآنية.

ومن خلال تعريف الفروق في الفنون الأخرى ومعرفة طبيعته يمكننا القول بأن المقصود بالفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم: **بيان أوجه الاختلاف في اللفظ أو المعنى أو الحكم بين الأشياء المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه التي يقع بينها اشتباه أو اشتراك في شيءٍ ما.**

---

(١) انظر الفروق الفقهية والأصولية (ص١٥، ١٣١).

المبحث الثاني
دواعي ذكر الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم

من المهم بيان الدواعي التي تدفع العلماء إلى ذكر الفروق القرآنية، وبذلك تتبين عناية العلماء ببيان الفروق، وأن ذكرهم لها له ما يبرره، وليس هو من قبيل الترف العلمي أو تشقيق المسائل وتفريعها.

وتتأكد أهمية معرفة الدواعي كونها تسهم في ضبط الفروق، وتحد من التوسع والاستطراد في ذكرها وتوجيهها، فليس كل أمرين يذكر الفرق بينهما، وإنما يذكر ما تدعو إليه الحاجة، ويكون لذكره داعٍ وجيه، ومبرر صحيح.

ومن أبرز دواعي العلماء في بيان الفروق في التفسير علوم القرآن الكريم ما يأتي:

أولاً: الاشتراك في بعض معاني الألفاظ، فتحتاج إلى بيان الفروق الدقيقة بينها.

ويرد هذا الداعي في الفروق اللغوية حين يكون بين كلمتين اشتراك في بعض المعاني، فالبخل والشح لفظان يشتركان في معنى الإمساك والمنع، فالاشتراك حقيقي في الأصل اللغوي[1]، ومثل ذلك يقال في: الحمد والشكر، والخوف والخشية، والفقير والمسكين، والإسراف والتبذير، والرأفة والرحمة، والريب والشك[2].

---

(١) انظر: الفروق اللغوية للعسكري (ص١٧٦)، ومفردات ألفاظ القرآن (ص١٠٩، ٤٤٦).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٨٦، ٣٥٦)، والتحرير والتنوير (٢/ ٢٥، ٧/ ٤٢١، ٢٨/ ٨٤، ٩٤، =

ولذا يؤكد بعض المفسرين على الاشتراك والتقارب بين الألفاظ التي تحتاج إلى بيان الفرق، فأبو الحسن الماوردي رحمه الله (ت٤٥٠) يقول عند قول الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[(١)]: "والفرق بين الذل والخشوع - **وإن تقارب معناهما** - هو أن الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع أن يتذلل لذي طاعة"[(٢)].

ويقول عند قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾[(٣)]: "والفرق بين الجلاء والإخراج - **وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً** - من وجهين:

أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة"[(٤)].

ويرد هذا الداعي أيضاً في الفروق الاصطلاحية، فمن المعلوم أن لكل مصطلح معنى لغوي يرجع إليه، وقد يتقارب المعنى اللغوي لمصطلحَين، فيقع التشابه بينهما كالتفسير والتأويل، فإنهما يشتركان لغة في معنى البيان[(٥)]،

= ٣٥٤، ٣٠/ ٦٣٠)، وكتاب الفروق اللغوية د. محمد الشايع (ص٢١٥-٢٩٠).

(١) سورة طه الآية (١١١).

(٢) النكت والعيون (٣/ ٤٢٧)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٤٢).

(٣) سورة الحشر الآية (٣).

(٤) النكت والعيون (٥/ ٥٠١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٣٣٩).

(٥) انظر في المدلول اللغوي لهما: لسان العرب (١/ ١٧٢، ٥/ ٣٤١٢).

وعند النظر في تعريف العلماء لهذين المصطلحين نجدهم يكثرون الأقوال في الفروق بينهما.

ثانياً: الاشتراك في الأحكام، فقد يقع اشتراك في أحكام بعض المسائل، فيقع التشابه بينها، فيحتاج الأمر إلى بيان الفرق، ومن أمثلته: اشتراك النسخ والتخصيص في كونهما رفع للحكم، لكن النسخ رفع كلي، أما التخصيص فهو رفع جزئي عن بعض أفراد العام، بحيث لا يشملهم الحكم بعد تخصيصه[1]، يقول الآمدي : (ت٦٣١) : " إن التخصيص والنسخ وإن **اشتركا** من جهة أن كل واحد منهما قد يوجب تخصيص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ لغةً، غير أنهما يفترقان من عشرة أوجه " ثم ذكرها[2].

ويقول الزرقاني رحمه الله (ت١٣٦٧) بعد أن عرف النسخ والتخصيص: " وبالنظر في هذين التعريفين نلاحظ أن هناك تشابهاً قوياً بين المعرفين، فالنسخ فيه ما يشبه تخصيص الحكم ببعض الأزمان، والتخصيص فيه ما يشبه رفع الحكم عن بعض الأفراد، ومن هذا التشابه وقع بعض العلماء في الاشتباه "[3].

ومن ذلك: اشتراك القرآن الكريم والحديث في جواز نسبتهما إلى الله تعالى، فيقال: قال الله في كتابه، وقال الله في الحديث القدسي، وهنا قد يقع الاشتباه، فيحتاج العلماء إلى ذكر الفروق بينهما، وقد ذكروا بينهما فروقاً

---

(١) شرح الأصول من علم الأصول لابن عثيمين (ص٣٨٦).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ١١٣).

(٣) مناهل العرفان (٢/ ٨٠)، وانظر: الموافقات للشاطبي (٣/ ٣٤٤).

كثيرة[١].

ثالثاً: التقارب اللفظي في نطق بعض الكلمات القرآنية، حيث تتقارب مخارج بعض الأحرف، مما يؤدي إلى الاشتباه[٢] بينها في نظر كثير من الناس، وقد نص بعض من ألف في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن الكريم إلى أن من دواعي تأليفه ما يحصل عند القراء وغيرهم من الاشتباه بين الضاد والظاء، يقول أبو عمرو الداني رحمه الله (ت٤٤٤) في مقدمة كتابه الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل[٣]: " وقد دعاني ما رأيته من حاجة الطالبين إلى معرفة ذلك مع غلط كثير من القراء وغيرهم فيه إلى أن أفرد كتاباً في الفرق بينهما في كتاب الله - عز وجل – خاصة نسقاً واحداً، وأجعل ذلك أبواباً وفصولاً، يقاس عليها ما يرد منها، مع تبيين وجوه ذلك، وتفسير معانيه، وتصرف اشتقاقه، ودوره في الكلام ليعمل على حساب ما ورد".

رابعاً: ورود الإطلاق في بعض المسائل والمصطلحات ونحوها، والإطلاق من موارد الاشتباه، فيقع الخلط بين الأشياء، وهنا يحتاج لبيان الفرق.

ومن أمثلته: أن المصطلح الواحد يطلق ويراد به أمران، فيقع الخلط

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان (ص٢٠)، ودراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (ص٢٤)، وقد ألف في هذه القضية بشكل مستقل كما سيأتي في مبحث التأليف في الفروق.

(٢) الاشتباه يرد بمعنى: الالتباس، وقد يكون نتيجة لوجود التشابه، وهو الاشتراك بين شيئين في معنى من المعاني، فيقع الاشتباه، وفي أساس البلاغة (ص٣٢٠):" اشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لإشباه بعضها بعضاً"، وفي القاموس المحيط (ص١٦١٠): " تشابها واشتبها: أشبه كل منهما حتى التبسا "، وقد يطلق الاشتباه ويراد به التشابه، انظر: تهذيب اللغة (٦/ ٩٢).

(٣) (ص٢٢).

بينهما ؛ مثل المتشابه، فإنه نوعان: المتشابه المعنوي الذي هو ضد المحكم، وهو الوارد في قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[1]، وهو من اسمه متعلق بالمعنى، وللعلماء في تعريفه أقوال، من أحسنها: أنه ما التبس فهمه على كثير من الناس أو بعضهم، واحتاج في بيانه إلى غيره[2].

والنوع الثاني: المتشابه اللفظي الداخل في مفهوم قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾[3]، قال قتادة رحمه الله (ت١١٧) في معنى المتشابه هنا: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال عكرمة (ت١٠٥) والحسن (ت١١٠) رحمهما الله: ثنَّى الله فيه القضاء، زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها[4].

والتعريف الاصطلاحي للمتشابه اللفظي هو: الآيات التي ترد في القرآن

---

(١) سورة آل عمران من الآية (٧).

(٢) انظر مضمون هذا التعريف في: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤)،

(٣) سورة الزمر من الآية (٢٣).

(٤) جامع البيان (٢٠/ ١٩١)، وتفسير القرآن لعبد الرزاق (٢/ ١٤٠)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٨٤)، والدر المنثور (٥/ ٣٢٥)، والمفهوم الذي ذكرناه هو أحد مفهومين للآية، والمفهوم الآخر أنه متشابه في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، وكلا المفهومين صحيح، انظر: زاد المسير (٧/ ٢٤)، وتيسير الكريم المنان لابن سعدي (ص٧٢٣)، والتحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٥).

في أكثر من موضع، ويكون بينها اتفاق في الألفاظ، لكنها تختلف بزيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف ونحو ذلك[١]، وقد يقع الخلط بينه وبين المتشابه المعنوي، فيُظن أن الثاني هو الأول.

خامساً: من دواعي ذكر الفروق الرد على المغرضين والطاعنين، وموردي الإشكالات، أو مدعي التعارض بين آيات الكتاب العزيز، وذكر الفروق في هذه الحالة أقوى في إزالة الشبهة، ودفع إيهام التعارض، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الداعي والتمثيل له عند الحديث عن أهمية الفروق والتأليف فيها، ولابن عقيل الحنبلي رحمه الله (ت٥١٣) كلمة نفيسة في بيان أهمية الفروق في دفع الشبه، وإن كان كلامه يتعلق بالأدلة، لكن يمكن الاستفادة منه هنا، يقول رحمه الله: " وما قرع الناس في دفع الشبهة عن الحجة إلا بإظهار الفرق "[٢].

وبتأمل الدواعي السابقة نجد بينها قدراً مشتركاً، وهو وجود الاشتراك والتقارب فيما يراد التفريق بينها، ولهذا جاء في التعريف الاصطلاحي للفروق التأكيد على وجود التشابه والاشتراك فيما يراد التفريق بينه، بل إن التعريفات للفروق في العلوم الأخرى أكدت هذه القضية كما تقدم.

وهذا الاشتراك والتقارب الذي يقع بين بعض الجزئيات قد يكون

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي (ص٢١٧)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (ص٦٣)،

(٢) الواضح في أصول الفقه (٢/ ٣١٠).

حقيقياً، له أسبابه الواقعية المفضية إلى اشتباه المسائل لدى بعض الناس، فيقتضي الأمر بيان الفروق لإزالة اللبس، كما في الأمثلة السابقة.

وقد يقع الاشتباه في ذهن بعض الناس ، ولا يكون له حقيقة واقعية، وهذا يكثر عند غير المتخصصين، وهنا يحتاج العلماء إلى بيان الفرق، ومن أمثلته:

وقوع الاشتباه بين الأحرف السبعة والقراءات السبع، فهذا الاشتباه والاشتراك لم يخطر ببال مسبع السبعة أبو بكر بن مجاهد رحمه الله (ت٣٢٤)، لكنه وقع في ذهن كثير من الناس، مما ألجأ العلماء إلى بيان الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع، يقول المهدوي رحمه الله (ت٤٤٠): " ولقد فعل مسبع هؤلاء السبعة ما لم يكن ينبغي أن يفعله، وأشكل على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله .... فأوهم كل من قلَّ نظره، وضعفت عنايته أن هذه القراءات السبع التي قال فيها النبي ﷺ: " **أنزل القرآن على سبعة أحرف** "[(١)]، وأكد وهمه ما يراه من اجتماع أهل الأمصار عليها، واطراحهم ما سواها، وذلك لعمري موضع إشكال على الجهال، وليته إذ ذهب إلى الاقتصار على بعض قراء الأمصار، واجتهد في الاختيار جعلهم أقل من السبعة أو أكثر، فكان يزيل بعض الشبهة الداخلة على الأغمار "[(٢)].

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٣/ ٩٠)، ومسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (١/ ٥٦٠)، برقم (٨١٨)، كلاهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات (ص٢٥٠) ضمن كتاب نصوص محققة في علوم القرآن الكريم، د. حاتم الضامن.

المبحث الثالث

مجالات الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم

من طبيعة الفروق بعامة أنها تُذكر كلما دعت الحاجة إليها، وتقدم في المبحث السابق أن الذي يدعو إلى الحديث عنها الاشتراك والاشتباه، فمتى وجد الاشتباه احتيج لبيان الفروق، ولذا فإن مباحث الفروق متفرقة في شتى علوم القرآن الكريم، والمجالات القرآنية التي كانت محلاً لمباحث الفروق متنوعة، ونريد هنا وضع تصنيف للمجالات التي كانت محل بحث الفروق ليجمع النظير إلى نظيره، فتلتئم مباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم، وسوف يكون النظر في هذا المبحث إلى الفروق - لأنها محل البحث - وليس إلى أنواع علوم القرآن الكريم، فنذكر المجال، ثم نذكر صوره وأمثلته من التفسير وعلوم القرآن الكريم.

ويمكن تصنيف مباحث الفروق في الأنواع الآتية:

النوع الأول: الفروق اللفظية المتعلقة بنطق الأحرف والكلمات القرآنية، وهذا النوع متعلق بعلم القراءات والتجويد، فهناك حروف متقاربة في مخرجها، وهذا التقارب يؤدي إلى الخلط بينها والغلط في نطقها، ولا بد هنا من بيان الفروق بينها، مثل الذال والزاي والشين والسين، وبتأمل الفروق في هذا النوع نجدها على قسمين:

القسم الأول: الفروق اللفظية التي تؤثر في المعنى، فالخلط بين بعض الأحرف يؤدي إلى اختلاف المعنى، ومن أمثلته: الفرق بين الضاد والظاء،

وبنظرة عابرة للحروف التي تكلم العلماء في الفرق بينها نجد أوفرها حظاً التفريق بين الضاد والظاء، وإنما كثر حديث العلماء عن الفرق بينهما لصعوبة التمييز بين مخرجهما، يقول مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت٤٣٧) مبيناً صعوبة مخرج الضاد: "والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج، وأشدها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخل بقراءته "[١].

ويقول ابن الجزري رحمه الله (ت٨٣٣):"واعلم أن هذا الحرف ليس من الحروف حرف يعسر على اللسان غيره، والناس يتفاضلون في النطق به"[٢].

ومع صعوبة النطق فإن المعنى يختلف بين ما ينطق بالضاد وما ينطق بالظاء، ومن لم يعرف الفرق أخل بالمعنى، يقول أبو عمرو الداني رحمه الله: " ومن آكد ما على القراء أن يخلصوه [يعني حرف الضاد] من حرف الظاء بإخراجه من موضعه وإيفائه حقه من الاستطالة، ولا سيما فيما يفترق معناه من الكلام، فينبغي أن ينعم بيانه ليتميز بذلك في نحو: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، و﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾[٣]، و ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ﴾[٤] ، و ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾[٥]، و ﴿وَغِيضَ

---

(١) الرعاية (ص١٨٥).

(٢) التمهيد (ص١٤٠).

(٣) سورة الفتح من الآية (٦).

(٤) سورة الإسراء من الآية (٦٧).

(٥) سورة النحل من الآية (٥٨).

ﵟٱلۡمَآءُﵞ[١]، وﵟوَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُﵞ[٢]، ﵟوَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَﵞ[٣]، وﵟكَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُﵞ......... وما أشبهه ألا ترى أنه متى لم يستعمل ذلك اشتبه لفظ الجميع، وتغير المعنى، وفسد المراد"[٤].

ولصعوبة التفريق بين الضاد والظاء في النطق فقد اُغتفر الإخلال به لمن لم يقصده وبخاصة في الفاتحة، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨): " وأما من لا يقيم قراءة الفاتحة، فلا يصلي خلفه إلا من هو مثله، فلا يصلي خلف الألثغ الذي يبدل حرفاً بحرف، إلا حرف الضاد إذا أخرجه من طرف الفم، كما هو عادة كثير من الناس، فهذا فيه وجهان:

منهم من قال: لا يصلى خلفه ولا تصح صلاته في نفسه ؛ لأنه أبدل حرفا بحرف ؛ لأن مخرج الضاد الشدق، ومخرج الظاء طرف الأسنان، فإذا قال (ولا الظالين) كان معناه ظل يفعل كذا.

والوجه الثاني: تصح، وهذا أقرب، لأن الحرفين في السمع شيء واحد، وحس أحدهما من جنس حس الآخر لتشابه المخرجين، والقارئ إنما يقصد الضلال المخالف للهدى، وهو الذي يفهمه المستمع، فأما المعنى المأخوذ من ظل فلا يخطر ببال أحد "[٥].

---

(١) سورة هود من الآية (٤٤).

(٢) سورة الرعد من الآية (٨).

(٣) سورة آل عمران من الآية (١٣٤).

(٤) التحديد في الإتقان والتجويد (ص١٦٢-١٦٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٥٠).

ويقول ابن كثير رحمه الله (ت٧٧٤): " والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما ؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة، ومن الحروف الرخوة، ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك، والله أعلم "[(١)].

وقد يؤدي اختلاف الضاد أو الظاء إلى اختلاف المعنى، ويكون كلا المعنيين صحيحاً، ومثاله: قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[(٢)]، فإنها إذا قرئت بالضاد كان معناها البخل والشح، وإذا قرئت بالظاء صارت بمعنى التهمة، وكلا القراءتين متواترة، والمعنى صحيح في كلا القراءتين، فالنبي ﷺ غير متهم على الوحي، وليس هو ببخيل في تبليغه، فالاختلاف في المعنى من اختلاف التنوع[(٣)].

والقسم الثاني: ما لا يؤثر الإخلال به في المعنى، ومن أمثلته: الفرق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٣) ط. دار طيبة، ونحو هذا الكلام في التفسير الكبير للرازي (١/ ٦٩).

(٢) سورة التكوير آية (٢٤).

(٣) قرأ بالظاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس، وقرأ الباقون بالضاد، انظر القراءتين في: التيسير (ص٢٢٠)، والنشر (٢/ ٣٩٨)، وانظر في معناهما: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٦٢)، وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٢): " وإذ تواترت قراءة بضنين بالضاد الساقطة، وبظنين بالظاء المشالة علمنا أن الله أنزله بالوجهين، وأنه أراد كلا المعنيين ".

بين الإدغام والإخفاء[١].

ومع أن هذا القسم غير مؤثر في المعنى، فلا يعني أنه ليس له ثمرة البتة، فالتفريق بين الإدغام والإخفاء معتبر في تجويد القرآن وترتيله، وقارئ القرآن الكريم مأمور – استحباباً في أقل الأحوال – بالتمييز بينهما حال التلاوة.

وهكذا الشأن في سائر الحروف التي بينها تقارب في المخرج مما يؤدي إلى الاشتباه بينها لدى بعض الناس، فينبغي العناية بالتفريق بينها لتقرأ على الوجه الصحيح، فإن ذلك من تمام ترتيل القرآن وتجويده.

النوع الثاني: الفروق اللغوية لألفاظ القرآن، والمراد بها بيان وجوه الاختلاف بين الألفاظ المتقاربة في معناها، وإيضاح وجوه المعاني لتلك الألفاظ، وقد جاء في الكتاب العزيز ألفاظ متقاربة، لكن بينها فروق دقيقة، والقول بوجود الفروق اللغوية في القرآن الكريم يرجع بنا إلى مسألة لغوية، وهي وقوع الترادف في اللغة العربية، والمقصود بالترادف: توالي الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[٢].

وقد أنكر كثير من العلماء وقوعه، وأثبته آخرون[٣]، والأقرب – والله أعلم – أن الترادف واقع في اللغة العربية باعتبار، فإذا نظرنا مثلاً إلى القمح

(١) انظر: غاية المريد في علم التجويد (ص٦٧).

(٢) انظر في تعريفه: التعريفات للجرجاني (ص٨٣)، والمزهر في علوم اللغة (١/ ٤٠٢)

(٣) انظر الخلاف في هذه القضية: شرح الكوكب المنير (١/ ١٤١)، والمزهر في اللغة (١/ ٤٠٣)، والفروق اللغوية د. محمد الشايع (ص٣٩ وما بعدها).

والحنطة والبر، أو نظرنا إلى السيف والمهند والحسام والعضب من حيث دلالتها على ذات واحدة حكمنا بترادفها من هذا الوجه، ومن ثَمَّ قال من قال من أهل اللغة بالترادف، وتقدم في التعريف الاصطلاحي للفروق أن ثمة اشتراكاً يقع بين ما يراد التفريق بينه، وهو هنا الاشتراك في الدلالة على الذات، والقول بالترادف على هذا الاعتبار لا يعني إلغاء وجود الفروق بين كثير من الألفاظ المتقاربة باعتبار آخر، فإنه " ما من اسمين لمسمى واحد إلا وبينهما فرق في صفة أو نسبة أو إضافة، سواء علمت لنا أو لم تعلم "[1].

وعليه فوقوع الترادف في القرآن الكريم على الاعتبار الثاني ضعيف، ولا يبعد القول بعدم وجوده، ويؤكد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن " الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه ؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾[2] إن المور هو الحركة كان تقريباً ؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة، وكذلك إذا قال: الوحي: الإعلام، أو قيل: ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[3]: أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[4] أي: أعلمنا، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام، فإن

---

(١) انظر: الصاحبي في فقه اللغة (ص٩٧)، وروضة المحبين (ص ٥٤)، وما بين الحاصرتين منه.

(٢) سورة الطور الآية (٩).

(٣) جاءت هذه الآية في عشرة مواطن، أولها في النساء من الآية (١٦٣).

(٤) سورة الإسراء من الآية (٤).

الإعلام، فإن فيه إنزالاً إليهم، وإيحاء إليهم "[١].

إن التأمل في الكلمات والأساليب القرآنية، واستنباط الفروق الدقيقة بينها والاستعانة باللغة العربية وسياق الآيات سوف يفضي بالمرء إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن، وهو مجيئه بهذه اللغة الفريدة والتراكيب البديعة، والدقة في اختيار ألفاظه وكلماته وأساليبه، ووضعها في مكانها المناسب، وكيف لا يكون ذلك وقد نزل من لدن حكيم عليم ؟!.

ويؤكد هذه الحقيقة بعض من كتب في إعجاز القرآن من المتقدمين، فالخطابي رحمه الله (ت٣٨٨) يقول في معرض حديثه عن إعجاز القرآن: " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات "[٢].

ولما أدرك بعض المفسرين ممن لهم عناية ظاهرة باللغة العربية أهمية

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٤١).

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص٢٩)، وانظر نحوا من هذا الكلام للباقلاني في إعجاز القرآن (٢/ ٥٩) بذيل الإتقان للسيوطي.

الفروق اللغوية في الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وبخاصة في أسلوبه وبيانه أولوها عناية خاصة، ومن أبرز هؤلاء الراغب الأصفهاني رحمه الله (ت٥٠٢)، فقد أشار إلى هذا في مقدمة كتابه " مفردات ألفاظ القرآن الكريم " وقال: " وأتبع هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل - بكتاب ينبئ عن تحقيق **الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وما بينها من الفروق الغامضة**، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكر القلب مرة، والفؤاد مرة، والصدر مرة .... ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق ويبطل الباطل أنه باب واحد، فيقدر أنه إذا فسر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بقوله: الشكر لله، و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ب: لا شك فيه، فقد فسر القرآن ووفاه التبيان "[1].

ومعرفة الفروق اللغوية من الأمور الدقيقة التي تحتاج إلى تبحر في علم اللغة العربية ومعرفة أساليب العرب في الكلام، ولذا تختلف فيه أنظار العلماء، فقد يلوح لبعضهم فرق بين لفظين، بينما لا يظهر لغيره فرق فيرى اللفظين من باب الترادف، والتنوع في الأساليب والألفاظ، فابن العربي رحمه الله (ت٥٤٣) حين فسر قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]، **فذكر الفرق بين الشح والبخل**، وأن البخل منع الواجب، والشح منع الذي لم يجد، ولَمَّا لم يرتض ما قيل في التفريق بينهما، عقب بقوله:

(١) المفردات (ص٥٥) باختصار.

(٢) سورة الحشر من الآية (٩).

"وهذا لا يلزم ؛ فإن كل حرف يفسر على معنيين أو معنى يعبر عنه بحرفين، يجوز أن يكون كل واحد يوضع موضع صاحبه جمعاً أو فرقاً، وذلك كثير في اللغة، ولم يقم هاهنا دليل على الفرق بينهما "[١].

والذي دعاه إلى عدم التفريق بين البخل والشح عدم قيام الدليل على الفرق بينهما كما يظهر من كلامه، في حين أنه في بعض المواطن يميل إلى التفريق بين بعض الألفاظ التي بينها قدر من الاشتراك، كالفرق بين القانع والمعتر في قول الله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[٢]، فقد ذكر الأقوال فيهما، ثم قال: "والذي عندي فيه أن المعنى فيهما متقارب كتقارب معنى الفقير والمسكين، وحقيقة ذلك أن الله أمر بالأكل وإطعام الفقير، والفقير على قسمين: ملازم لك، ومار بك، فأذن الله في إطعام الكل منهما مع اختلاف حالهما"[٣].

النوع الثالث: الفروق التفسيرية لمعاني الآيات، والفرق بين هذا النوع والذي قبله أن الأول يتناول تفسير المفردات القرآنية، وبيان الفرق بين الكلمة ونظيرها، أما هذا النوع فهو لتفسير الجمل القرآنية المركبة من عدة مفردات، وبيان الفرق بين الجملة وما يشبهها من الجمل الأخرى.

ومن أبرز فنون التفسير التي تندرج في هذا النوع ما يعرف بتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وله صور عديدة، منها: التشابه بين

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ٢٢٠).

(٢) سورة الحج من الآية (٣٦).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٢٩٧)، وانظر كلامه في الفرق بين الفقير والمسكين في (٢/ ٥٣٥).

الآيات في الإفراد والجمع، أو التشابه في التذكير والتأنيث، أو التشابه في التعريف والتنكير، أو التشابه في الذكر والحذف، أو التشابه في التقديم والتأخير، أو التشابه في الوصل والفصل[1].

وقد نص بعض من ألف في توجيه المتشابه اللفظي على بيان الفرق بين الآيات المتشابهة، فقد ذكر تاج القراء الكرماني رحمه الله (ت٥٠٥) في مقدمة كتابه: " البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان " أنه قصد بيان الفرق بين الآية ومثلها، يقول: " أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه، فإن الأئمة - رحمهم الله تعالى - قد شرعوا في تصنيفه، واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها، **والفرق بين الآية ومثلها**، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه "[2].

ويقول الخطيب الإسكافي رحمه الله (ت٤٠٢) في " درة التنزيل وغرة التأويل " في جواب بعض الآيات: "والجواب عن ذلك مما يحتاج إليه في مواضع من القرآن في **مثل هذه الآية التي قصدنا الفرق بين مختلفاتها** "[3].

وتوجيه المتشابه اللفظي من فنون التفسير ؛ لأنه في الواقع بيان لمعنى الآية وبيان الفرق بينها وبين معنى نظيرتها، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني رحمه الله (ت٨٥١) أن ابن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨) " جمع كتاباً في فن من

(١) انظر بحثاً موسعاً حول هذه الصور في كتاب: المتشابه اللفظي وأسراره البلاغية، د. صالح عبد الله الشثري، وكتاب دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل، د. فاضل السامرائي.

(٢) البرهان (ص٦٤).

(٣) درة التنزيل (ص٢٣٨).

فنون التفسير سماه: ملاك التأويل "[١]، وكتاب ملاك التأويل من أبرز كتب توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

ومما يؤكد اهتمام هذا الفن بالفروق بين معاني الآيات أن أول قضية تكلم عنها ابن الزبير في كتابه ما يتعلق بقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وأورد فيها أربعة أسئلة، فقال في السؤال الأول: " ما **الفرق** بين الوارد في أم القرآن، وما جرى مجراها مما افتتح بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وبين الواقع في سورة الجاثية من قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾[٢]؟ "[٣].

وحاصل ما أجاب به عن هذا السؤال أن قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، وكذلك قوله : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، لكن تأخر في الآية الثانية المبتدأ على خلاف الأصل، فما الموجب لتقديم الخبر على المبتدأ في سورة الجاثية ؟.

والجواب أنه قد يعرض من جهة المعنى، وتقدير الكلام ما يقتضى ذلك ويوجبه، وإذا تقرر هذا فإن قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ ورد على تقدير الجواب بعد إرغام المكذب وقهره، ووقوع الأمر مطابقاً لأخبار الرسل عليهم السلام، وظهور ما كذب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأن قد قيل: لمن الحمد ومن أهله ؟، فكان الجواب على ذلك: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾.

نظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ ؟، ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ

---

(١) الدرر الكامنة (١/ ٨٩).

(٢) من الآية (٣٦).

(٣) ملاك التأويل (١/ ٨).

ٱلْقَهَّارِ ﴾[1]، ألا ترى تلاقي الآيتين فيما تقدمهما، فالمتقدم في سورة غافر قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾[2].

فعند ظهور الأمر للعيان ومشاهدة ما قد كان خبراً، قيل لهم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ ﴾، وتقدم في سورة الجاثية قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ الآيات[3]، وإنما ذلك يوم التلاق والعرض عليه سبحانه، فعند المعاينة وزوال الارتياب والشكوك كأن قد قيل لهم: لمن الحمد ومن أهله ؟، فورد الجواب بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾، فالآية كالآية، والمقدر المدلول عليه كالمنطوق، والإيجاز مستدع لذلك، ولما تقدم ذكر الملك في آية غافر منطوقاً به لم يحتج إلى إعادة ذكره، فقيل: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾، ولم يقل: فلله الملك لتقدم ذكره، ولما كان الحمد في سورة الجاثية لم يتقدم ذكره، وإنما هو مقدر يدل عليه السابق لم يكن بد من الإفصاح به في الجواب، فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾، ولأجل ما قصد من تقريع المكذبين، وتوبيخهم عند انقطاع الدعاوى ووضوح الأمر، أتبع حمده تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4]، فذكر ربوبيته تعالى لما أبداه وأوجده من أعظم مخلوقاته، وأبدع مصنوعاته، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[5]، وأعاد ذكر

(١) سورة غافر من الآية (١٦).

(٢) سورة غافر من الآيتين (١٥، ١٦).

(٣) الآية (٣٣).

(٤) سورة الجاثية من الآية (٣٦).

(٥) سورة غافر من الآية (٥٧).

ربوبيته مع كل من هذه المخلوقات العظام، المنصوبة للاستدلال بها والاعتبار بعظيم خلقها وما فيها، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ثم أتبع بما يعم ربوبيته لذلك كله، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فناسب ما ورد هنا من الإطالة بتكرر - ما ذكر - مقصود الآية، وذلك هو الجاري متى قصد تعنيف المشركين ومن عَبَدَ مع الله غيره، وهو وارد في غير ما موضع من كتاب الله تعالى، وتكرير لفظ "رب" في قوله: ﴿وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾، مما يشهد لهذا الغرض من قصد تقريع الجاحدين، ولما كان الوارد في أم القرآن خطاباً للمؤمنين وتعليماً للمستجيبين مجرداً عما قصد في آية الجاثية من توبيخ المكذبين ورد على ما قدم من الاكتفاء، وكل على ما يجب ويناسب[1].

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً:

ما جاء في قول الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[2]، وقوله في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3]، حيث ختمت الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾، وختمت الثانية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

---

(١) ملاك التأويل (١/ ١٠-١٣).

(٢) آية (٣٤).

(٣) آية (١٨).

قال أبو حيان رحمه الله (ت٧٤٥): " **والفرق بين الختمين** : أنه هنا [في آية إبراهيم] تقدم قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾[(١)]، وبعده: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[(٢)] ، فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك بجعل الأنداد ناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه، فجاء: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

وأما في النحل فلما ذكر عدة تفضلات، وأطنب فيها، وقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾، أي: من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق، ولا على شيء منه، ذكر من تفضلاته اتصافه بالعذاب والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما، كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمن به، وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق أنه يغفر زلله السابق ويرحمه، وأيضاً فإنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان، ذكر ما حصل من المنعم، ومن جنس المنعم عليه، فحصل من المنعم ما يناسبه حالة عطائه، وهو الغفران والرحمة، إذ لولاهما لما أنعم عليه، وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسبه حالة الإنعام عليه، وهو الظلم والكفران، فكأنه قيل: إن صدر من الإنسان ظلم فالله غفور، أو كفران نعمة فالله رحيم، لعلمه بعجز الإنسان وقصوره "[(٣)].

---

(١) سورة إبراهيم من الآية (٢٨).

(٢) سورة إبراهيم من الآية (٣٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤١٧).

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا النوع والذي قبله ألا يلجأ المفسر إلى التكلف في إظهار الفروق بين الآيات والألفاظ القرآنية المختلفة[١].

النوع الرابع: الفروق الاصطلاحية، فهناك تشابه بين بعض المصطلحات واشتراك في بعض الصور بحيث لا يمكن التمييز بينها إلا بإظهار الفروق، وأحياناً يستخدم المصطلح الواحد لأمرين أو أكثر، فلا بد من بيان الفروق، وأحياناً يتطور مدلول المصطلح بمرور الوقت وتداوله بين العلماء فيطرأ عليه التغير، فيحتاج العلماء إلى بيان الفروق بين اصطلاح المتقدمين واصطلاح المتأخرين.

ومن أمثلة الأخير: مفهوم النسخ، فمفهوم السلف للنسخ أوسع من مفهوم العلماء المتأخرين، فهم يطلقونه على النسخ عند المتأخرين، ويطلقونه على تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل، ومن لم يدرك الفرق وقع في الاضطراب، وقد يحاكم السلف في النسخ بمفهوم المتأخرين.

وقد يكون بين بعض المصطلحات تقارباً في المدلول اللغوي كما في الفرق بين التفسير والتأويل، وهنا يلجأ العلماء لبيان الفرق اللغوي والاستدلال به على الفرق الاصطلاحي، كما أنهم يلجؤون إلى بيان الافتراق في الأحكام بين المصطلحات للدلالة على تحقق الفرق بينها، مثل الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، وتقدم الكلام عن هذا في المبحث السابق.

---

(١) الفروق اللغوية د. الشايع (ص٣٥).

ومظنة معرفة الفروق الاصطلاحية عند تعريف العلماء للمصطلحات، فإن العلماء يذكرون تعريف المصطلح ومحترازته، وببيان المحترزات يتبين الفرق بين المصطلح وما يشبهه أو يشاركه من المصطلحات الأخرى.

ويمكن تقسيم الفروق الاصطلاحية في الدراسات القرآنية إلى قسمين:

القسم الأول: الفروق الاصطلاحية المتعلقة بالتفسير وأصوله، وهذا له أمثلة كثيرة، منها:

الفرق بين التفسير والتأويل[1]، والفرق بين التفسير وعلوم القرآن[2]، والفرق بين التفسير والاستنباط[3]، والفرق بين التفسير وأصوله[4]، والفرق بين أصول التفسير وعلوم القرآن[5]، والفرق بين التفسير النبوي والتفسير بالسنة[6]، والفرق بين التفسير الصوفي النظري، والتفسير الصوفي الفيضي[7]، والفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني[8]، والفرق بين

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٨٥)، والإتقان (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم (ص٢٣).

(٣) انظر منهج الاستنباط من القرآن الكريم (ص٥٨).

(٤) انظر: تفسير القرآن، أصوله وضوابطه (ص٢٧).

(٥) انظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه (ص١٢)، وتفسير القرآن، أصوله وضوابطه (ص٢٧).

(٦) انظر مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير (ص١٣٨).

(٧) انظر التفسير والمفسرون (٢/ ٣٥٢).

(٨) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٥٤٧).

التفسير العلمي والإعجاز العلمي[١]، والفرق بين التفسير والتدبر[٢]، والفرق بين التدبر والتأثر من سماع القرآن[٣]، والفرق بين ترجمة القرآن وتفسيره[٤].

واكتفي من هذه الأمثلة بذكر الفرق بين التفسير وأصوله، فالتفسير: بيان معاني الآيات، وأصول التفسير: القواعد والأسس التي تعين على تفسير القرآن الكريم، وما يتبع ذلك من شروط المفسر وآدابه[٥].

القسم الثاني: الفروق الاصطلاحية المتعلقة بعلوم القرآن الكريم، وهذه الفروق منثورة في شتى أنواع علوم القرآن، وأمثلتها كثيرة جداً:

ففي تعريف القرآن الكريم بحث العلماء: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، ومنهم من أفرد هذه القضية في مصنف كما سيأتي، وبحثوا الفرق بين الكتاب والقرآن[٦]، والفرق بين القرآن الكريم والمصحف[٧]، والفرق بين الصحف والمصحف[٨]، والفرق بين القرآن والقراءات[٩].

---

(١) انظر دراسات في علوم القرآن الكريم (ص٣٢١).

(٢) انظر مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ص١٨٩).

(٣) انظر مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ص٢٠٤).

(٤) انظر: مناهل العرفان (٢/ ١٠-١٣)، والتفسير والمفسرون (١/ ٢٨).

(٥) انظر: تفسير القرآن، أصوله وضوابطه (ص٢٧)، وبحوث في أصول التفسير ومناهجه (ص١١).

(٦) انظر: دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (٣٠).

(٧) انظر: دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (ص٣٠).

(٨) انظر: فتح الباري (٩/ ١٨)، ولطائف الإشارات (ص٥٩)، ومناهل العرفان (١/ ٤٠١).

(٩) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٦٥)، ولطائف الإشارات (ص١٧١).

وفي القراءات والتجويد بحث العلماء: الفرق بين علم القراءات وعلم التجويد[1]، والفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع[2]، والفرق بين القراءات والروايات والطرق والأوجه[3]، والفرق بين جمع القراءات وتركيب القراءات[4]، والفرق بين الترتيل والتحقيق[5]، والفرق بين الوقف والقطع والسكت[6]، والفرق بين الروم والإشمام[7]، والفرق بين الإمالة والترقيق[8]، والفرق بين النون الساكنة والتنوين[9].

وفي خصائص القرآن: الفرق بين خصائص القرآن وخواصه[10].

وفي النسخ: الفرق بين النسخ والتخصيص[11]، والفرق بين النسخ والتقييد[12]، والفرق بين النسخ والبداء[13].

وفي العام والخاص: الفرق بين العام المراد به الخصوص، والعام

(١) انظر القراءات القرآنية لعبد الحليم قابة (ص٣٤).

(٢) انظر: الإبانة عن معاني القراءات (ص٢١)، والمرشد الوجيز (ص١٤٦).

(٣) انظر: البدور الزاهرة (ص١٠)، والقراءات وأثرها في التفسير والأحكام (١/ ١١٣).

(٤) انظر القراءات القرآنية لقابة (ص٣٦).

(٥) انظر التمهيد في علم التجويد لابن الجزري (ص٦١).

(٦) انظر النشر في القراءات العشر (١/ ٢٣٨).

(٧) انظر النشر (٢/ ١٢١).

(٨) إبراز المعاني من حرز الأماني (ص٢٦٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٩٠).

(٩) انظر غاية المريد في علم التجويد (ص٥١).

(١٠) انظر: خصائص القرآن الكريم د. الرومي (ص١٣).

(١١) انظر: مناهل العرفان (٢/ ٨٠)، والنسخ في القرآن الكريم د. مصطفى زيد (١/ ١٣٠).

(١٢) انظر: النسخ في القرآن الكريم (١/ ١٥٣).

(١٣) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٤١)، ومناهل العرفان (٢/ ٧٦).

المخصوص[١].

وفي عد الآي: الفرق بين فواصل القرآن والسجع[٢]، والفرق بين الفاصلة ورأس الآية[٣].

واكتفي من هذه الأمثلة بمثال واحد:

وهو الفرق بين القراءات والروايات والطرق، ففي البدور الزاهرة[٤]: " خلاصة ما قاله علماء القراءات في هذا المقام: أن كل خلاف نسب لإمام من الأئمة العشرة مما أجمع عليه الرواة عنه فهو قراءة، وكل ما نسب للراوي عن الإمام فهو رواية، وكل ما نسب للآخذ عن الراوي وإن سفل فهو طريق، نحو: الفتح في لفظ ضعف في سورة الروم[٥] قراءة حمزة [ت١٥٦]، ورواية شعبة [ت١٩٣]، وطريق عبيد بن الصباح [ت٢١٩] عن حفص [ت١٨٠]، وهكذا ".

ولعلك – أخي القارئ – استطلت ذكر أمثلة الفروق الاصطلاحية، وإنما أطلت في ذكرها لدفع توهم قلتها، مع يقيني بأنه قد فاتني كثير من مباحث الفروق، إذ لم استقص في البحث.

النوع الخامس: فروق تتعلق بمسائل التفسير وعلوم القرآن، وفي هذا

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢١)، ومباحث في علوم القرآن (ص٢٣١).

(٢) البرهان (١/ ١٥١)، والإتقان (٢/ ١٢٥).

(٣) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني (ص١٢٦)، والإتقان (٢/ ١٢٤)، والتبيان للجزائري (ص٢٤٧)، والتحرير والتنوير (١/ ٧٥).

(٤) (ص١٠).

(٥) الآية (٥٤).

النوع بحث العلماء:

الفرق بين مخرج الضاد ومخرج الظاء، والفرق بين قولهم: هذا تفسير معنى، وقولهم: هذا تفسير إعراب[1]، والفرق بين قولهم: نزلت الآية في كذا، وقولهم: سبب نزول الآية كذا[2]، والفرق بين جمع أبي بكر للقرآن الكريم وجمع عثمان رضي الله عنهما [3]، والفرق بين ياءات الإضافة، والياءات الزوائد.

وأكتفي من هذه الأمثلة بذكر الفرق بين ياءات الإضافة، وياءات الزوائد:

قال ابن الجزري رحمه الله عن ياءات الإضافة: " والفرق بينها وبين ياءات الزوائد أن هذه الياءات تكون ثابتة في المصاحف وتلك محذوفة، وهذه الياءات تكون زائدة على الكلمة، أي: ليست من الأصول، فلا تجيء لاماً من الفعل أبداً، فهي كهاء الضمير وكافه، فتقول في: نفسي: نفسه ونفسك، وفي فطرني: فطره وفطرك، وفي يحزنني: يحزنه ويحزنك، وفي إني: إنه وإنك، وفي لي: له ولك . وياء الزوائد تكون أصلية وزائدة، فتجيء لاماً من الفعل، نحو: (إذا يسر، ويوم يأت، والداع، والمناد، ودعان، ويهدين، ويؤتين)، وهذه الياءات الخلف فيها جار بين الفتح والإسكان، وياءات الزوائد الخلاف فيها ثابت بين الحذف والإثبات "[4].

---

(١) البرهان (١/ ٤١٢)، والإتقان (١/ ٢٣٩).

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ضمن مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩)، والإتقان (١/ ٤٠-٤٢)، ومناهل العرفان (١/ ١٠٧).

(٣) انظر الإتقان (١/ ٧٩).

(٤) النشر في القراءات العشر (٢/ ١٦١).

المبحث الرابع
أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن

علم الفروق من حيث العموم من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى تأمل وإمعان نظر، لأن استنباط الفروق لا يكون إلا في المسائل والمعاني المتشابهة التي يقع فيها الخلط عند كثير من الناس، يقول الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٤٧١): "واعلم أن من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال تحدث بسببها وعلى حسب الأغراض والمعاني التي تقع فيها دقائق وخفايا لا إلى حد ونهاية، وأنها خفايا تكتم أنفسها جهدها حتى لا ينتبه لأكثرها، ولا يعلم أنها هي، وحتى لا تزال ترى العالم يعرض له السهو فيه، وحتى إنه ليقصد إلى الصواب، فيقع في أثناء كلامه ما يوهم الخطأ، وكل ذلك لشدة الخفاء وفرط الغموض "[1].

ومما يؤكد أهمية العلم بالفروق أن القرآن الكريم احتج بالفروق في الرد على المبطلين وتفنيد شبههم، ومن أمثلته:

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2]، حيث أخبر تعالى أن آلهة المشركين التي يعبدونها حصب

(١) دلائل الإعجاز (ص٢٨٥).

(٢) سورة الأنبياء الآيتان: (٩٨، ٩٩).

جهنم، مما يدل على انتفاء ألوهيتها، فعارض المشركون هذه الآية بقولهم: إذا كانت آلهتنا دخلوا النار لكونهم معبودين، وجب أن يكون كل معبود يدخل النار، والمسيح معبود، فيجب أن يدخلها، قال ابن تيمية: " فعارضوه بالقياس، والقياس مع وجود **الفارق** المؤثر قياس فاسد، **فبين الله الفرق** بأن المسيح عبد حي مطيع لله لا يصلح أن يعبد لأجل الانتقام من غيره بخلاف الأوثان، فإنها حجارة، فإذا عذبت لتحقيق عدم كونها آلهة، وانتقاماً ممن عبدها، كان ذلك مصلحة ليس فيها عقوبة لمن لا يصلح أن يعاقب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾[1] أي جعلوه مثلاً لآلهتهم فقاسوها به "[2].

ولذا قال تعالى بعد آية الأنبياء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[3].

وجاء القرآن الكريم بإثبات الفروق وتقريرها في مواطن كثيرة، ففي كثير من الآيات يفرق الله تعالى بين الأشياء، وقد وصف جل ذكره القرآن بالفرقان، فقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[4].

---

(١) سورة الزخرف من الآية (٥٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٥٨)، وانظر شرح العقيدة الأصفهانية (ص٢٦٧).

(٣) آية (١٠١).

(٤) سورة آل عمران الآيتان (٣، ٤).

وفي "جامع البيان "[١]: " الفرقان إنما هو الفعلان من قولهم: فرق الله بين الحق والباطل، يفصل بينهما بنصره الحق على الباطل، إما بالحجة البالغة، وإما بالقهر والغلبة بالأيدي والقوة".

وقال تعالى في وصف يوم بدر: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]، وسماه فرقاناً لأن الله تعالى فرق به بين الحق والباطل[٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: " يعني بالفرقان يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل"، وعن مجاهد رحمه الله (ت١٠٣) مثله [٤].

وقال الحسن رحمه الله عند قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[٥]: " فرق الله به بين الحق والباطل "[٦].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٧].

قال ابن كثير: " وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

---

(١) (٥/ ١٨٢).

(٢) سورة الأنفال من الآية (٤١).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ص٦٣٤).

(٤) جامع البيان (١١/ ٢٠١).

(٥) سورة الإسراء الآية (١٠٩).

(٦) جامع البيان (١٥/ ١١٥).

(٧) سورة الزمر من الآية (٩).

أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله؟!، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يعلم **الفرق** بين هذا وهذا من له لب وهو العقل"[1].

ومما يؤكد أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم ذكر الفوائد المترتبة على معرفتها، ومن أهمها:

أولاً: الفهم السليم للقرآن الكريم، فمن موانع الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى على بعض الناس اشتباه الآية بغيرها، وإذا عرف الفرق بين ما يُظن اشتباهه، وحملت كل آية على وجهها الصحيح، زال الاشتباه والإشكال، وفهمت الآية على وجهها الصحيح.

ومن أمثلته: أن بعض الناس قد يفهم من الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[2]، أن ظاهرها أن الله تعالى خلق الأنعام بيده، كما خلق آدم بيده، فهي مثل قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[3].

وهذا الفهم غير سليم ؛ فهناك فرق بين الآيتين، فقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ عدي الخلق فيه بالباء، وفي قوله : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ لم يعد العمل بالباء، فهو لا يدل على المباشرة باليد بمقتضى اللسان العربي الذي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٦).

(٢) سورة يس آية (٧١).

(٣) سورة ص من الآية (٧٥).

نزل القرآن به، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [١]، وقوله: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[٣]، فإن المراد في هذه الآيات: ما كسبه الإنسان بنفسه، وما قدمه وإن عمله بغير يده، بخلاف ما إذا قال: عملته بيدي، كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٤]، فإنه يدل على مباشرة الشيء باليد، ولو كان المراد أن الله تعالى خلق هذه الأنعام بيده، لكان لفظ الآية: خلقنا لهم بأيدينا أنعاماً، كما قال الله تعالى في آدم: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾، وعليه فظاهر قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا ﴾ أن الله تعالى خلق الأنعام كما خلق غيرها، ولم يخلقها بيده، وإضافة العمل إلى اليد كإضافته إلى النفس بمقتضى اللغة العربية، بخلاف ما إذا أضيف إلى النفس وعدي بالباء إلى اليد.

وقد عقب ابن عثيمين رحمه الله (ت١٤٢١) بعد أن ذكر هذا الفرق بين الآيتين، فقال: **" فتنبه للفرق، فإن التنبه للفروق بين المتشابهات من أجود**

---

(١) سورة الشورى آية (٣٠).

(٢) سورة الروم آية (٤١).

(٣) سورة آل عمران آية (١٨٢).

(٤) سورة البقرة من الآية (٧٩).

أنواع العلم، وبه يزول كثير من الإشكالات "[1].

إن إدراك الفروق القرآنية والعناية بها لا يؤدي إلى الفهم السليم لكتاب الله فحسب، بل إنه يقود إلى الفهم العميق للقرآن والتبحر في تفسيره، لأن استنباط الفروق قائم على النظر في سياق الآيات وربط بعضها ببعض، والتأمل في المعاني اللغوية الدقيقة للكلمات القرآنية، كما أنه قائم على التحليل والنقد، والجمع بين الآيات التي تشتبه على بعض الناس.

واستخراج الفروق الغامضة بين الآيات لا يقوم بأعبائه إلا من وهبه الله الفهم لكتابه، وأوتي حظاً وافراً من علم العربية وعلوم القرآن الكريم، وعرف أساليب القرآن وعاداته في الخطاب، وأدمن قراءة القرآن الكريم بتدبر وحضور قلب.

ثانياً: دفع الشبهات عن القرآن الكريم، فإن كثيراً من الطاعنين ومن في قلوبهم زيغ يلجؤون إلى الطعن في الكتاب العزيز وضرب الآيات بعضها ببعض، زاعمين أن القرآن الكريم يجمع بين المتناقضات ويفرق بين المتماثلات، أو أن فيه تكراراً غير مفهوم المعنى، وقد ينخدع بهذه الشبهات من لا يعرف الفرق بين الآيات، فيقع في الحيرة والاضطراب والشك.

وقد أشار بعض من صنف في توجيه المتشابه اللفظي – وتقدم أنه من العلوم التي عنيت كثيراً بذكر الفروق القرآنية – إلى هذه الفائدة.

يقول الغرناطي عن توجيه المتشابه الذي كتب فيه إنه: " باب لم يقرعه

---

(١) شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى (ص٣١٧-٣٢١).

ممن تقدم وسلف، ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفته أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين"[١].

ولذا يؤكد أن كتابه موجه إلى الملحدين الطاعنين في الكتاب العزيز، واسم كتابه يؤكد ذلك، فقد سمى كتابه: " **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل** ".

ويقول في بعض توجيهاته: " الكلام في هذه الآية ليس خاصاً بمن سلم القواعد المستقرأة من الكتاب والسنة، وإنما كلامنا معتمد فيه القطع لذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين، واتباعاً لسبيل الملحدين، وشأن هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك "[٢].

ويقول الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠) في مقدمة كتابه "درة التنزيل" مبيناً سبب تأليفه له: " ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار لمبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً"[٣].

ويقول في خاتمة الكتاب: " وهذا آخر ما تكلمنا عليه من الآيات التي

---

(١) ملاك التأويل (١/ ٤).

(٢) (١/ ٩٨).

(٣) درة التنزيل (ص٢١٨-٢١٩).

يقصد الملحدون التطرق منها إلى عيبها"[1].

ثالثاً: إبراز إعجاز الكتاب العزيز، ويظهر ذلك بإبراز الفروق اللغوية، ودقة الأساليب القرآنية، من تقديم وتأخير وفصل ووصل ونحو ذلك، يقول الغرناطي في مقدمة " ملاك التأويل ": " وإن من مغفلات مصنفي أئمتنا ﵃ في خدمة علومه، وتدبر منظومه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرر من آياته لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير، وبعض زيادة في التعبير، فعسر إلا على الماهر حفظاً، وظن الغافل عن التدبر والمخلد إلى الراحة عن التفكر، أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها ليس لسبب تقتضيه، وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه، وأن ليس على جميع الوارد من ذلك مرجحات من المعاني عند ذوي الأفهام، **ومقتضيات من لوازم جليل التركيب من ذلك المعجز العلي من النظام**، فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه، وإن تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها ينافر مقصود ذلك الموضع وينافيه، فتعساً لمن تنكب عن واضح آياته، وكأنْ لم يقرع سمعه قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ﴾ "[2].

رابعاً: أن البحث في الفروق القرآنية من أقوى الدواعي لتدبر القرآن الكريم، ذلك أن العلم بالفروق يحتاج إلى طول فكرة وتأمل، وبعد نظر

(١) (ص١٣٧٥).

(٢) ملاك التأويل (١/ ٣).

ودقة استنباط، لما يحتاجه من الربط بين الآيات والتفريق بين معانيها ومدلولاتها، وذلك لا يحصل إلا بطول تدبر . وتدبر القرآن الكريم من أعظم مقاصد إنزاله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2].

ومن العجيب أن الآية الأخيرة جاءت بعد موطن يستوجب تدبر الآيات وبيان الفرق الدقيق بين معانيها، فإن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[3]، ثم قال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[4].

إن النظرة غير المتدبرة لهاتين الآيتين توحي بالتعارض بينهما، ففي الآية الأولى أخبر الله تعالى أن الحسنة والسيئة من عنده، وهو رد منه تعالى على الذين زعموا أن الحسنة من الله، وأن السيئة من عند محمد ﷺ، وفي الثانية يؤكد أن الحسنة منه تعالى، وأن السيئة من نفس الإنسان، ولا يمكن أن يكون بين الآيتين تعارض أو تناقض، ولذا أكد تعالى على قضية التدبر،

(١) سورة ص آية (٢٩).

(٢) سورة النساء آية (٨٢).

(٣) سورة النساء من الآية (٧٨).

(٤) سورة النساء الآية (٧٩).

وأن القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وقد قال قبل ذلك: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾.

والفرق بين كون السيئة من عند الله في الآية الأولى وكونها من عند العبد في الآية الثانية، أنها من عند الله تعالى باعتبار أنه الخالق الموجد لها فهي من عنده خلقاً وإيجاداً، وكونها من عند العبد باعتبار أنه المتسبب في حصولها.

وأما كون الحسنة من عند الله وحده فلأنه المتفضل المنعم بها، وهو الموفق لعبده في تحصيل أسبابها[1].

خامساً: ومن فوائد معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن الاحتراز من الخلط بين المعاني والمسائل والأحكام والمصطلحات، وفي هذه الأخيرة نجد بعض المصطلحات الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه قد تتشابه مع المصطلحات في العلوم الأخرى، وبمعرفة الفروق يتضح الفرق، ومن أمثلته:

الفرق بين مفهوم الإشمام عند القراء ومفهومه عند النحويين، فهو عند النحويين: الإتيان بالحركة بين الكسرة والضمة[2].

أما القراء فلهم اصطلاح خاص للإشمام، وهو: ضم الشفتين بعد سكون الحرف أصلاً، ولا يدرك معرفة ذلك الأعمى، لأنه لرؤية العين لا

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ١٩٩).

(٢) انظر شرح التصريح على التوضيح (١/ ٤٣٧).

غير ؛ إذ هو إيماء بالعضو إلى الحركة[١].

ومن أمثلته الاختلاس عند الفقهاء وعند القراء، فهو عند الفقهاء: أخذ الشيء بحضرة صاحبه وغفلته على وجه السرعة[٢].

أما عند علماء القراءات فهو: عبارة عن الإسراع بالحركة إسراعاً يحكم السامع له أن الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن[٣].

وختاماً لهذا المبحث فقد عقد ابن القيم رحمه الله (ت٧٥١) فصولاً كثيرة في كتاب الروح في بيان الفروق بين الأشياء، وقال في آخرها: "وهذا باب من الفروق مطول، ولعل إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتاباً كبيراً، وإنما نبهنا بما ذكرنا على أصوله، واللبيب يكتفي ببعض ذلك، والدين كله فرق، وكتاب الله فرقان، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فرق بين الناس، ومن اتقى الله جعل له فرقاناً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[٤]، وسمى يوم بدر يوم الفرقان ؛ لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه، **فالهدى كله فرقان، والضلال أصله الجمع**، كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان، ومحبته ومحبة الأوثان، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قدره وقضاه، فجعلوا الأمر واحداً .... والمقصود أن أرباب البصائر هم

---

(١) انظر: التيسير في القراءات السبع (ص٥٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ١٢١).

(٢) انظر الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/ ٢٢٩).

(٣) التمهيد لابن الجزري (ص٧٣)، ومن الأمثلة: الفرق بين التلفيق عند القراء، والتلفيق عند الأصوليين، والتلفيق عند الفقهاء، انظر: القراءات القرآنية لقابة (ص٣٧).

(٤) سورة الأنفال من الآية (٢٩).

أصحاب الفرقان، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال، وإنما أتي أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله، ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها، وصحيحها وسقيمها، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[1]"[2].

(١) سورة النور من الآية (٤٠).

(٢) الروح (ص٣٨٨-٣٩٠).

المبحث الخامس
التأليف في فروق التفسير وعلوم القرآن الكريم

تعود أصول الحديث عن الفروق القرآنية إلى العصور الإسلامية المبكرة، فقد جاء عن السلف نصوص عديدة في بيان الفروق القرآنية، وتكلموا في غير مجال من مجالات الفروق، لكنهم لم ينصوا على مصطلح الفروق، ومن ذلك بيانهم للفروق بين معاني الآيات القرآنية التي توهم التعارض والتناقض، كالأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتاه، فقال: « إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي ؟ قال: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[(١)]، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾[(٢)]، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾[(٣)]، ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[(٤)]، فقد كتموا في هذه الآية ؟، وقال: ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾[(٥)]، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله: ﴿ طَآئِعِينَ ﴾[(٦)]، فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء ؟، .... فقال ابن

---

(١) سورة المؤمنون من الآية (١٠١).

(٢) سورة الصافات آية (٢٧).

(٣) سورة النساء من الآية (٤٢).

(٤) سورة الأنعام من الآية (٢٣).

(٥) سورة النازعات الآيات (٢٧-٣٠).

(٦) سورة فصلت الآيات (٩-١١).

عباس: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾[1]، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾، ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقل: لم نكن مشركين، فختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية[2].

وعن الربيع بن أنس رحمه الله (ت١٣٩) قال: « قلت لأبي العالية قال الله: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾[3]، وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴾[4] فكيف هذا؟، قال: نعم، أما قوله: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، فهؤلاء أهل الشرك، وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴾، فهؤلاء أهل القبلة يختصمون في مظالمهم»[5].

---

(١) سورة الزمر من الآية (٦٨).

(٢) سورة النساء من الآية (٤٢)، والأثر أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم السجدة (٦/ ٣٥)، وأخرجه مختصراً: الطبري في جامع البيان (٧/ ٤٢-٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٧٤).

(٣) سورة ق من الآية (٢٨).

(٤) سورة الزمر الآية (٣١).

(٥) الدر المنثور (٦/ ١٠٦) وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر، وهو في جامع البيان (٢٠/ ٢٠٢) مختصراً.

ومما جاء عن السلف في الفروق اللغوية:

ما جاء عن ابن مسعود ﷺ أن رجلاً أتاه، فقال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت ؟، قال: وما ذاك؟، قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾[1] ، وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال ابن مسعود: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، ذلك البخل، وبئس الشيء البخل[2].

وقال طاوس رحمه الله (ت١٠٦): البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقنع[3].

وجاء عن عكرمة رحمه الله (ت١٠٥) التفريق بين السَّد – بفتح السين – والسُّد – بضم السين –، ففي قول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾[4]، قال عكرمة: "ما صنع الله فهو السُّد، وما صنع الناس فهو السَّد"[5].

---

(١) سورة الحشر من الآية (٩).

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٥٢٩) واللفظ له، ومصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٩٨)، والمستدرك للحاكم (٢/ ٤٩٠)، والدر المنثور (٦/ ١٩٦).

(٣) جامع البيان (٧/ ٢١)، وتفسير القرآن لابن المنذر (٢/ ٧٠٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٥١) مختصراً.

(٤) سورة الكهف آية (٩٤).

(٥) الدر المنثور (٤/ ٢٥١) وعزاه لابن أبي حاتم.

أما كلام العلماء في مصنفاتهم عن مباحث الفروق، فإنه لا يكاد يخلو كتاب في التفسير وعلوم القرآن الكريم من مبحث أو أكثر في الفروق القرآنية، لما سبق من أن مباحث الفروق متفرقة في شتى فنون علوم القرآن، ومن أبرز المصنفات التي تناولت مباحث الفروق الكتب المصنفة في توجيه المتشابه اللفظي، غير أنها تبحث في مجال واحد من مجالات الفروق القرآنية المتعلق بالفروق بين معاني الآيات المتشابهة.

والحديث في هذا المبحث سوف يقتصر على المصنفات المفردة في الفروق، وأغلبها المصنفات المفردة في الفرق بين الضاد والظاء، وقد أشبع علماء القراءات وعلماء العربية هذا النوع من الفروق بحثاً وتصنيفاً، ولهم فيه مؤلفات كثيرة[1].

ونظراً لكثرة المؤلفات في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن الكريم وغيره، وقد يصعب التمييز بينها لأن أغلبها مخطوط أو مفقود، وعليه سوف أذكر ما ثبت لدي أنه في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن خاصة، وبخاصة المؤلفات التي ينص مؤلفوها على مصطلح الفروق.

ومما يلاحظ في المؤلفات التي ألفت في الفرق بين الضاد والظاء ما يأتي:

١ – عناية بعض المؤلفات ببيان الفرق في النطق بين الضاد والظاء، وبيان مخرج الضاد والفرق بينه وبين مخرج الظاء ؛ علاوة على ذكر الفروق

---

(١) وقد جمع جمال بن السيد الشايب ما وقف عليه من تراث العلماء في الفرق بين الضاد والظاء في كتابه: إتحاف الفضلاء في بيان من ألف في الضاد والظاء.

في المعنى بين ما ينطق بالضاد وما ينطق بالظاء، مثل كتاب أبي عمرو الداني: الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل.

٢ - اقتصرت بعض المؤلفات على نظم الكلمات التي وردت في القرآن الكريم بالظاء ؛ تسهيلاً لحفظها وللاحتراز من نطقها بالضاد، مثل كتاب: درة القارئ في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن الكريم للرسعني.

٣ – تفاوت المؤلفون في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن الكريم في ذكر المفردات التي وردت بالظاء، وسبب التفاوت أن بعضهم يرجع الكلمة إلى مادتها وأصلها، وبعضهم يرجعها إلى معناها، فيقع التفاوت، فبعض العلماء جعل: ظهر، والظهار، والظهيرة، والظهر، والظهير، في خمس مواد، وآخر جعلها تحت مادة واحدة[1].

٤ – اهتمام تلك الكتب – غير المنظومة – بالاستشهاد بالقرآن الكريم على ما ينطق بالظاء وما ينطق بالضاد.

والكتب التي سأوردها هي في الفرق بين الضاد والظاء، سوى كتاب في الفرق بين التفسير والتأويل، وكتاب في الفرق بين القرآن والحديث القدسي، وثلاثة كتب في الفروق اللغوية.

وسوف أرتب المؤلفات بحسب الترتيب الزمني لوفاة مؤلفيها، الأقدم فالأقدم، مع وصف مختصر لما طبع منها، أما المخطوط فسوف أشير إلى رقمه ومكانه.

(١) انظر شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن (ص٨).

والكتب هي:

- الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام، لأبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي الداني (ت٤٤٤)، والكتاب مطبوع بتحقيق محسن جمال الدين، نشر دار المعارف، ونشر أيضاً بتحقيق د. غانم قدوري الحمد، نشرته دار عمار بالأردن[1].

والكتاب كما يظهر من عنوانه ليس خاصاً بما جاء في القرآن الكريم، فقد ذكر ما جاء في المشهور من كلام العرب، وقد عقد في أول الكتاب باباً: في ذكر الفرق بين الضاد والظاء في المخرج، وحال كل واحدة منهما، وعقد فيه فصلاً في اختصاص لغة العرب بحرف الظاء دون سائر الأمم، ثم عقد باباً في الكلمات التي وردت في القرآن الكريم بالظاء، فذكر ثنتين وثلاثين كلمة، وبين الفرق في المعنى بين ما ينطق بالظاء وما ينطق بالضاد، ثم عقد باباً فيما ورد من حرف الظاء في المتعارف عليه من الكلام، فذكر أربعة وخمسين مفردة دون الشاذ النادر، وبيَّنَ معانيها، والفرق في المعنى بين ما ينطق بالضاد والظاء، وقد اختصر الكلام في هذا الباب مقارنة بالباب المتعلق بظاءات القرآن الكريم.

ولأبي عمرو الداني: أربعة أبيات في الظاءات القرآنية، وقد شرحها أحد العلماء، والشرح مطبوع بتحقيق د. حاتم الضامن، وطريقة المؤلف في

---

(١) وله طبعة ثالثة بتحقيق د. حاتم الضامن، نشر دار البشائر بدمشق عام ١٤٢٧.

شرحه أنه يذكر بيت أبي عمرو الداني، ثم يتبعه بالشرح وبيان الفرق بين الضاد والظاء، مستشهداً على ما يذكره بالقرآن الكريم.

وهناك شرح لهذه الأبيات الأربعة ينسب لأبي عمرو الداني نفسه، نشره د. محسن محمد جمال في مجلة البلاغ ببغداد[١].

- وللداني – أيضاً – كتاب الظاءات في القرآن الكريم، حققه د. علي البواب، يقول د. غانم الحمد في مقدمة تحقيقه لكتاب: الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام: " ويبدو أن هذا الكتاب مختصر من كتاب الفرق بين الضاد والظاء الذي نكتب له هذه المقدمة، فقد قال الداني في مقدمته: " أما بعد، فإني اختصرت في هذا الجزء ورود حرف الظاء خاصة في كتاب الله تعالى "[٢]، ومعلوم أن كتاب الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام يشمل ما ورد في القرآن الكريم، وما جاء في كلام العرب، كما هو ظاهر من عنوانه.
- منظومة في الفرق بين الضاد والظاء، لمحمد بن أحمد بن الحسين الفروضي الأواني (ت٥٥٧)، مخطوط في مكتبة يهودا (برنستون) برقم (٤٠٧٦)، وعدد أوراقها أربع ورقات[٣].
- ظاءات القرآن الكريم، لأبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله

(١) انظر الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل للداني، مقدمة د. غانم الحمد (ص١٣).

(٢) (ص١٤).

(٣) الأعلام (٥/ ٣١٧)، والفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (تجويد) (١/ ٦١).

التجيبي البرقي، متوفى في النصف الثاني من القرن الخامس، والكتاب مطبوع بتحقيق محمد سعيد المولوي، وقد شرح أبو الطاهر أربعة أبيات في ظاءات القرآن الكريم، نظمها أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي المقرئ (ت٤٤٠)، قال أبو الطاهر: " هذه أبيات نظمها الشيخ أبو العباس أحمد بن عمار المقرئ – أيده الله – في جميع أجناس الظاءات ما سبق إليها، ليعول طالبوا معرفة الفرق بين الظاء والضاد في القرآن عليها"[(١)]، وقد قام بشرح الأبيات والكلمات الظائية المشتملة عليها، وما يقابلها من حرف الضاد، مستشهداً على معانيها بالقرآن الكريم والحديث والشعر العربي، وقد بلغت الكلمات التي شرحها تسعاً وعشرين كلمة.

- ما وقع في القرآن الكريم من الظاء لأبي الربيع سليمان بن أبي القاسم التميمي السرقوسي، من علماء القرن السادس، والكتاب حققه د.حاتم الضامن[(٢)].

وحققه – أيضاً - د. علي بن حسين البواب[(٣)].

والكتاب رسالة مختصرة في شرح أبيات نظمها في ظاءات القرآن الكريم، وهي:

(١) ظاءات القرآن الكريم (ص٣٥).

(٢) انظر نصوص محققة في علوم القرآن الكريم (ص٢٩٩).

(٣) في مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية عدد (٢١ ص ١٩٥)

ظَفِرْتُ بِحَظٍّ مِنْ ظَلُومٍ تَعَاظَمَتْ ظَــوَاهِرُهُ لِلنَّــاظِرِ الْمُتَــيَقِّظِ
ظَمِئْتُ فَلَمْ تُحْظَرْ عَلَيَّ ظِلاَلُها فَظَاظَـةَ أَلْفَـاظٍ وَلاَ غَـيْظَ وُعَّـظِ
ظُنُونٌ تَلَظَّى لِلْكَظِيمِ شوَاظُهُا تُغَلِّـظُ عَتْـبَ الظَّـاعِنِ الْمُـتَحَفِّظِ

وقد استشهد للكلمات التي يوردها بالقرآن الكريم، وعدد الكلمات التي شرحها واحد وعشرون كلمة.

- المصباح في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن العزيز نظماً ونثراً، لأبي العباس أحمد بن حماد بن أبي القاسم الحراني (ت٦١٨)، مطبوع بتحقيق د. حاتم الضامن، وقد أبان المؤلف عن منهجه في كتابه في المقدمة، فقال: " نظرت في أصول ظاءات القرآن، فوجدتها في اثنين وثلاثين أصلاً، وهذا أكثر ما جاء من الأصول، فنظمتها في أربعة أبيات من الشعر، وقدمت قبل الأربعة الحاوية للأصول عشرة أبيات، نبهت فيها على مخرج الضاد والظاء "، ثم قال بعد أن ذكر الأبيات: " لما جمعت أصول ظاءات القرآن العظيم في هذه الأربعة الأبيات، جاءت على غير ترتيب كتاب الله عز وجل، فأحببت أن آتي بها على ترتيب ما جاء في الكتاب العزيز، الأول فالأول "[1]، ثم شرع في ذكر أصول الظاءات مع شرحها، وبيان الفرق في المعنى بين ما ينطق بالظاء وما ينطق بالضاد.

ولما انتهى من شرحها قال: " وقد نظمت ما ذكرته من الأصول في قصيد من الشعر، مرتباً على ترتيب الأصول المذكورة "[2]، ثم ذكر الأبيات

(١) المقدمة (ص١٣).

(٢) (ص٢٢).

وبلغت أربعة وخمسين بيتاً.

- منظومة ظائية للفرق بين الظاء والضاد، لعلم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي الشافعي (ت٦٤٣)، مخطوط في التيمورية برقم (٣٦٥)[1].
- درة القارئ في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن الكريم، لعز الدين عبد الرزاق رزق الله الرسعني الجزري الحنبلي (ت٦٦١).

والكتاب مطبوع بتحقيق د. محمد بن صالح البراك، وهو منظومة في ثلاثة وثلاثين بيتاً، ذكر فيها تسعاً وعشرين مفردة، وقد جمعها في أول المنظومة في أربعة أبيات، ثم شرع في بيان الفرق بين معانيها نظماً، والأبيات الأربعة هي:

حَفِظْتُ لَفْظاً عَظِيْمَ الوَعْظِ يُوْقِظُ ... ظَمَا لَظَى وَشُواظِ الحَظْرِ والوَسَنِ

مَنْ يَكْظِمِ الغَيْظَ يَظْفَرْ بِالظِّلالِ ... يَظْعَنْ عَنِ الظُّلْمِ يَظْلَلْ رَاكِدَ السُّفُنِ

لا تَنْظُرِ الظَّنَّ وَالفَظَّ الغَلِيظَ وَلاْ ... تُظْهِرْهُ ظَهْرَ ظهُورٍ تَحْظَ بِالإِحَنِ

أُنْظُرْ تُظَاهِرْ فَمَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ خَلِيَتْ ... عِظامُهُ ظُفُرَ الظَّلْماءِ وَالمِحَنِ

قال في كشف الظنون: " هي أنفع ما صنف في الفرق بين الضاد والظاء، شرحها بعض القراء، وسماه: كاشف محاسن الغرة لطالب منافع الدرة"[2].

- قصيدة في الفرق بين الظاء والضاد في القرآن الكريم، لعلي بن أبي

---

(١) الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التفسير وعلوم القرآن) (١/ ٢٤٨).

(٢) (١/ ٧٤٣).

محمد الواسطي الديواني (ت٧٤٣)، لها نسخة خطية في مكتبة عارف حكمت بالمدينة برقم (٣٩١٦/ ٤)[١].

- عمدة القراء وعدة الإقراء، منظومة في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن مع شرحها، لعبد الله بن أحمد بن علي بن الفصيح الهمذاني الكوفي المقرئ (ت٧٤٥)، مخطوط بمكتبة الدولة ببرلين تحت رقم (١٠٢٣٦)، وعدد أوراقها أربع ورقات[٢].
- الفرق بين الضاد والظاء، لمحمد بن أحمد النجار الدمشقي الشافعي المقرئ (ت٨٧١)، مخطوط بالظاهرية برقم (٥٩٨٧)، وعدد أوراقها أربع ورقات[٣].
- الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، ليحيى بن محمد بن مسعود التفتازاني (ت٨٨٧)، له نسخة خطية بمكتبة أيا صوفيا برقم (٤٧٩٩/ ١٨)، وهو رسالة قصيرة تقع في أربع ورقات[٤].
- التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل، لحامد بن علي بن إبراهيم العمادي الدمشقي الحنفي (ت١١٧١)، والكتاب له نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (٣٤٤٤) ضمن مجموع، وعدد أوراقها خمس

(١) إتحاف الفضلاء (١٢٥).

(٢) ولهذا الكتاب نسخ أخرى، انظرها في الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التجويد) (١/ ١٢٧)، وانظر الأعلام (٤/ ٦٨).

(٣) الأعلام (٥/ ٣٣٤)، والفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التجويد) (١/ ٢٣٩).

(٤) انظر الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التفسير وعلوم القرآن) (١/ ٥٠٥).

ورقات[1].

- الفرق بين القرآن العظيم والأحاديث القدسية، لعبد الكريم بن أحمد بن علوان الشراباتي الحلبي الشافعي (ت١١٧٨)[2].
- النبراس الوضاء في الفرق بين الضاد والظاء، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد العباسي الهاشمي الحنفي (ت١٣٨٩)، مخطوط في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (١٥٦٨)، ويقع في ست عشرة صفحة[3].
- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، لشيخنا الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع، والكتاب في أصله رسالة ماجستير، وقد جعله المؤلف في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الترادف والفروق عند علماء العربية، وذكر فيه تعريف الترادف ومذاهب القائلين بالترادف والقائلين بالفروق.

والباب الثاني: في الترادف عند الأصوليين وذكر فيه مذاهبهم فيه، وذكر في هذا الباب أسباب الترادف.

والباب الثالث: في الترادف والفروق عند علماء التفسير، وذكر فيه مذاهب العلماء في وجود الترادف في القرآن الكريم، وختم هذا الباب بذكر أمثلة

---

(١) انظر: إيضاح المكنون (١/ ٣١١١)، والأعلام (٢/ ١٦٢)، والفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التفسير وعلوم القرآن) (٢/ ٧٦٧).

(٢) فهرس الفهارس (٢/ ١٠٧٦)، والأعلام (٤/ ٥١).

(٣) انظر الأعلام (٦/ ١٩٩).

تطبيقية من القرآن الكريم لألفاظ ظاهرها الترادف، وقام بدراستها محتكماً إلى أسلوب القرآن الكريم وبيانه، وقد ذكر أربعة عشر مثالاً فقط، وهذه الأمثلة قليلة مقارنة بما يذكره المفسرون، والسبب – كما يبدو – أن الدراسة في معظمها دراسة نظرية لقضية الترادف والفروق عند علماء العربية والأصوليين والمفسرين وموقفهم منها، وقد خلص في نهاية البحث إلى نتيجة مفادها أنه " يتأكد التحذير من إهمال الفروق بين الألفاظ، أو الغفلة عنها لما يعنيه ذلك من فقدان الدقة في التعبير والفهم، ولما يؤدي إليه من الوقوع في الأخطاء والأغلاط بسبب استعمال الكلمات في غير محلها الخاص بها، فينبغي منع الترادف ما أمكن"[(١)].

- دقائق الفروق اللغوية وأثرها في البيان القرآن، رسالة دكتوراه أعدها محمد ياس الدوري، والرسالة في أغلبها دراسة تطبيقية للفروق اللغوية في القرآن الكريم، وجعلها في أربعة فصول ؛ **الفصل الأول** في بيان أثر الفروق في التعبير القرآني، وتكلم فيه عن تعريف الفروق اللغوية والخلاف فيها، وأثر السياق القرآني في كشف الفرق، أما الفصول الثلاثة الأخرى فهي في الدراسة التطبيقية، وقد استطرد الباحث في ذكر الفروق اللغوية:

ففي الفصل الثاني: ذكر فروق الألفاظ، مثل: الفرق بين الإنس والناس، وبين القلب والفؤاد، وبين الكأس والكوب، وبين الإملاق والفقر.

---

(١) الفروق اللغوية (ص٣٠٦).

وفي الفصل الثالث: ذكر فروق الأبنية، مثل: الفرق بين سقى وأسقى، وبين مشتبه ومتشابه، وبين أسرى وأسارى، وبين نِعمة ونَعمة.

وفي الفصل الرابع: ذكر فروق الألفاظ المتقاربة الأصوات، مثل: الفرق بين الهز واللمز، وبين الأزّ والهزّ، وبين الرجز والرجس، وبين الوِقر والوَقر.

- الفروق اللغوية بين ألفاظ العلم ومراتبه ووسائله في القرآن الكريم، بحث من إعداد د. محمود الأطرش، والبحث يتكلم عن الألفاظ المتعلقة بالعلم بمراتبه المختلفة مثل: العلم والمعرفة والإدراك والفهم والفقه والتفكر والتدبر ونحوها، وقصد الباحث بيان دقة القرآن في وضع هذه الألفاظ في أماكنها بحيث لو استبدلت كلمة بأخرى لتغير المعنى المقصود من الآية، مما يؤكد – كما ذكر الباحث – إعجاز القرآن البياني في استخدام كل لفظة في مكانها اللائق بها، ولا يمكن تأكيد ذلك إلا ببيان الفروق اللغوية بين الألفاظ المتقاربة.

المبحث السادس
أثر إهمال الفروق في التفسير وعلوم القرآن

تقدم الحديث عن أهمية معرفة الفروق القرآنية، والفوائد المترتبة على إدراكها، وبها يتبين أن إهمال الفروق سواء كان ذلك الإهمال في معرفة الفروق بين الكلمات القرآنية ومدلولاتها، أو الفرق بين المصطلحات ونحو ذلك يؤدي إلى الخلل في العلم والعمل.

والخلل الذي يحدث بسبب إهمال الفروق له صور عديدة، سأكتفي ببعض منها:

١ - الخلل في الاعتقاد، فالغفلة عن الفرق بين معاني الآيات أدى ببعض الناس إلى اعتقادات باطلة، ومن أمثلته عدم التفريق بين الإدراك والرؤية أدى ببعض الناس أن يفهم من قول الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾[1] نفي رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وجعلها بمنزلة قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾[2]، فمعنى قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ أي: لا تراه، وهذا بعيد، فهناك فرق بين

(١) الأنعام من الآية (١٠٣).

(٢) الأعراف من الآية (١٤٣)، وهذه الآية لا تدل على نفي رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، بل إنها تدل على ثبوتها من وجوه عديدة، انظرها في: شرح العقيد الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢١٣).

الإدراك والرؤية " لأن الشيء قد يدرك الشيء ولا يراه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قيل أصحاب موسى ﷺ لموسى حين قرُب منهم أصحاب فرعون: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[1]، لأن الله قد كان وعد نبيه موسى ﷺ أنهم لا يُدْرَكون، لقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾[2]، قالوا: فإن كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، ويدركه ولا يراه، فكان معلومًا بذلك أن قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، من معنى: لا تراه الأبصار بمعزل، وأن معنى ذلك: لا تحيط به الأبصار، لأن الإحاطة به غير جائزة، فالمؤمنون وأهل الجنة يرون ربهم بأبصارهم، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله بأن شيئًا يحيط به، ونظير جواز وصفه بأنه يُرَى ولا يُدْرَك، جوازُ وصفه بأنه يعلم ولا يحاط بعلمه، وكما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[3] .... وكما جاز أن يعلم الخلق أشياءَ، ولا يحيطون بها علمًا، كذلك جائزٌ أن يروا ربَّهم بأبصارهم ولا يدركوه بأبصارهم، إذ كان معنى"الرؤية" غير معنى"الإدراك"، ومعنى"الإدراك" غير معنى"الرؤية"، وأن

(١) الشعراء الآية (٦١).

(٢) سورة طه الآية (٧٧).

(٣) سورة البقرة من الآية (٢٥٥).

معنى"الإدراك"، إنما هو الإحاطة "[١].

ويقول الشنقيطي رحمه الله: " أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه، بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك .

وحاصل هذا الجواب : أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية ؛ لأن الإدراك المراد به الإحاطة، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته، فمعنى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ لا تحيط به، كما أنه تعالى يعلمه الخلق، ولا يحيطون به علماً .

وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق "[٢].

٢ – عدم التفريق بين التفسير والتدبر، أدى ببعض الناس إلى الامتناع عن تدبر القرآن الكريم، وقال بعضهم بعدم جواز التدبر إلا للمتخصصين في علم التفسير، حاملاً الوعيد الوارد فيمن فسر القرآن بلا علم على تدبر القرآن الكريم، مع الفرق البين بين تفسير القرآن وتدبره، فالله جل ذكره أمر الناس جميعاً بتدبر القرآن، يقول الشنقيطي رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى:

---

(١) جامع البيان: (٩/ ٤٦٠).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب (ص٩٢).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1] في معرض رده على من زعم من متأخري الأصوليين أن التدبر لا يجوز إلا للمجتهد خاصة: "ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس، ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون - بالإصطلاح الأصولي - لما وبخ الله الكفار، وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى، ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذاً فدخول الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به، وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعا"[2].

وقد سبب هذا الفهم القاصر للمراد بالتدبر إعراض بعض الناس عن تدبر القرآن، واقتصر كثير منهم على التلاوة المجردة فحسب، فلم ينتفعوا بمواعظ القرآن، وما فيه من الحكم والآداب والأحكام، فوقعوا في صورة من صور هجر القرآن، يقول الشنقيطي: "ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك

---

(١) سورة محمد الآية (٢٤).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٤٥٩-٤٦٠).

معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾"[١].

٣ – عدم التفريق بين النسخ والتخصيص أدى بالبعض إلى الحكم بنسخ بعض الآيات مع إمكانية القول بتخصيصها، وإعمال النص أولى من إهماله، ومن فروعه عدم التفريق بين مفهوم النسخ عند السلف ومفهومه عند المتأخرين، وترتب عليه أن حكم البعض بتخطئة بعض السلف في حكمه بنسخ بعض الآيات بناءً على مفهوم المتأخرين للنسخ.

٤ – ومن الآثار المترتبة على إهمال الفروق تغيير معاني الآيات وتبديلها، فعدم التفريق بين الكلمات التي تنطق بالظاء والكلمات التي تنطق بالضاد أدى إلى الإخلال بالنطق وترتب عليه الإخلال بالمعنى، وقد مر تأكيد أبي عمرو الداني على أهمية إخراج حرف الضاد من مخرجه وإيفائه حقه من الاستطالة ولا سيما فيما يفترق معناه من الكلام، ثم ذكر جملة من الأمثلة، وأكد أن الإخلال بالنطق يؤدي إلى اشتباه الألفاظ وتغير المعاني وفساد المراد[٢].

---

(١) سورة الفرقان الآية (٣٠)، وانظر كلام الشيخ في أضواء البيان (٧/ ٤٥٨)، وقد ذكر ابن القيم في الفوائد (ص١٤٠) أنواع هجر القرآن، فذكر منها: " هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه".

(٢) انظر (ص١٨).

الخاتمة

تبين من خلال البحث أهمية الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم، وتشعب موضوعاته، ومن أهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها من هذا البحث ما يأتي:

١ - اهتمام العلماء بعلم الفروق على اختلاف فنونهم وتنوع تخصصاتهم، وقد أخذت جانباً كبيراً من حديثهم.

٢ - أهمية معرفة الفروق القرآنية لأثرها في فهم القرآن فهماً سليماً، وأثرها في إظهار عظمته والذب عنه ودفع شبه الطاعنين، وكذا أثرها في بيان إعجازه من خلال إبراز دقة الأسلوب القرآني، وبيان الفروق الغامضة بين الآيات المتشابهة.

٣- تبين من خلال الدراسة أن بعض مباحث الفروق لا أثر لها في معاني الآيات، لكن لها أثر في جوانب أخرى، كما تقدم في الفرق بين الإدغام والإخفاء.

٤ - تعدد مجالات الفروق القرآنية وعدم اقتصارها على مجال واحد، وقد ذكرت منها: الفروق اللغوية، والفروق الأسلوبية، والفروق اللفظية، والفروق الاصطلاحية.

٥ - المؤلفات في الفروق القرآنية عديدة، والسمة الغالبة عليها جمع الفروق، وأغلبها في الفرق بين الضاد والظاء.

٦ - أهمية العناية بجمع الفروق بحسب مجالاتها المختلفة، وقد ظهر لي أنه لم يلق العناية الكافية من قبل العلماء والباحثين سوى ما يختص

بالفروق بين الظاء والضاد، إذ أكثر الكتب المفردة في الفروق القرآنية هي في الفرق بين الضاد والظاء، وسائر الفروق متفرقة في كتب التفسير وعلوم القرآن وكتب اللغة وغيرها، وحبذا لو انبرى بعض الباحثين فجمع ما يتعلق بالمصطلحات، وجمع آخر ما يتعلق بالفروق الأسلوبية.

٧- يمكن معالجة كثرة مباحث بعض المجالات بأن تدرس في نطاق محدد، مثل دراسة الفروق الأسلوبية في سورة محددة، أو جزء معين، أو دراسة الفروق الاصطلاحية من خلال كتاب محدد، ككتاب البرهان للزركشي أو الإتقان للسيوطي.

٨- ومما يمكن أن يدرس هنا اهتمام بعض المفسرين ببعض مجالات الفروق القرآنية وكيفية تناوله لها، فقد لاحظت اهتمام الماوردي : في تفسيره النكت والعيون بالفروق اللغوية، ووقفت فيه على ما يربو على ستين موضعاً، وهي جديرة بالدراسة والتمحيص، وبيان علاقتها بفهم الآيات، وبمثل هذه الدراسات الجادة يجمع شتات الموضوع، ويلم ما تفرق منه، ثم بعد الجمع تحقق الفروق وتدرس دراسة وافية، فتتبين الفروق المعتبرة الصحيحة، والفروق الباطلة الفاسدة.

٩- ينبغي تناول الفروق بقدر الحاجة وبما يدفع الالتباس، ويزيل الإشكال، ويرفع الاشتباه، والحذر من الاندفاع والتوسع في البحث عن الفروق وتوجيهها، فقد يجر ذلك إلى التكلف.

هذا ما تيسر تدوينه في هذا الفن، وأحسب أن الموضوع ما زال بحاجة إلى مزيد بحث وتأمل، وأرجو أن أكون وفقت فيما كتبت، ومهدت الطريق، وفتحت الباب لمن أراد الولوج، وجمع الفروق ودراستها ؛ كلٌّ في مجاله.

والله ولي التوفيق وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١ - الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. محيي الدين رمضان، دار المأمون للتراث دمشق، الطبعة الأولى عام ١٣٩٩.

٢- إبراز المعاني من حرز الأماني، لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، تحقيق عبد الرحمن عطوه عوض، دار الكتب العلمية.

٣- إتحاف الفضلاء في بيان من ألف في الضاد والظاء، جمال بن السيد الشايب، مكتبة السنة بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣.

٤- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي بمصر، الطبعة الرابعة عام ١٣٩٨.

٥- الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين علي بن أبي علي الآمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، الطبعة الأولى عام ١٣٨٧.

٦- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد اللهّ المالكي (ابن العربي)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٣.

٧- أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر - بيروت عام ١٣٩٩.

٨- الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة ١٣٧٨.

٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي،

بإشراف بكر أبو زيد، نشر مجمع الفقه الإسلامي بجدة ودار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى عام ١٤٢٦.

١٠- إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، مطبوع بحاشية الإتقان للسيوطي "مرجع سابق".

١١- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الخامسة عشرة عام ٢٠٠٢م.

١٢- أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٣.

١٣- إيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل، عبد الرحيم بن عبد الله الزريراني، تحقيق عمر السبيل، دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الأولى ١٤٣١.

١٤- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديثة ببيروت.

١٥- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٣.

١٦- بحوث في أصول التفسير ومناهجه د. فهد الرومي ن مكتبة التوبة بالرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦.

١٧- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي – بيروت.

١٨- البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق عبد القادر عطا، دار الفضيلة.

١٩- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق د. يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي وزميليه، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية عام ١٤١٥.

٢٠- بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات: لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي، تحقيق د. حاتم الضامن، مطبوع ضمن كتاب نصوص محققة في علوم القرآن، نشر وزارة التعليم العالي بالعراق عام ١٤١١.

٢١- البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. غانم الحمد، نشر مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت، الطبعة الأولى ١٤١٤.

٢٢- التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل، لبكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣.

٢٣- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان، لطاهر الجزائري الدمشقي، تحقيق د. عبد الفتاح أبوغدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الثالثة، عام ١٤١٢.

٢٤- التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. غانم الحمد، دار عمار بالأردن، الطبعة الأولى ١٤٢١.

٢٥- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، نشر الدار التونسية بتونس، عام ١٩٨٤م.

٢٦- التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٥.

٢٧- التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧.

٢٨- تفسير ابن أبي حاتم ؛ أبي محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة، الطبعة الثالثة، عام ١٤٢٤.

٢٩- تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١.

٣٠- تفسير القرآن ، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، تحقيق د. سعد السعد، دار المآثر – المدينة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣.

٣١- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين، دار الشعب – القاهرة، وطبعة أخرى بتحقيق سامي السلامة، دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية عام ١٤٢٠.

٣٢- تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه د. علي العبيد، مكتبة التوبة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨.

٣٣- التفسير الكبير، لفخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة عام ١٤٢٠.

٣٤- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة

بمصر.

٣٥- التمهيد في علم التجويد لشمس الدين ابن الجزري، تحقيق د. غانم الحمد، مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٨.

٣٦- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبعة عام ١٣٨٤.

٣٧- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق أوتوبرتزل، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة عام ١٤٠٦.

٣٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق د. عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣.

٣٩- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦.

٤٠- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الشعب – القاهرة.

٤١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار هجر- القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢.

٤٢- خصائص القرآن الكريم: د. فهد الرومي، الطبعة الخامسة عام ١٤١٠، بدون ناشر.

٤٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف (السمين

الحلبي)، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم بدمشق.

٤٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة ببيروت، مصورة عن الطبعة الميمنية بمصر عام ١٣١٤.

٤٥- درء تعارض العقل والنقل، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الطبعة الثانية.

٤٦- دراسات في علوم القرآن الكريم د. فهد الرومي، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٢٨.

٤٧- دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، د. محمد فاضل السامرائي، دار عمار بالأردن، الطبعة الثانية عام ١٤٣٠.

٤٨- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة بمصر، الطبعة الثانية عام ١٣٨٥.

٤٩- درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد الأصبهاني (الخطيب الإسكافي)، تحقيق د. محمد مصطفى آيدن، نشر معهد البحوث بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٢٢.

٥٠- درة القارئ في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن الكريم، عبد الرزاق الرسعني، تحقيق د. محمد البراك، دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الثانية عام ١٤٢٩.

٥١- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين الشنقيطي،

مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤١٧.

٥٢- دقائق الفروق اللغوية وأثرها في البيان القرآن، رسالة دكتوراه أعدها محمد ياس الدوري، من كلية التربية بجامعة بغداد، عام ١٤٢٦.

٥٣- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٤.

٥٤- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار عمار بالأردن، الطبعة الثالثة عام ١٤١٧.

٥٥- الروح، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة محمد صبيح بالقاهرة، عام ١٣٩٣.

٥٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار النبلاء ببيروت.

٥٧- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى عام ١٣٨٤.

٥٨- شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، مؤلف مجهول، تحقيق د. حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى عام ١٤٢٤.

٥٩- شرح الأصول من علم الأصول، لمحمد بن صالح العثيمين، نشر دار البصيرة بمصر.

٦٠- شرح التصريح على التوضيح، لخالد بن عبد الله الأزهري، تحقيق

محمد السود، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢١.

٦١- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، لشهاب الدين القرافي، دار الفكر ببيروت عام ١٤٢٤.

٦٢- شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق سعيد محمد، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢.

٦٣- شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة ببيروت الطبعة الأولى عام ١٤٠٨.

٦٤- شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لمحمد بن صالح بن عثيمين، دار التيسير، الطبعة الأولى عام ١٤٢٦.

٦٥- شرح الكوكب المنير، لابن النجار محمد بن أحمد الفتوحي، تحقيق نزيه حماد الزحيلي، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة، عام ١٤٠٠.

٦٦- شرح مختصر الروضة ، لأبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق د. عبد الله التركي، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، الطبعة الثانية عام ١٤١٩.

٦٧- الصاحبي في فقه اللغة العربية، لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي، تحقيق د. عمر الطباع، مكتبة المعارف ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٤.

٦٨- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة

الإسلامية بتركيا، نشر عام ١٩٧٩م

٦٩- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية – تركيا.

٧٠- ظاءات القرآن الكريم، لأبي العباس أحمد بن عمار المقرئ، شرح أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي، تحقيق محمد بن سعيد المولوي، دار الفكر ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١.

٧١- غاية المريد في علم التجويد، لعطية قابل نصر، مكتبة الحرمين بالرياض، الطبعة الثانية عام ١٤١٠.

٧٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أشرف على طبعه محب الدين الخطيب، الطبعة السلفية – القاهرة.

٧٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية عام ١٣٨٣.

٧٤- الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. غانم الحمد، دار عمار بالأردن، الطبعة الأولى عام ١٤٢٨.

٧٥- الفروق، لأبي العباس أحمد بن إدريس القرافي، دار عالم الكتب ببيروت، مصورة عن طبعة دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٤٧.

٧٦- الفروق لأبي عبد الله السامري، تحقيق محمد اليحيى، دار الصميعي

بالرياض، الطبعة الأولى عام ١٤١٨.

٧٧- الفروق الفقهية والأصولية د. يعقوب الباحسين، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الثانية عام ١٤٣٠.

٧٨- الفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، هشام السعيد، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الشريعة بالرياض، عام ١٤٢٣.

٧٩- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد سليم، دار العلم بالقاهرة.

٨٠- الفروق اللغوية بين ألفاظ العلم ومراتبه ووسائله في القرآن الكريم، د. محمود أحمد الأطرش، بحث منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية بجدة، العدد الثالث، ١٤٢٨.

٨١- الفروق اللغوية وأثرها في التفسير، د. محمد الشايع، دار العبيكان بالرياض الطبعة الأولى عام ١٤١٤.

٨٢- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (تجويد)، نشر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان، شعبان ١٤٠٦

٨٣- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط "التفسير وعلومه"، نشر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان عام ١٤٠٩.

٨٤- فهرس الفهارس والأثبات، لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثانية عام

١٤٠٢.

٨٥- الفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن النديم الوراق، تحقيق د. يوسف طويل، دار الكتب العلمية ببيروت الطبعة الأولى عام ١٤١٦.

٨٦- الفوائد لشمس الدين ابن قيم الجوزية، نشر المؤسسة السعيدية بالرياض عام ١٩٨٢م.

٨٧- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧.

٨٨- الكافية في الجدل لأبي المعالي الجويني، تحقيق د. فوقية محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، عام ١٣٩٩.

٨٩- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد علي التهانوي، تحقيق د. علي دحروج ورفاقه، مكتبة لبنان ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م.

٩٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد اللهّ المشهور بحاجي خليفة، دار العلوم الحديثة - بيروت، مصورة عن طبعة استنابول عام ١٣٦٠.

٩١- القراءات القرآنية لعبد الحليم قابة، دار الغرب الإسلامي ببيروت الطبعة الأولى عام ١٩٩٩.

٩٢- القراءات وأثرها في التفسير والأحكام: د. محمد عمر بازمول، دار الهجرة بالرياض، الطبعة الأولى عام ١٤١٧.

٩٣- لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق عبد الله

علي الكبير وزميليه، دار المعارف - مصر.

٩٤- لطائف الإشارات لفنون القراءات، لشهاب الدين القسطلاني، تحقيق عامر عثمان، ود. عبد الصبور شاهين، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، نشر عام ١٣٩٢.

٩٥- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى عام ١٤١٣.

٩٦- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، د. صالح عبد الله الشثري، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، عام ١٤٢١.

٩٧- مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية عدد (٢١) عام ١٤٠٨.

٩٨- مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، تصدر عن مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة، العدد الثالث، عام ١٤٢٨.

٩٩- مجموع الفتاوى، لأبي العباس أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطابعة المصحف الشريف بالمدينة عام ١٤١٦.

١٠٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، الطبعة الثانية عام ١٤٢٨.

١٠١- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد القادر أحمد بن مصطفى (ابن بدران)، المطبعة المنيرية بمصر.
١٠٢- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، تحقيق طيار قولاج، دار صادر ببيروت عام ١٣٩٥.
١٠٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وزميليه، مكتبة دار التراث بالقاهرة، الطبعة الثالثة.
١٠٤- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري "الحاكم"، دار الكتاب العربي ببيروت، مصورة عن الطبعة الهندية عام ١٣٣٥.
١٠٥- المصنف، لأبي بكر عبد اللهّ بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق مختار الندوي، الدار السلفية - بومباي بالهند، الطبعة الأولى عام ١٤٠٠.
١٠٦- المصباح في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن العزيز نظماً ونثراً، لأبي عباس أحمد بن حماد الحراني، تحقيق د. حاتم الضامن، دار البشائر بدمشق، الطبعة الأولى عام ١٤٢٤.
١٠٧- معالم التنزيل، لمحيي السنة الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وزميليه، نشر دار طيبة بالرياض عام ١٤٠٩.
١٠٨- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي، تحقيق د. محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي ببيروت الطبعة الأولى عام

١٤٢٢.

١٠٩- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرين، المكتبة الإسلامية بتركيا، الطبعة الثانية.

١١٠- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت، الطبعة الثانية عام ١٤١٨.

١١١- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الثانية عام ١٤٢٧.

١١٢- مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، د. مساعد الطيار، دار المحدث – الرياض، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥.

١١٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، لابن الزبير الغرناطي، تحقيق د. محمود أحمد ، دار النهضة العربية ببيروت، عام ١٤٠٥.

١١٤- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية بمصر.

١١٥- منهج الاستنباط من القرآن الكريم، فهد الوهبي، نشر مركز الدراسات بمعهد الشاطبي بجدة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٨.

١١٦- الموسوعة الفقهية الكويتية، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الأولى عام ١٤١٤.

١١٧- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لأبي جعفر أحمد بن محمد

النحاس، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، عالم الفكر بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧.

١١٨- النسخ في القرآن الكريم، د. مصطفى زيد، دار البشر بالقاهرة، الطبعة الثانية عام ١٤٢٨.

١١٩- النشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق علي الضباع، دار الكتب العلمية ببيروت.

١٢٠- النكت والعيون، لأبي الحسين علي بن محمد الماوردي، مراجعة عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الثانية عام ١٤٢٨.

١٢١- الواضح في أصول الفقه: لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، تحقيق د. عبد اللهّ التركي، مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٠.

تدبر القرآن الكريم

مفهومه ـ أساليبه ـ أسبابه ـ آثاره

إعـــداد

د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي

- وكيل عمادة شؤون الطلاب للنشاط الطلابي بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.
- حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته (منهج الاستنباط من القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة من جامعة أم القرى بأطروحته: (المسائل المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه وأثرها في التفسير).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فقد اختصَّتْ هذه الأمةُ ـ ولله الحمد ـ بمنهج فريد في ضبط العلوم: تأصيلاً، وتفصيلاً، وتفريعاً، وتدقيقاً، وتصنيفاً، وتدريساً.

وعلماؤنا ــ رحمهم الله ــ أحكموا التأصيل، وأحسنوا القول في التفصيل، فكان منهجهم في كتابة العلوم منهجاً فريداً، حقيقاً بالإعجاب، والإكبار، ونحن في هذه العصور نتلمسُ في صفحات ذلك التراث الضخم، ما يؤلف دراسةً حديثةً جامعةً للمتشابهات والمتفرقات منه.

ومن تلك المواضيع الحرية بالدراسة والبحث والتأصيل؛ موضوع تدبر القرآن الكريم، الذي هو بحاجة للمزيد من الأبحاث والدراسات التي يمكن أن تؤسس ذلك المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم.

وتدبر القرآن واجب على الأمتين: أمةِ الدعوة، وأمةِ الاستجابة.

وقد وردت الأدلةُ العامةُ الدالةُ على ذلك كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]، وقال جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]. وقال جل وعلا: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ

جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

قال القرطبي: "حثَّ على تَأَمُّلِ مواعظ القرآن، وبَيَّنَ أنه لا عُذْرَ في تَرْكِ التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبالُ ـ مع تركيب العقل فيها ـ لانقادتْ لمواعظه، ولرأيتَها ـ على صلابتها ورزانتها ـ خاشعةً متصدعةً، أي: متشققة من خشية الله"(١).

والمؤمنون بفضل الله تعالى يتأملون آيات الله فتقشعرُّ جلودُهم خوفاً من الوعيد، ثم تلين جلودُهم عند سماع الوعد.

وأما الكافرون فإنهم أعرضوا عن التدبر فكانوا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النحل].

وفي هذه الدراسة المتواضعة حاولتُ إبراز بعض الجوانب المهمة في تأصيل منهجية التدبر، أسأل الله تعالى أن تكون متقبلة لديه، خالصةً لوجهه، إنه جواد كريم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٨ / ٤٤).

تمهيد

مفهوم التدبر

التدبر في اللغة:

تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، فالتدبُّر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه.

قال الزجاج (ت: ٣١١ هـ): " التدبر: النظر في عاقبة الشيء "[١].

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): " دبر: الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أنَّ جُلّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء "[٢].

وقال الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) في تعريف التدبر: " عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب "[٣].

والتدبير والتدبر: نظرٌ في عواقب الأمور[٤]. فتنظر إلى ما يؤول إليه عاقبتُه[٥].

التدبر في الاصطلاح[٦]:

يمكن الخروج بتعريف لكلمة التدبر بمعناها الاصطلاحي عند

(١) انظر: زاد المسير: (٣٠٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٢ / ٢٦٦)، وانظر: العين: (٨ / ٣١).

(٣) التعريفات: (٥٤).

(٤) العين للخيل: (٨ / ٣٣)، والقاموس المحيط: (٣٩٠).

(٥) انظر: الصحاح تاج اللغة: (٢ / ٦٥٥).

(٦) انظر تحرير معنى التدبر عند المفسرين: (٧).

المفسرين بأن التدبر هو:

(تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار والاستبصار)

- فكلمة (تأمل) قد اتفق عليها أغلب المعرفين للتدبر.
- وكلمة (القرآن) هي الواردة في نص الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وفي قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].
- وجملة (بقصد الاتعاظ والاعتبار والاستبصار): هي نتيجة التدبر وثمرته، كما قال تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[ص]. ومما يدل على كون هذا هو المقصود من التدبر؛ توجيه الخطاب في الآيات الآمرة به للكفار والمنافقين، والمقصود من ذلك اتعاظهم بما ورد في القرآن، واعتبارهم الهادي إلى الإيمان واتباع الشرع. وهكذا يكون المقصود عند تعميم الأمر ليشمل المسلمين فالتدبر متوجه إلى اتعاظ القلب واعتباره مما يُثمر بعد ذلك آثاراً دالة على الخشوع: كوَجِل القلب، والبكاء، والخشية، وزيادة الإيمان، وغير ذلك مما ذكره الله تعالى في كتابه نتيجة التأثر بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]. وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[الزمر]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[الأنفال].

المبحث الأول
أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر

دعا القرآن إلى التدبر في مواضع كثيرة، وحثَّ عليه، وتفنن في ذلك غاية التفنن، وحَرَّكَ القلوبَ والعقولَ إلى تأمل المعاني، والاتعاظ والاستبصار بما جاء من الله تعالى من التخويف والترهيب والترغيب، وما ذكر من مصير الأمم السالفة، حين استجابوا أو كذَّبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

لذلك فإن المواضعَ التي يذكر فيها القرآنُ القَصَصَ، والأمثالَ، والتي يذكر فيها الحثَّ على: التعَقُّلِ[1]، والتَّذَكُّرِ[2]، والتَّفَكُّرِ[3]، والتقوى[4]،

(١) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في سبعة مواضع، كما ورد قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في ثمانية مواضع. وقد ورد غيرها من الآيات في نفس الموضوع بصيغ مختلفة.

(٢) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع من القرآن الكريم، كما ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في موضعين. وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في ستة مواضع.

(٣) قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام]. وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في موضعين، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في موضعين.

(٤) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في خمسة مواضع أيضاً، وورد قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في ستة مواضع.

والإيمان[1]، والرؤية والإبصار[2]، والسماع[3]؛ فإنما يدعو فيها إلى تدبر القرآن، والتأمل فيما فيه من المواعظ والآيات، القائدِ بعد ذلك إلى التصديق والإيمان واتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد تنوعت الأساليب التي دعا فيها القرآن إلى التدبر، ويمكن بيان بعض تلك الأساليب فيما يأتي:

- **الأسلوب الأول: الحث المباشر على التدبر العام للقرآن:**

وقد ورد ذلك في عدد من الآيات الكريمات منها:

أ - قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

---

(١) كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

(٢) كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة]، وورد قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرُواْ ﴾ في خمسة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع.

(٣) كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص]، وورد قوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع.

ب ـ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

ج ـ ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

د ـ ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

فقد دعا القرآن هنا إلى التدبر دعوة مباشرة صريحة، وأبان أنَّ عِلَّةَ إنزال القرآن؛ التدبرُ، ولا شكَّ أنها علةٌ عظيمةٌ قائدةٌ إلى كلِّ فلاحٍ وفوزٍ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

- **الأسلوب الثاني: توجيه الخطاب لأصحاب العقول والنهى**[1]:

فقد ورد توجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى أصحاب العقول، والألباب، والنهى.

وسرُّ ذلك: حثُّ أصحاب تلك العقول والألباب إلى استعمالها في تدبر النص القرآني، والاهتداء بما فيه، ومن تلك الآيات:

---

(١) ورد قوله تعالى: ﴿ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ في موضعين أيضاً، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبـــــراهيم]، وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر]، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ في موضعين.

أ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

ج ـ وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) ﴾ [طه].

د ـ وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) ﴾ [طه].

قال ابن جرير الطبري: "وخصَّ ـ تعالى ذكرُه ـ بأنَّ ذلك آياتٌ لأولي النُّهَى؛ لأنهم أهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ"(١).

وقال في تفسير الآية الثالثة: "إن فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره"(٢).

- **الأسلوب الثالث: ضَرْبُ الأمثال بقصد التفكر والتذكر:**

فقد ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم، وحث على تأملها وتذكرها، في آيات عديدة، وفي مجالات متعددة، فضرب الله الأمثال: للإيمان، والكفر، والعلم النافع، وفضح النفاق، والحث على الإنفاق،

---

(١) جامع البيان: (١٦ / ٨٦).

(٢) السابق نفس الصفحة.

والترغيب في الخير، والتنديد بالشر، وتصوير الطيب والخبيث، والصالح والطالح، ولإقامة الأدلة والبراهين، وبيان خيري الدنيا والآخرة[١].

وقد قال الله تعالى في بيان الهدف من تلك الأمثال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر].

وأبان القرآنُ مصيرَ مَنْ لم ينتفع بتلك الأمثال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾[الفرقان].

قال ابْنُ جرير الطبري: "يقول تعالى ذكرُه: وكلَّ هذه الأمم التي أهلكناها، التي سمَّيْناها أو لم نسمِّها، ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ يقول: مثَّلْنا له الأمثالَ، ونبَّهْناها على حججنا عليها، وأعذرنا إليها بالعبر والمواعظ، فلم نُهْلِكْ منهم أمةً إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة"[٢].

(١) انظر: أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم: (٧).

(٢) جامع البيان: (١٧ / ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

- **الأسلوب الرابع: تعليلُ الآياتِ وختمُها بما يدعو إلى التدبر:**

فإن كثيراً من الآيات قد خُتِمَتْ بعلل تدعو إلى التدبر والتفكر، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

ولا شكَّ أنَّ المؤمن يسعى لتحقيق تلك الغايات التي نزلتْ من أجلها الآياتُ، ولا يكون ذلك إلا بتدبر القرآن والتأمل فيه والعمل بما يتضمنه من أوامر وتوجيهات.

وقد أخبر الله تعالى أن الغافلين والكافرين والمتكبرين والمكذبين؛

مصروفون عن تدبر آياته وفهمها والانتفاع بها ـ ومنها القرآن ـ كما قال جل وعـــــلا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف].

قال سفيان بن عيينة: "أنزعُ عنهم فهمَ القرآن، وأصرفُهم عن آياتي"[(١)].

وقال ابنُ جرير الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه. والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه؛ فمن آياته، **والقرآن أيضًا من آياته،** وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقَّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفِّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم"[(٢)].

- **الأسلوب الخامس: ذكر القصص القرآني للتفكر والعبرة:**

قال تعالى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ

---

(١) جامع البيان: (١٣ / ١١٣).

(٢) السابق نفس الصفحة.

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

فقد صرَّحَ القرآنُ بأن في تلك القصص عبرةً، وطريق الاعتبار بتلك القصص هو تدبر القرآن.

وقد أحسن الإمام أبو جعفر الطبري ــ رحمه الله ــ عند تفسير آية الأعراف السابقة حيث كان عمله مثالاً يُحتذى للتدبر فقال: " وأما قوله: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾، فإنه يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاقصص ـ يا محمد ـ هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رُسُلَنا من نقمتنا؛ على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك وصحَّة نبوّتك، إذ كان نبأ ﴿ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ من خفيّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك ــ وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم ـ الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله

رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء"[١].

وبهذا يتبين أثر قصص القرآن في الهداية والإيمان واليقين عند التدبر الصحيح والتأمل بقصد الاعتبار والاستبصار.

(١) جامع البيان: (١٠ / ٥٨٩).

المبحث الثاني
الأسباب المعينة على تدبر القرآن الكريم

١ - معرفة الله تعالى وتعظيمه:

فإن معرفة الله سبحانه وتعظيمه هي الباب العظيم لتدبر كلامه جل وعلا، فإن مَنْ امتلأ قلبُه معرفة بالله وتعظيماً له؛ عَظَّمَ كلامه، وتمعَّنَ فيه، وأصغى إليه متأملاً متدبراً.

وقد أخبر سبحانه أن المشركين ـ وهم الذي لا يعرفونه حَقَّ المعرفة ــ لا ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر].

قال ابن جرير الطبري: " وما أنت يا محمد بمسمع من في القبور كتابَ الله، فتهديَهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا تَقْدِرُ أن يَنْفَعَ بمواعظ كتاب الله وبينات حججه، مَنْ كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله"[(١)].

وبين سبحانه أن سبب تكذيب المشركين؛ عدمُ معرفتهم لله حق المعرفة كما قال تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف].

قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة

(١) جامع البيان: (١٩ / ٣٥٩).

بطشه"[١].

وقال السعدي: "فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل"[٢].

وقال: "فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون"[٣].

ولا شكَّ أن مطالعة التفاسير لا تكفي وحدها في تدبر القرآن ما لم ينضم إلى ذلك الإحساس والإيمان العميقان بأن هذا الكلامَ كلامُ الله تعالى[٤].

قال سَلْم بن ميمون الخوَّاص: "قلت لنفسي: يا نفسُ، اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تَكَلَّمَ به، فجاءت الحلاوةُ!"[٥].

ولا شكَّ أن تعظيم القرآن من تعظيم الله تعالى، فكما أنه سبحانه عظيم في ذاته، فإنه عظيم في صفاته ومنها كلامه القرآن، وقد سماه سبحانه برهاناً، ونوراً، وهدىً، وفرقاناً، وشفاء لما في الصدور، فعظمه عند المؤمنين؛ ليُعَظِّموا قدره ويفهموه، لينالوا شفاء قلوبهم[٦].

---

(١) تفسير البغوي: (٣ / ٢٤٢)، زاد المسير: (٥٠٣)، وانظر: الوجيز للواحدي: (٣٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٨١٣).

(٣) السابق: (٨٧٢).

(٤) تدبر القرآن الكريم : (٤٦).

(٥) سير أعلام النبلاء : (٨ / ١٨٠).

(٦) انظر: فهم القرآن : (٢٨٢).

قال الحارث المحاسبي: "فإذا عَظُمَ في صدْرِك تعظيمُ المتكلِّم به، لم يكن عندك شيءٌ أرفعُ، ولا أشرفُ، ولا أنفعُ، ولا ألذُّ، ولا أحلى، من استماعِ كلام الله عزَّ وجلَّ، وفهمِ معاني قوله، تعظيماً وحبّاً له وإجلالاً، إذ كان تعالى قائله، فحبُّ القولِ على قَدْرِ حُبِّ قائله"[1].

وقد أحسن الإمام الغزالي في تصوير أثر ذلك التعظيم حيث يقول: "ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعد له، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمى والتعالي. فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام"[2].

٢ - التمهل والتأني عند القراءة:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل]، قال ابن كثير: "أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره"[3].

والتمهل في قراءة القرآن أدعى للفهم والتدبر، وهذه صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كما وَرَدَ ذلك في عدة أحاديث منها:

(١) فهم القرآن: (٣٠٢) وله كلام جميل في هذا الموضع.

(٢) إحياء علوم الدين: (١ / ٢٨١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١٤٢٧).

- عن حفصة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في سبحته قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعامٍ، فكان يصلي في سبحته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها [١].
- وعن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مدًا، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمد بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويمد بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويمد بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ [٢].
- وعن أم سلمة: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [٣].
- وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة [٤].

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين: باب جواز النافلة قائماً وقاعداً: (٧٩٣) رقم (٧٣٣).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن: باب مد القراءة: (٤٣٧) رقم : (٥٠٤٦).

(٣) رواه أحمد في مسنده: (٤٤ / ٢٠٦) رقم : (٢٦٥٨٣) قال الأرنؤوط في تخريجه: "صحيح لغيره وهذا سند رجاله ثقات رجال الصحيحين"، ورواه أبو داود في سننه في الحروف والقراءات: (١٥١٦) رقم (٤٠٠١)، والترمذي في سننه في فضائل القرآن: باب كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٣) وفي أبواب القراءات: باب في فاتحة الكتاب: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٧).

(٤) رواه البغوي في تفسيره: (٨ / ٢٥١)، والآجري في أخلاق حملة القرآن: (١٠ ـ ١١)، وأصله في الصحيح:

=

- وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذًّاً كهذِّ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المُفَصّل سورتين من آل حم في كل ركعة[1].

٣ - فهم القرآن:

فهم القرآن هو أساس التدبر الصحيح، وذلك بفهم المراد من كلام الله تعالى، وفهم القرآن شامل لفهم معنى الآيات ـ بحيث يفهم القارئُ معاني الكلمات، ويقرأ تفسيرها ـ ولفهم المقصود من إيراد الآيات: وبهذا يفهم القارئُ مقاصد القرآن.

قال ابْنُ جرير الطبري: "وفي حَثِّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات... ما يدلّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه. لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: (اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان

= فقد روى البخاري في الأذان: باب الجمع بين السورتين في ركعة: (٦١) رقم (٧٧٥) عن أبي وائل: جاء رجلٌ إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصَّل الليلة في ركعة، فقال: هذًّاً كهذِّ الشعر!، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهنَّ، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حم في كل ركعة. ورواه أيضاً في فضائل القرآن: باب الترتيل في القراءة: (٤٣٧) رقم (٥٠٤٣).

وروى مثله مسلم في صلاة المسافرين: باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ: (٨٠٦) رقم (٨٢٢).

(١) رواه البخاري: (٦١) رقم (٧٧٥).

والكلام)- إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه"(١).

وينبغي للقارئ أن يبتعد عن موانع الفهم كالتكلف في القراءة والانشغال بها عن الفهم، واتباع الهوى فإنه من أعظم موانع تدبر القرآن الكريم.

٤ -تحسين الصوت عند القراءة:

وللصوت الحسن أثرٌ كبيرٌ في تدبر كلام الله تعالى، وقد حثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على تزيين الصوت عند القرآن فقال صلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم) (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن) (٣).

قال ابن كثير: "قد فهم من هذا أن السلف ــ رضي الله عنهم ــ إنما

(١) جامع البيان: (١ / ٧٦ ـ ٧٧).

(٢) رواه أبو داود في سننه في الوتر: باب كيف يستحب الترتيل في القراءة: (١٣٣٢) رقم (١٤٦٨)، والنسائي في سننه في الافتتاح: باب تزيين القرآن بالصوت: (٢١٥٣) رقم (١٠١٦) و (١٠١٧)، وابن ماجة في سننه في إقامة الصلوات: باب في حسن الصوت بالقرآن: (٢٥٥٦) رقم (١٣٤٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، وانظر: السلسة الصحيحة للألباني: (٢ / ٤٠١) رقم (٧٧١).

(٣) رواه البخاري في التوحيد: باب قول الله تعالى: (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير): (٦٢٨) رقم (٧٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله"[1].

وقال: "والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به"[2].

وقال النووي: "أجمع العلماء ـ رضي الله عنهم ـ من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم من علماء الأمصار أئمةِ المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورةٌ نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مستفيضةٌ عند الخاصة والعامة"[3].

والمطلوب من تحسين الصوت الوصول للخشوع والتأثر، قال السندي: "المطلوب من تحسين الصوت بالقرآن أن تنتج قراءته خشية الله فمن رأيتم فيه الخشية فقد حسن الصوت بالقرآن المطلوب شرعاً فيعد من أحسن الناس صوتاً"[4].

٥ - فهم لوازم النص ومقاصده:

وهذا من أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم، فإن القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر في

(١) تفسير القرآن العظيم: (١ / ٦٠) طبعة دار طيبة.

(٢) السابق: (١ / ٦٣) طبعة دار طيبة.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن: (١٠٩).

(٤) نقله عنه في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧ / ٥٨٧).

ما لم يذكر، وقد يختم الآية بعلة لم تعلق بشيء، ليتأمل العقل، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر].

قال الشوكاني: "ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذمّ؛ لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، كما تقرّر في علم البيان"[1].

ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة.

وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية.

---

(١) فتح القدير: (١٩٧٠).

المبحث الثالث
ثمرات تدبر القرآن الكريم

عند تأصيل منهج تدبر القرآن الكريم؛ لابد من ذكر الثمرات التي يُرجع إليها لمعرفة المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم، حيث قد وُجد خلط بين بعض السلوكيات المصاحبة لتلاوة القرآن الكريم، وبين تدبر القرآن الكريم، فظنَّ كلُّ من عَمِلَ عملاً متأثراً بالقرآن أنَّ ذلك نتيجة التدبر، وهو غير صحيح.

بل لابد من التمعن في هذه الثمرات، وقياس الإنسان نفسَه عليها حتى يعلم موافقته للتدبر الصحيح من عدمها. ومن تلك الأصول ما يأتي:

- **الثمرة الأولى: التدبر الصحيح يهدي إلى الإيمان ويزيده:**

وقد دلَّ على ذلك أدلة من كتاب الله تعالى منها:

أ - قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

ب - وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال].

فالآية الأولى صريحة في زيادة إيمان المؤمنين بسبب ما أنزل من القرآن الكريم، وإنما يكون ذلك عند تأمل القرآن وتدبره وفهم ما فيه، مما ينتج عنه الخوف والفزع والرجاء بما عند الله، والعمل بما يتضمن من أوامر ونواهٍ.

قال مجاهد والسدي وغيرهما: ﴿ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾: فرقت، أي: فزعت

وخافت[١].

وقال الربيع بن أنس: "﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: زادتهم خشية"[٢].

وليس مجردُ السَّماع كافياً في حصول ذلك الإيمان، فإن المشركين قد سمعوا القرآن ولكن كان عملُهم الإعراضَ والكفرَ والتكذيبَ والاستهزاءَ والتوليَ وعدمَ العملِ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم].

فتزيدهم لذلك الآياتُ رِجْساً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة].

وأما المؤمنون فإنهم بخلاف ذلك كما قال ابن كثير: "وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٥٧٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٥ / ١٦٥٦) رقم (٨٧٧٩).

زواجره"[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) ﴾ [الفرقان] [2]: "أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين، بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم"[3].

وقال السعدي: "﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾: ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويُحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم،لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنىً كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه،أو يُحدث في قلوبهم رغبةً في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم،أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان"[4].

والمؤمن يقيس تدبره بهذا الأصل العظيم؛ فإن أورثه إيماناً بالله، وتصديقاً برسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهو على جادة السلف الصالح ــ رحمهم الله ــ في تدبر القرآن، وإن كانت تلاوتُه مجردَ ألفاظٍ يرددها أو أصواتٍ يسمعها فإنه لم يصل بعد إلى المعنى الحقيقي لتدبر القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥٧٤).

(٢) تنبيه: كلام ابن كثير حول هذه الآية ليس في تفسير سورة الفرقان وإنما في تفسير سورة الزمر عند الآية رقم: (٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن: (٣١٥).

- **الثمرة الثانية: التدبر يبعث على الخشية والخوف والرجاء والدمع:**

وقد دلَّ على ذلك آيات منها:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

قال ابن كثير: "هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمِّلون من رحمته ولطفه"(١).

وقد وصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

- **مسألة: التدبر الصحيح يبعث على التأثر بلا تكلف:**

وهذا هو حال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، والتابعين رحمهم الله،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

فقد كان تدبرهم للقرآن أعظمَ التدبرِ وأعلاه، مُورِّثاً العملَ والإيمانَ والتأثرَ بلا تكلف، وقد نبه العلماء إلى حال بعض الناس الذين فهموا التدبر على غير وجهه، فكان تدبرهم صراخاً وعويلاً وتكلفاً، ومن تلك الأقوال التي تحذر من ذلك:

- قال عروة بن الزبير: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال فقلتُ لها: إن ناسًا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مغشيًا عليه، فقالتْ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[1].
- وقال عكرمة: سُئلتْ أسماءُ بنت أبي بكر: هل كان أحد من السَّلَف يُغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون[2].
- وعن ابن عمر أنه: مر برجل من أهل العراق ساقطًا، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط! [3]. وقال ابن عمر: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٠ / ٣٢٤٩) رقم (١٨٣٧٩) ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (٧ / ١٩١) إضافة إليه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر. وانظر: زاد المسير: (١٢٢٩)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٨ – ١٢٢٩).

(٣) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وزاد المسير: (١٢٢٨)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

وسلم[١].

- وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: جئتُ أبي، فقال لي: أين كنتَ؟ فقلت: وجدتُ قوماً ما رأيت خيراً منهم قَطٌّ، يذكُرون الله عز وجل فيُرعَد واحدهم حتى يُغْشَى عليه من خَشْية الله عزَّ وجلَّ، فقعدتُ معهم، فقال: لا تقعُد معهم بعدها أبداً. قال: فرآني كأني لم يأخذ ذلك فيَّ، فقال: رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، ورأيتُ أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيبُهم هذا من خَشْية الله تعالى، أفترَى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر، قال: فرأيت ذلك كذلك[٢].
- وقال قتادة بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]: "هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان"[٣].
- وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذ قرئ عليهم القرآن؟ فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطًا رجليه ثم يقرأ عليه

---

(١) انظر: البحر المحيط: (٩/ ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥/ ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧/ ١١٦).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره: (٣/ ١٣٠) رقم (٢٦٢٦)، وانظر: تفسير البغوي: (٧/ ١١٦)، وفهم القرآن: (٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق[1].

- وكان جَوّابُ يُرْعَدُ عند الذِّكْر، فقال له إبراهيم النخعي: إن كنت تملكه، فما أُبالي أن لا أعتدَّ بك، وإن كنتَ لا تملكه، فقد خالفتَ من كان قبلك[2].

- وقال القرطبي: "الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوعَ الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذللاً، وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك. وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُروا بعين البر والإجلال وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان"[3].

- وقال أيضاً: "فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى

---

(١) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١ / ٣٧٥).

ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة]، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمن كان مستناً فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون"[1].

- وقال ابن كثير في بيان وجوه مخالفة المؤمنين للفجار عند سماع القرآن: " أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلّى في الدنيا والآخرة"[2].

هذا هو المنهجُ المعروفُ عن مجمل السلف الصالح رحمهم الله في تدبر القرآن الكريم، وقد وُجِدَتْ استثناءاتٌ من بعضهم نبَّه عليها العلماء:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إذَا كَانَ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَد عَنْ هَذَا، فَقَالَ: قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ

(١) السابق: (٧ / ٣٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

الْقَطَّانِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ لَدَفَعَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ فَمَا رَأَيْت أَعْقَلَ مِنْهُ وَنَحْوَ هَذَا. وَقَدْ نُقِلَ عَنْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ وَعَلِيُّ بْنُ الفضيل بْنِ عِيَاضٍ قِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ. لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ وَجَلُ الْقُلُوبِ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَاقْشِعْرَارُ الْجُلُودِ...

وَقَدْ يَذُمُّ حَالَ هَؤُلَاءِ مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا وَالْجَفَاءِ عَنْ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَقَدْ فَعَلُوا وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ حَالَهُمْ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ وَأَتَمُّهَا وَأَعْلَاهَا وَكِلَا طَرَفَيْ هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ... وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَزُلْ عَقْلُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلُ مِنْهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ. وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إلَى السَّمَاءِ وَأَرَاهُ اللهُ مَا أَرَاهُ وَأَصْبَحَ كَبَائِتٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ... وَمَنْ خَافَ اللهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إلَى فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ...

وَالصَّوَابُ: لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهَّ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ وَأَنَّ أَفْضَلَ الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ إلَى اللهَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللهَّ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ"[1].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١ / ٨ ـ ١٤).

▪ **الثمرة الثالثة: التدبر يورث العمل:**

فإن تدبر القرآن لا يقفُ بالمؤمن عند مجرد السماع والتأثر، بل يتعدى ذلك إلى العمل والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا أصلٌ عظيم من أصول التدبر، وإلا فقد ذمَّ الله اليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بالكتاب، والحال أنهم لا يعملون به، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة].

وقال الشيخ السعدي: " وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة]" [(١)].

ولا شكَّ أن العمل بالقرآن الكريم نتيجة الإيمان به وتدبر معانيه.

وختاماً فهذه الثمرات وما ذكر في هذا الموضوع، محاولة لضبط وتأصيل هذا الموضوع المهم، أسأل الله تعالى أن تكون محاولة في الطريق الصحيح، والموضوع لا يزال بحاجة إلى مزيد بحث وتأمل، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم...

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

---

(١) القواعد الحسان: (١٣٦).

ثبت المراجع والمصادر

١. **إحياء علوم الدين،** لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بلا سنة طبع.

٢. **أخلاق حملة القرآن،** لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٨هـ.

٣. **أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم،** لأحمد بن محمد طاحون، دار هجر، ط١، ١٤١١هـ.

٤. **البحر المحيط في التفسير،** لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جيل، دار الفكر، ط١٤٢٠هـ.

٥. التأصيل،

٦. **التبيان في آداب حملة القرآن،** للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم، ط٣، ١٤١٤هـ.

٧. **تحرير معنى التدبر عند المفسرين،** فهد مبارك الوهبي، مخطوط.

٨. **تدبر القرآن الكريم وقفات ولفتات،** للدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، ط١، ١٤٣١هـ.

٩. **التعريفات،** للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١٠. **تفسير الإمام عبد الرزاق،** تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

١١. **تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)،** لأبي محمد الحسين بن

مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط٤، ١٤١٧هـ.

١٢. **تفسير القرآن العظيم**، لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الحلبي، ط٣، ١٤١٩هـ.

١٣. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عماد الدين إبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار السلام، ط١، ١٤٢١هـ.

١٤. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عماد الدين إبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١٥. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، للشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

١٦. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٧. **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، راجعه وضبطه وعلق عليه: الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي وخرج أحاديثه: الدكتور محمود حامد عثمان، دار الحديث القاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ.

١٨. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للإمام السيوطي، صححه وخرج أحاديثه: الشيخ نجدت نجيب، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ.

١٩. **زاد المسير في علم التفسير**، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٠. السلسلة الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٥هـ.

٢١. **سنن ابن ماجه**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٢. **سنن أبي داود**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٣. **سنن الترمذي**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٤. **سنن النسائي**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.

٢٥. **سير أعلام النبلاء**، للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٤٢٢هـ.
٢٦. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ.
٢٧. **صحيح البخاري**،المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.
٢٨. **صحيح مسلم**، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط٣، ١٤٢١هـ.
٢٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام الشوكاني، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ.
٣٠. **فهم القرآن**، للحارث المحاسبي، قدم له وحقق نصوصه: د. حسين القوتلي، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٢هـ.
٣١. **القاموس المحيط**، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٤٢٦هـ.
٣٢. **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، للشيخ عبد الرحمن السعدي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ.
٣٣. **كتاب العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي

المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال،

٣٤. **مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية،** جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١٤١٦هـ.

٣٥. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،** للإمام ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٦. **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح،** لأبي الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، طبع إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية بنارس الهند، ط٣، ١٤٠١هـ.

٣٧. **مسند الإمام أحمد،** تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٨. **معجم مقاييس اللغة،** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب والآنسة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٩. **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،** للواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ.